ترابها زعفران

إدوار الخرّاط

رواية



دار الآداب


ترابها زعفران

ادوار الخراط

ترابها زعفران

نصُوص إسْكندرانية

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
دار المستقبل العربي ١٩٨٥
الطبعة الثانية
دار الآداب ١٩٩١

- ليست هذه النصوص سيرة ذاتية، ولا شيئاً قريباً منها. ففيها من شَطْح الخيال، ومن صنعة الفن ما يشطّ بها كثيراً عن ذلك.
- فيها أوهام ـ أحداث، ورؤى ـ شخوص، ونُوَيّات من الوقائع هي أحلام، وسحابات من الذكريات التي كان ينبغي أن تقع ولكنها لم تحدث أبداً.
- لعلها أن تكون صيرورة، لاسيرة. وليست، فقط، ذاتية.
- هي وَجْد، وفقدان، بالمدينة الرخامية، البيضاء ـ الزرقاء، التي ينسجها القلب باستمرار، ويطفو دائماً على وجهها المُزبِد المضيء.
- اسكندرية، يا اسكندرية، أنتِ لستِ، فقط، لؤلؤة العمر الصلبة في محارتها غير المفضوضة.
- مع ذلك، أنشودتي إليك ليست إلا غمغمةً وهينمة.

إدوار الخراط

١ السّحاب الأبيض الجامح

عـدت إلى شارع راغب بـاشا. كـان الكوبـري الصغير مفتـوحاً، ومياه ترعة المحمودية تحته حمراء، وكنت أعرف أنها تدور حول قـوائم الكوبري في دوامات متقلبة.

كنت أقف في أول عـربة من عـربات الكـارّو الـطويلة، قـدمـاي متشبثتـان بالخشب، خلف الحصـانين القـويين بينهـما قائم التعـريشـة الـطويلة، أرى الذيـول المقـوسـة مليئـة بـالشعـر الأشقـر، والكفلين الـدائريـين بلونهما الأصهب عليهما نـدى لامع من العـرق، الرأسـان بعيـدان، محنيّان، في الأمـام، أسمـع الحمحمـة الغضـوب المكتـومـة بجهد.

من كـان إلى جـانبي يمسـك بـالأعنّـة؟ وجـوده مـليء بـالسيـطرة والتحكم، لكني لا أكاد أراه مع ذلك، أعرف فقط أنـه إلى جانبي في نور الصبح تحت سحاب الإسكندريـة الوضيء الـرقيق الذي ينسـاب بسرعة في السماء الصافية.

كنا نقف أمام وابور الدقيق، أحجـار جداره العـالي باللون الأحمـر الكابي، تقطعه شبابيك طويلة عليها قضبان حديدية رفيعة سوداء من

ورائها عتمة الداخل التي تصدر عنها أصوات الماكينات تدقّ دقّات مسدودة الصدى بإصرار.

وكنت أعرف أنني تركت غيط العنب وشارع راغب من زمن بعيد وأنني مع ذلك ما زلت هناك.

كانت العربة محملة «بالشوالات» البيضاء، تفوح منها رائحة الدقيق المطحون حديثاً، أمام الباب المكون من ضلفة حديدية واحدة عريضة بعجلات تنزلق على قضيب في الأرض، وعلى الرصيف ميزان قباني ضخم ليس على أرضيته المعدنية الرصاصية اللون شيء. ذراعه الطويلة ممدودة ومائلة في آخرها الصنجة الحديدية مدورة من الجانبين وحافتها العلوية ـ والسفلية ـ مقطوعة وحادة.

وكان آخر الحمالين يضع آخر «الشوالات» على آخر العربة. كانوا سمر الوجوه، صخريين، يرتدون شوالات فارغة، من الخيش، مقصوصة من الجانبين، تبرز منها الأذرع الناحلة المفتولة، عارية حتى الكتف.

كنت أعرف أن الباب يفضي إلى طرقة طويلة مبلطة تقف إلى جانبها الغرابيل الأسطوانية الضخمة، في الظل، تحت سقف مائل من الحديد المموّج، وأن أشعة الشمس تسقط في أعمدة مخروطية تتسع إلى أسفل وتقطع العتمة. وتطير داخل هذه المخروطات من النور ذرات الدقيق الدقيقة المتقلّبة لا تنقطع عن الصعود والهبوط والدوران. وإلى اليسار كنت أرى الماكينات والتروس الدائرية الكبيرة والأقماع المفلطحة الفوهات والسيور الجلدية العريضة التي تتوتّر مشدودة ممتدّة في الفراغ حتى تصل إلى الطارات الدوارة فتحتضنها

وتدور معها، والمواسير الضخمة فوق الطرقة تربط بين البناء الرئيسي وبين الغرابيل التي تهتز في عتمة العنبر المستطيل.

كانت أمي ترسلني إلى الوابور أشتري كيلة دقيق ونصف كيلة ردّة، من كشك خشبي أخضر اللون من داخل الباب، فيه صعيديّ عجوز مكسور الأسنان يضع على رأسه الجافّ عمامة وحول رقبته كوفيّة صوف، صيفاً وشتاءً على السواء. وكان يكيل لي الدقيق والردّة، بجاروف حديدي كبير، كلاًّ منهما في صندوق خشبي عالٍ مائل الفتحة، ويضعهما في كيسين من الورق الأصفر الداكن، أحسّ بثقلهما على ذراعيّ، وأنا أحملهما إلى صدري، وبقليل من الخجل.

ولكن الكوبري كان مقطوعاً والترام يلفّ القضبان الدائرية ويعود، وعليّ أن أنتظر حتى يقوم حسين أفندي بإغلاقه، فأعبره، وأسير قليلاً في شارع الترام، وأنعطف يميناً إلى بيتنا في شارع الكروم.

وكان يسحرني دائماً دوران التروس الحديدية، المعشّقة تحت جسم الكوبري، وانطباق أرضية الكوبري إذ تنزلق ببطء حتى تلتقي بأرضية الشارع، بإحكام، لا يبقى بينهما إلا خط دقيق جداً كالشعرة، أرى منه ماء المحمودية يبرق وينساب بسرعة.

وكانت بائعات الفجل اليانع العريض الورق برؤوسه الباهتة، والليمون البنزهير والمش في قِصاعه البنية الصغيرة والبصل الأخضر والكرات المرشوش بالماء، يجلسن على رأس الكوبري، على التراب، بملابسهنّ السوداء، والطرح المغبرة التي تنتهي بربطة عمامة مربعة على الرأس، ويرضعن أولادهن الذين ينامون وقد انطبقت أفواههم على

أثداء مكشوفة متهدلة من شقّ طوليّ في جانب الجلابية الواسعة.

كنا نسكن في الدور الثالث من البيت، وأمامنا السطح الذي كانت أمي تربي فيه البطّ والفراخ، وتربط خروف العيد. وكان للسطح سور قصير أشبّ برأسي فوقه لكي أطلّ على حديقة كثيفة مستطيلة الشكل، ضيقة، بين بيتنا وحائط البيت المجاور، وفيها نخل ترتفع شواشيه حتى تستند إلى الحائط العالي المقابل، وتحته زرع غامض وأصص ريحان وعتر متزاحمة، وكان للجنينة باب داخلي يفتح على الشقة التحتانية، وليس لها باب على الشارع.

وكان حسين أفندي يسكن في الشقة التي تحتنا مباشرة، في أول كاط، وكان أحمر الوجه دائماً، قصير ومدملك وله كرش صغير، ويلبس الطربوش المكوي على الزاوية الصحيحة دائماً، ويمسك بعصا من خشب الجوز اللامع ذي العقد. وكنت أراه في بيتهم أحياناً بالجلابية البيضاء النظيفة وكان يضحك معي ويعاكسني، بطيبة قلب، بصوته الأجش المرح.

لم يكن عنده أولاد، وكانت زوجته الست وهيبة صديقة أمي جداً، وكانت تقول لها أحياناً إن نبيهّم أوصاهم بنا وأن عيسى نبيّنا هو أيضاً رسول من عند الله مثل موسى وإبراهيم، وكانت أمي تحلف لها أحياناً بالمسيح ابن الله الحيّ، وكانتا تضحكان معاً على أشياء لا أعرفها يقولانها بهمس، وتنتهي زيارتها اليومية لنا بأن تقبّل إحداهما الأخرى، وكنت أستغرب قليلاً لأنهما تضعان الخد بإزاء الخدّ، وتمصمصان بالشفتين تضمّانهما على شكل التقبيل تماماً لكنها ليست قبلة بالفعل.

وسمعت أمي وست وهيبة تتحدثان همساً عن السكان الجدد الذين جاءوا في الشقة التحتانية المطلة على الجنينة وسمعت الست وهيبة تقول إن ذلك في وجهنا ويجب أن نفعل شيئاً.

كانت الشقّة التحتانية دائماً مغلقة الشبابيك، وكنت وأنا أعود من المدرسة أرى الباب مواربأ قليلاً وألمح وراءه حسنية.

كنت أراها، نحيلة، شعرها الحالك مربوط بمدورة بيضاء، وصغيرة الجسم ولا تكبرني ربما إلا بسنين قليلة، وأحس أن فيها شيئاً ما يجذبني وأحبّه جداً.

كانت تجلس على كرسي خيزران أمام مائدة رخامية واسعة القرص عليها مفرش أبيض مخرّم ومشغول، وهي في قميص نوم واسع عليها وقصير لا يصل إلى ركبتيها، مفتوحة الرجلين تمدّهما أمامها بتعب واسترخاء. وعندما تحس بي تستدير بوجهها إليّ من العتمة الخفيفة التي فيها نور خافت كأنه أخضر اللون يأتي من باب الجنينة الداخليّ، وأنا في الفسحة الرطبة البلاط بعد الباب الخارجي، أمام الدرجة العريضة الأولى من السلّم، أرى عينيها الواسعتين في وجهها الحادّ المخروطيّ العظم، منتفختين ولكن حاجبيها كانا مقوسين ورفيعين جداً على محجري العينين.

وكنت أرى أمها الكبيرة في السن، قوية الجسم وسمينة جداً تخرج من البيت بعد الظهر، لا تلبس ملاية بل دائماً بفستان مشجر واحد وفي إحدى ساقيها خلخال غليظ من الفضّة يحبك كاحلها المتورم على الشِكربينة القماشية ذات الكعب المنخفض.

كانت حسنية، في الأول، تومىء لي برأسها، على سبيل التحية،

فأجري أصعد السلالم ووجهي أحسّه ممتلئاً بالدم لا أعرف إن كنت قد رددت عليها التحية أم هربت.

وفي مرة أشارت إليّ تدعوني بإصبعها، برفق، فخطوت إليها متردداً ووقفت خارج باب شقتّها، وكانت في قميصها الواسع القصير، من نسيج حريري أبيض له وبرة ناعمة ممسوحة من القدم وكثرة اللبس.

قالت لي: تعالى يا حبيبي، تعال.

لصوت مبحوح كأنه مدعوك قليلاً.

وقالت: تروح تشتري لي باتنين مليم كراملة من عند حسني البقال؟

أومأت برأسي موافقاً، وكان ريقي قد جفّ، وجريت بسرعة، ومعي كتب المدرسة، وفي غمضّة عين كنت قد عدت، فقامت إليّ، وأعطتني حبة كراملة برتقالية اللون، سداسية الأضلاع، وعليها وجه «أبو الهول» فتياً وله لحية، بارزاً ونصف شفاف. وفجأة مدّت ذراعها الرفيعة وضمّت رأسي إليها، ووقع وجهي تحت ثديها الحرّ الذي أحسسته لدناً ومتماسكاً وصغيراً وضغطت رأسي إلى أضلاع صدرها اليابسة من فوق القميص الليّن النسيج.

وأفلتّ منها، وقلبي يدقّ وأنا أصعد السلّم جرياً.

فقالت أمي ضاحكة مني وهي تفتح الباب: مالك؟ هو أنت شفت عفريت في عزّ الضهر ولا ايه؟ ادخل اغسل وشك ادخل..

واحتفظت بالكراملة، لففتها في ورقة فضة، ووضعتها في علبة دخان الغزالة الذي كان جدّي يصنع منه سجائره اللفّ، وكنت

أحتفظ فيها بكنوز طفولتي: عظمة كعب بيضاء، وقوقعة ملفوفة الطبقات من الشاطبي، وخمس بليات رقراقة الألوان كالجواهر المخطّطة المثلّلة بالأزرق والأصفر، وزلَطة رمادية ناعمة الجسم، وشرائح من فيلم أسود أحبّها عليه صور متعاقبة لتوم ميكس على حصانه لا تكاد تتغيّر مع أنه يجري. وظللت أحتفظ بقطعة الحلوى حتى بعد أن ذهبت حسنية، وبعد أن بهت لونها البرتقالي وساحت حواف صورة أبي الهول، ثم أكلتها غاضباً.

كنت أحبها وكنت أيضاً أخاف من شيء ما مكتوم في همود جسدها الرفيع المهدود.

قالت لي مرة، وهي لا تنظر إليّ، إنها تسافر في الليل، وتروح بعيداً جداً وأن سفر الليل متعب ولا تطلع له شمس.

وخيل إليّ أنني فهمت، وأنها ربما تذهب إلى محطة مصر وتقضي الليل مسافرة في القطار وتعود قبل الصبح. وكنت أصدق هذا وأعرف في الوقت نفسه أنها لا تترك البيت أبداً.

وقالت: ربنا يتوب علينا من سفر الليالي.

وكنت في تلك الأيام أقرأ الكتاب المقدّس الكبير بغلافه الأسود المنقوش بزخرفة بارزة قد بهتت قليلاً، من الجلدة للجلدة، بإصرار، الإصحاح بعد الإصحاح. وكنت لا أفهم كثيراً تعقيدات العهد القديم والأسماء الكثيرة فيه، وأحلم مع نشيد الإنشاد وأبكي كثيراً عندما أقرأ عن صلب المسيح وكيف تعذب ومات على الصليب من أجلنا. وكان سرّ المسيح يُمضّ قلبي ويحمله عبئاً لا يعرفه أحد.

وكنت أنزل عند ست وهيبة أستلف من عندهم روايات روكامبول

وفانتومـاس وجرجي زيـدان ونقولا رزق الله الـتي كـان يشتريهـا سي حسني أخـو حسين أفنـدي ويضعها في سحّـارة خشبيـة صغـيرة جنب سريره. وقرأت من عنده رواية سـافو في طبعـة كبيرة غـلافها رمـادي كالح وعليه اسم المؤلف بالمطبعة بالبنط الثلث الطويـل القائم العـود. وأشعلت الرواية حواسيّ وازدحم بها خيالي.

كـان سي حسني عنده دكـان بقالـة على قمـة الشارع الآخـر الذي تـطل عليه شرفـة بيتنا، وكـان طول النهـار في دكانـه. وكان طـويـلاً ووسيماً وخشن الشعر ولم يكن يكلمني كثيـراً. كانت ست وهيبـة هي التي تعـطيني كتبـه، وأحيـانـاً تـتركني أدخـل لكي أفتّش في السحـارة وأنتقي مـا أريد، وهي تقف ورائي بجـلابيـة النـوم الخفيفـة، ممتلئة الجسد، وأنثويـة، وصدرهـا وافر وأسمـر وناعم الجلد أراه من فتحـة الجلابية، عالياً عني، يهتز بثقل واطمئنان.

كان لدخول البيت عندهم، دائـماً، رهبة في قلبي، إحسـاس مثير ووجـل وسعيد كـأن فيه إثـما ومتعة، إحسـاس بالجـوّ السرّي الخاص لبيتهم، وأنهم ينامون ويأكلون ويعيشون معـاً، مجهولـين، بطريقـة لا أعـرفها، وعيب أن تعـرف ماذا يفعلون، في مـلابسهم التي لا تراهـا أبداً خارج البيت. ولما كانـوا مسلمين أيضـاً فقد كـان في ذلك عنصر آخر من عناصر الستر والرهبة والغموض الجذاب.

كنت ألمح حسين أفنـدي نائـماً أثناء النهـار، على السريـر الكبير في الغرفة الأخرى، تحت غرفة أبي وأمي، استعداداً لدورية الليل عندمـا يقـوم ليفتح الكـوبري، وكـانت ست وهيبة عنـدما أدق البـاب تفتح الشراعة الزجاجية وتراني وتردّها وتفتح لي البـاب وأعرف أنها خـارجة

من عنـده، أنفاسهـا متسارعـة قليلاً ووجههـا الطيب مضرّج السمـرة وهي تسوّي شعرها الخشن الوحشيّ الشكل بذراعها الملفوفة فيظهر لي جانب صغير خفيّ من صدرها بـين الإبط والثدي عنـدما أرفـع إليها عيني، وتقول لي: يوه الله يجازي شيطانك يا ميخـائيل، عـايز كتـاب تاني؟ هو أنت ما تشبعش روايات؟ تعال يا حبيبي ادخل. وكانت لها عندئذ رائحة خصيبة ومليئة كرائحة العجين الخمران، فأدخـل بسرعة وأنا خجل ومُستثـار، وأسأل نفسي تـرى أين هو شيـطاني وكيف هو؟ وأنسى ذلـك كله وأنا أقلب في الكتب، ومـا زالت رهبة الـدخول إلى شقق الغـرباء عنـدي حيّـة حتى الآن، وكـأنني أخـطو إلى عـالم آخـر ينذرني، ويناديني، ويصدّني معاً بما يحمل من خطر.

في يوم مسح السـلالم كانت أمي تمـلأ الجردل الحـديدي بـالماء من حنفية الحمام، وتحمله إلى البسطة وتصبّه فيتـدفق على درجـات السلّم وهو ينزل بصوت التطام متكـرر بهيج، ثـم تقعي عـلى رجليها تمسحـه بالخيشة الداكنة سلّمة سلّمة حتى باب الست وهيبة التي تكـون تنتظر وهي تضحك وتقول: ياختي حاسبي يا ست أم ميخائيل، على مهلك شوية، عيني عليك باردة، ثم تنحني وهي ترفع طرف جلابيتها البيتي عن ساقين ممتلئتين سمراوين وهي تنظر إليّ بخجل أراه غـريباً جـداً، وتكمل المسح حتى الشقة التحتانيـة، وتتأخـر الست أم حسنية كثيـراً فيظل الماء محصـوراً في برك صغـيرة عكرة عـلى البلاط، وبعـد الغداء فقط عندما أنزل لشراء حاجـة أرى مدخـل البيت والبسطة التحتـانية تلمع ورطبة.

وكانت ست وهيبة تجلس بعد ذلك، وقد غيّرت جـلابيتها المبلولـة وغسلت شعـرها، مـع أمي، تثرثـران وتشربـان القهـوة عـلى الكنبـة

الإسطمبولي المفروشة بملاءة بيضاء متعضّنة على المرتبة القطن المنجّدة، وفي وسطها مخدّتان صغيرتان صلبتان جداً إحداهما فوق الأخرى تميل عليها الست وهيبة بجنبها وهي تتكلم. وأنا أعطيها ظهري، أذاكر وأعمل تمارين الإنجليزي على مائدتي الرخامية البيضاوية الشكل المفروشة بورق الجرائد، مسنودة إلى الحائط، رُصّت عليها كتبي المدرسية وكراريسي في رصّتين متساويتين، وبينها رواية من روايات الجيب مخبأة بعناية وقد نزعت غلافها الملون حتى لا يفضحني بصورة الغانية الزرقاء الممشوقة جداً يلفّها رداء عاري الظهر بحمّالة واحدة وينسدل الرداء طويلاً متموجاً برشاقة حتى آخر الغلاف من تحت.

كنت أسترق السمع إلى حديثهما الهامس، وأنا أنقل تصاريف الأفعال الإنجليزية، بالريشة ذات السنّ النحاسية الرفيعة التي تنزل منها فجأة قطرة مدوّرة من الحبر فتشعّع على الورق قبل أن ألحقها بالنشافة. وعرفت أن العربجية من الإصطبل الذي أمامنا يدخلون الشقّة التحتانية بالليل، ويخرجون بعد ساعة أو ساعات، واحداً بعد الآخر، وأن رائحة الحشيش تعبق في بير السلم حتى الصبح، وهمست ستّ وهيبة بصوت أجش قليلاً ومليء بالحرارة: ومش بس العربجية ياختي، دول بيجبولهم زباين من القهوة اللي على المحمودية في أنصاص الليالي، ولا كوم بكير. وكان للكلام الغريب وقع غامض في نفسي ولم أجرؤ أن أسأل. فقد حدست طبعاً أن فيه مما يحدث بين الرجال والنساء ما يروّع.

كان في هذه الغرفة «جرامفون» على شكل صندوق مربع، موضوع على «كومودينو» ببابين، من الخشب الداكن اللامع وعليه

زخرفة نباتية معشّقة من الخشب الأصفر، وفوقه البوق الذي تنفتح فوهته وتبدأ دقيقة ثم تتسع حتى تنفرج ضافية الاستدارة. وكان على الأسطوانات السوداء كلب يضع فمه في بوق آخر يشبه بوق «الجرامفون» الذي عندنا تماماً، ومكتوب تحته صوت سيده، ويحيّرني أنه ينبح داخل البوق بصوت سيده، ومَن سيده؟ بينما كانت الأسطوانة تدور ببطء وقتذاك بصوت سريع رفيع: بيضافون تقدم الأستاذ محمد عبد الوهاب ثم يرتفع صوته الحلو الذي يخشخش بأغنية عن النيل نجاشي حليوه أسمر، ثم تخفت الأغنية حتى نديس المقبض ونملأ «الجرامفون» من جديد.

تنفتح غرفتي هذه على باب شرفة طويلة مقفلة عليها تعريشة خشبية مسقوفة تغطيها من كل الجوانب ولها نافذتان صغيرتان تطلان على الإصطبل الذي تقف فيه بالليل عربتنا «حنطور» وأربعة خيول، وأكوام رطبة الشكل زهمة من البرسيم، وعجلات مخلوعة، تحت سقف مائل مقطوع قائم على أربعة أعمدة حجرية قصيرة. للإصطبل بوّابة خشبية عريضة وواطئة تفتح على رحبة ترتفع قليلاً واسعة من غير انتظام، بين الإصطبل والبيوت، ثم تخلص إلى حارة ضيقة تعلو أرضها ثم تهبط، أخيراً، إلى شارع الترعة المحمودية. وحافة الترعة العريضة النازلة إلى الماء مزروعة بالجرجير والخص والفجل الذي كنت أشتريه لأمي من فلّاح يلبس قميصاً خشناً كالح الزرقة من غير أكمام، قصير على رجليه العظميّتين السوداوين يخرج إليّ كالعفريت من خصّ صغير جداً بناه من الطين والقشّ تحت جسر الترعة، وكانت يداه كبيرتين وصلبتين وأصابعه قصيرة ومقوّسة.

كنت نائماً على السرير الكبير ذي الأعمدة السوداء في نهايتها

العساكر النحاسية المتخلخلة التي كنت أفكها أحياناً وألعب بها وأركّبها بسرعة قبل أن يعرف أحد، وأخواتي البنات نائمات جنبي من ناحية الحائط، عايدة التي كنت أحبّها، وهناء الصغيرة.

وعندما استيقظت فجأة وسط الليل على صوت خبط سريع ملهوف على باب الشقة، كانت لمبة الجاز نمرة خمسة معلقة بالحائط وفتيلتها منخفضة، من وراء بطن زجّاجتها الرشيقة تلقي ظلالاً مهتزّة على أركان الغرفة، وسمعت أبي يقوم من السرير في الغرفة الكبيرة المقابلة، ورأيته يمرّ في الفسحة، وهو يلفّ على نفسه طرفي القفطان الصعيدي المفتوح ويربط حبله المضفور الرفيع حول وسطه، ويسرع إلى الباب، ومن ورائه أمي بجلّابية نومها، تحمل «لمبة» الجاز الكبيرة «نمرة عشرة»، وتلحق به، حافية على بلاط الفسحة.

كنت قد تيقظت تماماً الآن، وأنا أرتجف قليلاً من الترقب والخوف والمفاجأة، وأختاي نائمتان جنبي.

سمعت صوت حسنيّة بالباب، خافتاً وحاراً، متضرّعاً:

- في عرضك يا سِيدي، اتستْر عليَّ ربنا ما يفضح لك ولية. خبّيني عندك، في عرضك، أبوس رجليك.

وسمعت صوت أبي، أجشّ من النوم، طيباً وعذباً جداً، بلهجته الصعيدية التي لم يغيّرها طول عمره:

- باسم الأب والابن والروح الجُدُس. ادخلي يا بنتي، ادخلي. لا حول ولا جوة إلا بالله. مالك يا بنتي، فيه ايه؟

وسمعت حسنية تتوسّل، تكاد تجهش:

ـ البوليس، يا عم قلدس، ورايا. غلبانة يا عمي والله، مظلومة، خبّيني في عرضك أبوس رجليك، في عرضك.

البـاب يُردّ والخـطوات مضطربـة ومتلاحقـة، وأمي تـدخـل علـيّ «باللمبة» الكبـيرة. وفي همس سريع، أبي يقـول لها: ادخـلي يا بنتي. ادخـلي في السرير جنب الأولاد. واتغـطّي. وكأنمـا يقـول لنفسـه، أو يقول لامرأته بصوت خاص به وحده: ربنا أمر بالستر. ربنا يستر على ولايانا.

أما أمي فقد رأيتها في الظلال والنـور المتراوح متنمـرة لامعة العينـين متوتّرة وهمست لأبي: الـولد! فـأغمضت عيني وجمدت. عنـدما فتحت عيني رأيت حسنية تنزلق بجـانبي في قميصها الأبيض الـواسع الـذي أعرفه، شعرها مهوش وعيناها واسعتان من الخوف، وكانت حـافية. وتقلبت عــايـدة قليـلاً وتنهـدت في نــومهـا. واحتضنتني حسنيــة، وأحسست كـل جارحـة فيها تنتفض كـأنها لا تملك أن تردّهـا، وكان جسمها بارداً.

في الهدوء الليلي الخـارجي سمعت وقع سنـابك الخيـل على الشـارع المـدكوك بـالحجر الأبيض الـدقيق والتراب الـرمـلي وضجـة أصـوات مختلطة. وخبط يـأتي على بـاب الشقة التحتـانيـة، ثم خـطوات ثقيلة وسريعة تعلو على السلم، وبـاب شقة الست وهيبة يفتح، وطـرقات ملحة عنيفة على بابنا.

لم أستـطع أن أقـاوم، فقفــزت من السريـر، بجــلابيتي البيضـاء الحرير، ولكني شددت الملاءة وغطيتها، وجريت إلى الباب.

وعندما فتـح أبي الباب انـدفع إلى داخـل الشقة كـونستابـل فارع

الطول بملابس الركوب، الحزام الجلدي السميك والبنطلون الضيق، شاهراً في يده إلى الأمام المسدس الحكومي جسيماً ومنتصباً وشريراً، ووراءه مخبران بالأحذية الميري الثقيلة والبالطو الإفرنجي على الجلابية البلدي، وعصا الجوز الغليظة المقوسة اليد.

وعندما رأى الكونستابل أبي، نحيلاً وقائم العود وفيه كبرياء الصعيدي، رافع الرأس، وأمي من ورائه واضح أنها تيقظت على الفور من النوم، وأنا، تردد لحظة، ثم توقف متحيراً قليلاً وقال:

ـ لا مؤاخذة يابا. لا مؤاخذة. ما حدش دخل عندكم دلوقتي؟

قال أبي بثبات، هادىء الصوت:

ـ حد مين يابني في الساعة دي؟ خير. . إيه الحكاية؟

صرخت أختي هناء الصغيرة في نومها صرخة صغيرة فجرت أمي إليها ومعها اللمبة وتركتنا في العتمة المضطربة، مع البوليس.

قال الكونستابل وقد بدأ يحس أنه سخيف ومتقحّم:

ـ أبداً أنا بس قلبي عليكم يا عمي. انتو ناس طيبين. لا مؤاخذة جاتنا إخبارية عن الشقة التحتانية عندكم. نصيحة يابا خلّ بالك. ما تدخّلش حد عندك لا مؤاخذة. اقفلوا الباب عليكم. تصبحوا على خير.

سمعتهم ينزلون ببطء وسمعت الحصان الميري في الليل تتباعد دقات سنابكه على شارعنا.

قال لها أبي: انزلي يا بنتي خلاص. ربنا يهديك وينور لك سكتك. انزلي ربنا معاك.

كـانت تبكي من غـير دمـوع وتشهق بجفـاف، محنيـة الـرأس. واندفعت تخطف يد أبي تبوسها فاستردها بسرعة كالملسوع وهو يقـول بصوت خفيض متتابع النبرات: سامحني يا رب سامحني يا رب سامحني يا رب.

وكنت أطل عليها وهي تنزل السلم، ورأيت ست وهيبة تنظر إليها من خلف الباب الموارب الذي يلقي على بسطة السلم خطاً مـرتعشاً من النور.

وأنا أرجع للسـرير رأيت أبي في غرفة نومـه، يرسم الصليب عـلى وجهه، ويصلّي.

في الصبْح لم نجد أثـراً لحسنية ولا لأمهـا التي قالت الست وهيبـة إنها لم تكن أمها ولا حاجة. كانو قد لموا عزالهم في عربة كارو وتركـوا الشارع وكنت أفكر فيها وأشتاق إليها.

وعندما عرفت أن البوليس لم يدخل شقة الست وهيبة، ولم يسـألها عن شيء سـطع لـذهني همسهـا لأمي، وفهمت، وكنت لا أريـد أن أراها.

ودون أن أحس كـانت العربـة قـد انتُسِفت من الأرض وانـطلقت يجرّها الحصانان الغاضبان بفتوة وعرامة الجموح، وأنا أسمع قـرقعات العجـلات الخشبية المكسـوة بـطبقـة رقيقـة من الصـاج عـلى أحجـار البازلت السوداء، وكانت حسنية مرمية تحت سنابك الخيـل الحديـدية التي تطأ عظام صـدرها وعينـاها مسـددتان إليّ من الأرض، صلبتـين وينسكب منهـما حنـان صـامت لا أريـده. وينفجـر دق العجـلات والحوافر متلاحقة، والعـربة الكـارو المحمّلة بشوالات الـدقيق تدور،

تعلو تهبط، ولا تتوقّف، تعود مرة ثانية أمام باب وابور الدقيق الضخم، وتدور أمام الكوبري المفتوح، وقد سقطتُ إلى الخلف على المقعد الخشبي، أتشبث بيدي بجانب العربة ليس بجانبي أحد، ولا يتوقف جموح العربة ولكنه لا ينفلت بل هو محكوم.

وكنت أرى نفسي عندئذ والآن في حضيضِ وَهْدةِ الأشواق تنطلق بي الأحلام الوحشية التي لها وجه خيول الذكريات، ضجيجها يكاد يطؤني.

وفي عتمة آخر العمر التي استضاءت فجأة بالحب الزاخر القابض الفسيح كنت أعرف أنني أعتنق أيضاً وهيبة وأتنسم عجينة أنوثتها. وكانت هناك، في داخل لدونة جسدها الخصب، حسنية المقهورة الحنون، وكان شعرها القصير الخشن حياً تحت أصابعي، وكنت أحوِّط عليها بذراعين دُقت فيهما المسامير، مطعون الجنب بالحربة يتقطر مني دم نزر.

٢ بار صغير في باب الكراسته

ما زلتُ أذرع شوارع غيط العنب، كما كنت أعرفها وأنا في مدرسة النيل الابتدائية، واسعة، نظيفة، مستقيمة، أرضها من الحجر المدكوك الملتصق به تراب رملي جاف، والشجر على الأرصفة أمام البيوت المنخفضة، وفيها رائحة الملّاحة الرطبة تأتي من وراء سور السكة الحديد.

شارع «الترامواي» وحده كان مكسواً بالأسفلت الأسود الصقيل تشقّه قضبان الترام اللامعة الجديدة، وكنا نسير، أنا وأمي، أمام مطعم الفول الذي كنا نسمّيه التركي، وكان فسيحاً ومبلطاً ببلاط أبيض وأسود، وبابه، ذو المصراعين الزجاجيين اللذين يبرقان، عريض جداً، ووراءه مباشرة بجانب المنصّة الرخامية الطويلة، قدرة الفول النحاسية الهائلة. وكان يعلق صورة الملك فؤاد جامد الوجه ببدلة التشريفة والشارب والنياشين، وبجانبها صورة الملكة نازلي وعلى شعرها المرفوع في شكل هالة صلبة مرتفعةٍ تاجٌ نصفيّ صغير، وعلى الجدران الأخرى صور تلمع من تحت إطاراتها الزجاجية، فيها سبْع يرفع سيفاً، وأبونا آدم وأمنا حواء، مطرودين من الجنة، عاريين

إلا من ورقة التوت، والحيّة ملفوفة بنظام هندسي حول الشجرة، والخليل ابراهيم يرفع سكيناً ليذبح ابنه اسحاق بينما الخروف واقف والملاك نازل من السماء، ألوانها زرقاء وخضراء يانعة وخطوطها رفيعة مسطحة، وكنت أذهب إليه أشتري باتنين مليم فول في السلطانية الصيني الغويطة، ويغرف لي بمغرفته الطويلة البيضاء من قلب القدرة، وعندما أقول «اتْوصَّ» يضيف غَرْفة صغيرة أخرى وهو يبتسم لي من أعلى، من تحت شاربيه البيضاويين المصفرّين، وعيناه النافذتان الغائرتان تبتسمان لي أيضاً من عمق وجهه الصخريّ العظام الشاهقِ البياض، وفوقه صورة أتاتورك بالقلبق الفَرو الداكن والنظرة الصارمة. وكانت الموائد الخشبية، عند التركي، داكنة ومرصوصة في المحل بنظام، وقد دُعِكت في الخشب طبقة من اللمعان المشقّق من كثرة المسح، من غير مفارش.

وكنت أعرف أن اليوم هو ١١ بؤونة، وأن غداً عيد الملاك ميخائيل. وكنا نذهب، أنا وأميّ، لنشتري زيت السيرج الذي ستصنع به فطير الملاك. وكانت السيرجة بعيدة عليّ، في شارع جانبيّ ناحية غربال، لم أكن، لوحدي، أستطيع أن أذهب إليه.

وكانت أمي تخرج أيضاً بالملابس الافرنجي، ولكنها هذه المرة كعادتها في مشاوير غيط العنب، لبست ملاءتها السوداء الناعمة النسيج، لفّتْها على نفسها بإحكام ورشاقة، والبرقع الخفيف الأسود المخرَّم وعليه القصبة الذهبية المدورة عليها خطوط عرضية بارزة فوق الأنف، وكانت بيضاء الوجه من وراء شبكة البرقع الهفهاف، وتقاطيعها عذبة، وأنا أمشي بجوارها، تمسك بيدي بقوة، وتسير على حذائها المرتفع الكعب، وكنت أحسها جميلة جداً في الشوارع الجانبية

الهادئة التي يظللها الشجر، وكنت أنا ألبس جلابية فاتحة الزرقة عليها خطوط طولية حريرية داكنة الزرقة، وحذاءً أسود جديداً متين الجلد والشراب القصير عليه حلقة «أستك» عريضة بيضاء ماسكةً بشدة على منتصف رجلي.

كان الصبح غير حارّ، والبيوت حوالينا من دور أو دورين، بعضها له جنائن فيها تعريشات العنب الذي ما زال بعناقيده الصغيرة الملتمّ بعضها إلى بعض بحصرم دقيق مدبّب صلب الخضرة.

حَوَّدنا إلى حارة ضيّقة، ورأيت أن الأرض مبلّلة ببقع سوداء داكنة مندّاة على التراب أمام «السيرجة»، ونزلنا درجتين من الحجر تعجّنت عليهما طبقة غير مستوية من التراب وعَقَدَت. واشتدت قبضة أمي على يدي حتى لا أنزلق.

انفسحت أمامي رَحَبة معتمة عالية السقف، وفيها أعمدة مبنية من الحجر الخشن العاري، مربعة الأضلاع، وعلى الحائط شوالات الخيش المكتنزة بالسمسم، مرصوصاً بعضها فوق بعض، ولدنة الانبعاجات، وفَغَمَتْني رائحة الزيت المعصور اللزجة النفاذة، ولها عبق حلو سكّري قليلاً، وكان هناك بغل عريض الكفلين، مغمى العينين، واقفاً مدكوك الجسم، بجانب عَجَلة المعصرة الخشبية السوداء الضخمة التي لا تتحرك الآن.

ورأيت أنني قد انزلقَتْ بي السلالم، وكنت أتدحرج في العتمة، وحدي، لا أحس احتكاكاً بشيء، ولا يخدشني شيء، وأنا ما زلت أهوي وكأنني أطير إلى أسفل، وبلا وزن، والبغل المربوط إلى حجر المعصرة الضخم يدور في العمق تحتي، من بعيد، وتتزايد سرعته،

كأنما يُحلّق في دورانه، من غير صوت، وسرعة دورانه أكبر وأكبر، حتى أصبحت العتمة نوراً صافياً غريباً ليس من هذه الأرض.

وهناك أيضاً رصّة صفائح بيضاء عالية تومض في العتمة رقيقة الجوانب كأنني أحس الزيت المعبأ فيها يترقرق تحت الصفيح الناعم الساكن الذي لا يكاد يتذبذب من ضغط السائل المحبوس في داخله.

وفي آخر هذه الساحة السفلية المعتمة سرنا حتى وصلنا إلى مائدة خشبية غليظة الأرجل عليها دفاتر حسابات ضخمة كعوبها الدائرية بالجلد الأسود السميك، ورصّة أوراق الفواتير، ومحبرة عريضة من الزجاج الكثيف المُزْبَدّ فيها ثلاث عيون مدورة إحداها مليئة بالحبر الأزرق وعلى سطحه غشاوة خفيفة من التراب، والثانية فارغة وفيها دبابيس وأسنان الرِيَش، والثالثة فيها طبقة مترسبة وعليها سائل الحبر الأحمر، وريشتان من الخشب الأسود لهما أسنان مفلطحة تنتهي بذؤابات رفيعة ملوّثة بالحبر.

نهض من وراء المائدة رَجُلٌ طويل نحيل الوجه، يلبس عمامة صعيدية رقيقة القماش دخانية اللون، وقفطانه مفتوح الرقبة تنتهي أكمامه باتساع كبير على معصميه الرقيقين وأصابعه الطويلة، وقال: يا أهلاً وسهلاً شرفتِ يا ست سوسن نوّرتِ السيرجة اتفضلي. كل سنة وأنتم طيبين، وهو يُخرِج منديلاً كبيراً من جيب قفطانه، مربّع النقوش، ويمسح به بقوة المقعدَ القش المحدَّب قليلاً في الكرسي الوحيد الموضوع أمام المائدة، وأمي تقول له، بصوت بارد وكأن فيه عدم تصديق: وأنت طيب، كَتّر خيرك يا معلم عوض، وإزاي المحروس اسكندر؟

جلست أمي على الكرسي بحـذر، وانحسرت ملاءتهـا عن فستانها الذي كان بلون سمني ليس ضيقاً ولا واسعاً بل فقط مُوحٍ وأنثـوي، ووقفتُ وعيناي معلقتان بالحيوان الواقف جنب المعصرة، ركيناً وقريباً من الأرض، وخطمه يعمل بإصرار في مِخلاة التبن الذي تناثرت أعوادٌ جافةٌ منه على الأرض الغمِقة الموحلة قليلاً بالزيت.

قـال المعلم عوض: بخـير يا ست سـوسن بخير، نشكـر الرب. . اسكندر. . يا واد اسكندر، تعال سلِّم على خالتك أمّ ميخائيل.

وجـاء من جوف «السـيرجة» ولـد في مثـل سنّي، محـروق الـوجـه وجافّ، على جلابيته بقـع حائلة، وسلَّمَ عـلى أمي بغضب وصمت، ولم ينظر إليّ، وجرى راجعاً إلى ما وراء الأعمدة الثقيلة المربعة.

وكان في أركان «السيرجة» رجال نائمون على «شوالات» فارغة على الأرض أومستندون بظهورهم إلى أكوام «شـوالات» السمسم المليئة، وتصدر عنهم أصوات غطيطٍ خفيف أو أنين خافت مكتوم، وفهمت، بقليل من الرعب، أنهم لا بد قد سهروا طول الليل يحملون ويَعْتلون ويعصرون، حتى الفجر.

كانت صفيحة «السيرج» الصغيرة ثقيلة مـع ذلك في يـدي والحلقة المستـطيلة التي أحملها منهـا، مصنوعـةً من معدن مـدور رفيـع، تُهـدِّد بالانخلاع وتحزّ في باطن أصـابعي وتحرقهـا قليلاً، وقـالت أمي ونحن في طريق العودة: تِقيلة عليك يا ميخائيل؟ فقلت بشجاعة: لا أبداً، وأنا أغالب وجع الحزّ في أصابعي والخَدَر في ذراعي لأنني فرحان بعيد رئيس الملائكة الـذي كنت منذوراً لـه، وكنت أعرف أنـه هو الـذي دحرج الحجر الضخم عن فتحة قبر المسيح القائم من بين الأموات.

وفي البيت كـانت أمي تصبّ «السـيرج» من الصفيحـة إلى طشت أبيض صغير لتصفّيه من عكـارة السمسم الدقيقـة العالقـة به، وكـان الـزيت ثقيلاً ولـونه أصفـر عجيب الصفاء ولـه قوام شفـاف متمـوِّج ومتهاسك.

وفي الليل قامت أمي تُقرِّص فطير الملاك في الشرفة الواسعة العالية المُطلّة على الشارع الناعم، وتضغط عـلى كل قـرص بالخشبـة المدورة الممسوحة بـالسيرج، التي عليهـا خطوط غـائرة خشنـة الحدود تعـطي صـورة للملاك يحمـل الميزان وحـوله فـروع نباتـات دائريـة، وكلمات بـالقبطيـة عرفت أخـيراً أنها يسوع المسيـح ابن الله وفـوقهـا الصليب القبطي المُورق الأطراف. ورأيت القمر مستديراً كـامل الفضـة كأنـه باب القلب المفتوح في السماء.

في الصبح أعطاني أبي عيديّتي، أنا وحـدي، حِتّه بخمسـة، فضية جديدة عليها طغراء باسم السلطان حسين، وقبّلني عـلى جبهتي ونزل للشغل، وبعد أن رجعنـا من الكنيسة قـالت أمي إننا سنـذهب لخالي حنّـــا نسلّم عليهم ونعـطيم فــطير المـلاك، وخــرجْنــا حتى شـــارع «الترامواي» وكانت هناك أمام الكراكون ثلاث أربـع عربـات حنطور واقفة، وساومت أمي العربجي حتى وافق على ثلاثة صـاغ وكان يلف رأسـه بشال مخـطط وملون ووجهه أعجف مُخَـدَّد وفيه تَـرَفُّع، ويكـحّ بشدة من وقتٍ إلى آخر، وكنت مُحْبَـطاً قليلاً لأنني لا أستـطيع، هـذه المـرة، أن أركب بجانب العـربجي، وراء الحصـان من فـوق، لأنني كنت أحمل بين ذراعيّ أقراص الفطير، ملفـوفةً بـورق من مجلة قديمـة وعليها فوطة بيضاء، وكنت أحسّ بالفطير، من وراء الـورق والقماش هشـاً سريعـاً إلى الانكســار، وأحـرص ألا يصــطدم بشيء، وكـان

العربجي يسابق ترام محرم بك وهو يقرقع بالكرباج فوق ظهر الحصان الذي له لون «الكونياك» الفاتح الذي يشربه أبي، وكانت عجلات العربة تقرقع على قضبان الترام التي تومض في الشمس.

ودخلت العربة إلى شارع الرصّافة، وكانت الأشجار ظليلة في الصبح والشمس تهتزّ من بين أوراقها التي لها رقرقةٌ سريعةُ الموج وجافة في الهواء الرطب. ثم حوَّدَت العربة إلى شارع جانبي ترابي ولكنه واسع، وفيه خرابات مسورة بالحجر الأبيض الكبير المكسر الضلوع وفي الحجر خطوط متعرجة داكنة اللون، وفيه بيوت كالسرايات لها أسوار حديدية تتهدّل عليها أغصان كثيفة وتهبّ منها رائحة الياسمين البلدي العبقة ورائحة الأرض المبلولة.

نزلنا أمام سور البيت. وكانت أمي تلبس فستانها السمني اللون من غير ملاءة، وتضع قبعة صغيرة من القماش «البيج» الفاتح وعليه عنقود صغير، مرتّب بمكر، من حبوب الكريز الاصطناعية وزهور قاتمة الحمرة على أغصان رقيقة جداً خضراء، مشبوكة كلها بالقبعة بدبوس مذهَّب في غاية الدقة.

كان الباب الذي وقفنا أمامه ضيّقاً وعالياً ومصنوعاً من الحديد المشغول الصدئ، ودفعناه من غير أن ندق عليه فانفتح، ببطء، عن ممرٍ عرضي ضيّق يحيط بالبيت، مزروع. وكانت هناك وراء الباب، مباشرة من الداخل، حنفية ماء غليظة الفوّهة قائمة على عمود رفيع قصير، ينزل منها سلسال أبيض مُزْبد مستمر تكونت تحته بِركة صغيرة موحلة.

وصعدنا ثلاث درجات حجرية إلى باب البيت المقفل المصنوع من الخشب البنّي السميك وعليه كرانيش طولية وعرضية ومثلثات بارزة

من الخشب نفسه وله نافذة من الزجاج المحبَّب غير الشفاف تُفْتح من الداخل، وكان في الجنينة العرضية الضيقة بين السور الحجري وحائط البيت ثلاث نخلات طويلة، تنبثق متلاصقة الجذور، وتَتَفَرع جذوعها الخشنة المضلّعة الحواف ثابتةً في انشعابها، مائلة متباعدة بعضها عن بعض وسعفها العالي يهتز في الهواء بعيداً فوق سطح البيت المنخفض الطويل.

فتحت لنا الباب أولجا بنت خالي حنّا، وكانت طويلة وبيضاء وجاحظة العينين، وتلبس جلابية فلاحي من قماش مشجَّر، وانحنت عليّ وقبّلتني بفمها الواسع وأسنانها البارزة الموحية بطيب القلب، وأحسست بثقل ثدييها بصلابة، على وجهي وهي تميل عليَّ بشفتيها الكبيرتين، ونَشقْتُ منها ريحاً حريفة غامضة، وكنت أتعجب، عندما سارت أمامنا ونحن ندخل البيت، من أن عجيزتها مدورة وملفوفة وليس لها جانبان مشقوقان بل هي كتلة واحدة مكورة. وكانت كبيرة السنّ وأمي تقول عنها إن عندها ثلاثين سنة وأكثر وإنها عنّست يا حرام.

وكان البيت معتماً وفيه رائحة عَطَن مُترب خفيف من السجاجيد المفروشة والأثاث الخشبي الثقيل الذي لا يَرَى الشمس، وعلى جانبي الفَسَحة الطويلة التي دخلناها أبواب غرف متقابلة مقفلة تنسدل عليها ستائر من القطيفة الداكنة الحمراء الحائلة اللون، وكل ستارة منها مفتوحة إلى جانبين مرفوعين ومثبتين بمقابض نحاسية لامعة على عارضي الباب، ولها شراشيب كثيرة الخيوط من نفس لون الستارة، وعلى الحيطان الملساء المدهونة بالزيت، الداكنة الصفرة، صور قديمة بيضاوية، باللون البنيّ «السيبيا» الفاتح، في إطارات بيضاوية أيضاً، لرجال بطرابيش تركية قصيرة وياقات صلبة منشّاة وشوارب كثيفة

مستدقّة الأطراف، وفي سقف الفسحة نجفة كبيرة مطفأة ورائحة خاصة هي رائحة العزّ الرثّ القديم المختبيء الذي لا نعرفه في بيتنا أمام «وابور» الدقيق في غيط العنب، بحجراته المتقاطعة المفتوحة الأبواب دائماً، المنيرة بضوء الشمس، التي نسكنها نحن وأخوالي وزوجاتهم وجدّي وجدّتي كلهم معنا، ولا نحس بالزحمة ولا الضيق بل الحياة في براح.

خرج إلينا من إحدى الغرف الداخلية حنّا بيه خال أمي الذي قالت لي إنه موظف كبير قد الدنيا في الحكومة وأنه عضو أيضاً في المجلس الملّي. كان عجوزاً قائم العود نحيلاً، خشبيَّ الحركة، يتوكأ على عصا أبنوس رفيعة وصلبة، في جلباب أبيض ناصع له ياقة عالية يابسة ملفوفة حول عنقه الرفيع المتهدّل الجلد كعنق ديك، وله عينان غائرتان في محجريهما متألّقتان بسوادٍ ضيّقَ اللمعان، كان فيهما نوع آخر من الحياة الحادة، وعندما مدَّ إليَّ يده أحسست ببرودة العظام الجافة وخشونة الجلد القديم، وقال لي مباشرة: إنت كويس في المدرسة يا ولد؟ وكنت لا أحبه ولا أكرهه ولا أحس أنه يهمني في شيء وكأنه بالفعل ميّت من الآن ولا ضرورة له، وكنت أعرف أنه غنيّ جداً وبخيل جِلْدة وأن له أرضاً في الطرّانة قرية أمي، تعيش على ريعها أختاه العجوزان جداً اللتان لم أعرفهما إلا بعد ذلك بسنين في أيام الحرب، فقالت أمي: اسم الصليب عليه بيطلع الأول في الفصل، فزامَ حنّا بيه من وراء شفتيه المضمومتين الذابلتين كأنهما ورقة شجر صفراء تحت شاربه الأبيض المصفرّ من الدخان، ونظر إلى أمي دون قبول، نظرة اتهام خفيّة بل إدانة، كأنه لا يُصدِق، فأحسست بالغضب، ليس لي، بل لها.

كانت أمي قد انقطعت عن صناعة فطير الملاك منذ الحرب، والغلاء، وشُح السمسم، ونسيتُ كل شيء عنه، تقريباً. ودخلت جامعة فاروق الأول ومات أبي في ليلة باردة جداً من ديسمبر، في أثناء الحرب، وحصلت على «مجانية فقر» أو «مجانية كارثة» كما كانت تسمى، لكي أكمل دراستي في كلية الهندسة، واشتغلت، مع دراستي، في مخازن البحرية البريطانية في كفر عشرى، مساعداً لأمين المخزن، وكنت أذهب إلى المخزن وأمرّ بالحارس اليوناني الذي يقف على الباب الحديدي الضخم الجرار، وأنا أعلق شارة معدنية سوداء مكتوباً عليها بالإنجليزية «الجلاء» على «جاكتتي» الزرقاء الطويلة وقد اشترتها لي أمي من الملابس المستعملة التي أرسلها الأمريكان كمعونة والتي لم يكن عندي غيرها، وأخلعها وأعلقها على مسمار بحيث تظهر الشارةُ واضحةً للعيان، وألبس القميص الأبيض و«الشورت» البحّاري من عهدة المخزن، وكنت أرسم علامة المنجل والمطرقة عليها رقم ٤ بالإنجليزية والهلال بنجومه الثلاثة على الحاجز الخشبي الرقيق الذي يفصل بين الركن الذي فيه مائدة من الصاج هي مكتبي، وبين مكتب المستر لي، أمين المخزن الذي جاء من جنوب لندن وكان يعمل في مخازن البحرية البريطانية من قبل الحرب. وكان مكتبه أنيقاً وله واجهة زجاجية من عمل الأسطى مرسي البحار الذي يشتغل معنا. وكان مستر لي، من وراء نظارته السميكة المدورة، ووجهه المكتنز المحمر، والشرايين الدقيقة على أنفه، وهو يلبس أيضاً «الشورت» البحاري الأبيض على كرشه الصغير المدور، يقول لي خسارة أن مصرياً شاباً ذكياً يدرس الهندسة ويمكن أن ينفع نفسه وبلاده يضيع وقته في السياسة، ويقول لي إنني سأعقل بعد أن أحصل

على درجتي الجامعية. وانخرطتُ في مظاهرات ١٩٤٦ وشهدت اعتصام الطلبة وحصار الجيش لربوة العباسية في محرم بك بدباباته الصغيرة الصفراء ذات المدافع الرقيقة، أراها من فوق، كأنها لُعَب.

وانتهت الحرب وأُغلقت مخازن البحرية البريطانية في كفر عَشْرى وذهب الإنجليز بعضهم إلى بلاده وبعضهم إلى ثكنات قنال السويس وتخرجتُ من كلية الهندسة وقضيتُ سنةً ونصفاً أبحث عن عمل وأعطي دروساً في الحساب والرياضة لتلاميذ من الابتدائي والثانوي وأترجم وثائق في الكيمياء والميكانيكا لمكتب لبراءات الاختراع يملكه مالطي يهودي عجوز قصير متين الجسم يتكلم الانجليزية بلهجة الملايطة بصوت عال أجش من جوفه، ووجدتُ نفسي في قلب الحركة الثورية التي كانت تجيش بها البلاد.

كان اسكندر عوض قد واعدني باللقاء في بار «الكراستة» في الرابعة والنصف بعد الظهر. كنت قد رأيته يسير إلى جانبي، ويهتف بحرارة «الموت للإنجليز» . . «يسقط الاستعمار» في مظاهرة شارع سعيد الكبيرة التي رأيت فيها صبياً يموت برصاص «التومي جَنْ» ويحمله الناس وهو ميّت على الأكتاف. وجاء إليّ في القهوة الصغيرة التي جلست فيها أشهق وأشرب كوب ماء، وعرّفني بنفسه وقال إنه وطني ويحب الوطنيين وكان يخيل إليّ أنني أعرفه بشكلٍ ما ولكني لم أتذكر أبداً. وكان يكتب شعراً ثورياً ساذجاً باللغة العامية، فيه أصداء من بيرم التونسي وحسين شفيق المصري وأبو بثينة معاً، عن غُلْب ومَجْدَعة أولاد البلد، ويشتغل عند أرمنيّ يملك «فابريكة بصطرمة» صغيرة في كوم الناضورة. وعندما كنت أذهب للقائه في المحل المظلم الذي تدور فيه «مكنة» عتيقة ذات سكين حادة ضخمة دوّارة

أرى كتل «البصطرمة» النيئة المدورة معلقة على الحبال كـالغسيل تجف وتستوي في الهواء والشمس عـلى التل الـترابي القليل الارتفـاع، فوق سقف المحل الداخـل في الربـوة، والأعلام الملونـة وكرة كبـيرة سوداء معلقة في أعلى كوم الناضـورة. وكنت أكلمه عن حـركة الـوطن ودور الطبقة العاملة وعن القيمة وفائض العمل وعن ثورة اكتوبر وثورة سنة ١٩١٩ وعلاقة الأدب بالثورة. وكان في مثل سني وقـال إنه لم يكمـل دراستـه في مدرسـة النيل الثـانويـة بغيط العنب لأن أبـاه كـان عنـده «فابريكة» صغيرة في غيط العنب وأفلس ومات. ومع ذلك لم أتذكر.

أخذت ترام «الورديان»، وكانت عربـة «الترام» تتـأرجح قليـلاً في اندفاعها. وكان شارع السَبَع بنات خالياً تقريباً في حرّ الظهر، ورطوبة البحر تأتي إليَّ من نافذة الـترام المفتوحـة، ونزلـت بعـد كركـون اللبان بمحطتين، وكان الشارع مرصوفـاً بأحجـار البازلت السـوداء المحدبـة قليلاً وعلى جـانبه مخـازن الخشب والقطن العـالية الحيـطان، والورش الصغـيرة، ومخازن الخيش والبصـل، وعربـات الكارو الـطويلة واقفة تحت الجدران المصمتة الخشنـة القويـة الحجر، وكـانت رائحة الفحم ونفايات البحـر، خفيفةً وجـافةً قليـلاً، تأتي من نـاحية المينـاء تحملها بُلولة الهواء.

ولمحت البار في منعطفٍ داخل شارع جانبي، اللافتة الخشبية عـلى بابه ما زالت حروفها الإنجليزية «بطاطس وسمك» مقروءة وإن كانت مطموسة تحت بقع مضطربة بالطلاء الأسود الذي لـطّخها بـه الطلبـة الوطنيون بلا شك، وقد أقلع جنود الحرب الذين كـانوا يمـلأون هذه النواحي بعربدة اليأس والقهر والموت.

دفعتُ البـاب الخشبي القصـير المكـون من ضلفتـين متحـركتـين

وتستطيع أن تطل من فوقه على داخل البار الهادىء النور، والمرايا على الحوائط مرسومة بإعلانات فيها زجاجة «كونياك أوتار» كأنها مجسّمة داخل المرآة، وخلفها كتابة بالذهبي الباهت على أرضية سوداء مشقّقة، والمرايا المقابلة تتراسل بزجاجة «الأوزو» و «براندي جناكليس» و «ويسكي الحصان الأبيض»، وكان البلاط الأسود الذي يكسو أرض «البار» باهتاً قليلاً والموائد الخشبية المربعة مصفوفةً تحت الحائطين القريبين أحدهما من الآخر، ومنصة «البار»، مغلقة بشبكةٍ نازلةٍ من الحديد، في نهاية المحل، وبجانبها باب خلفيّ صغير.

كان اسكندر عوض قد قال لي إن البوليس لا يمكن أن يشتبه في اجتماع ينعقد في بار صغير في باب الكراسته، وقال لي إنه سيُحضر معه ملاحظ عمال من رصيف الفحم وإنه ولد «مجدع» ومثقف أيضاً، وإن الحركة يجب أن تكون موجودة في عمال الميناء، وإنني لو أحضرت معي شيئاً، بيانات مثلاً أو مجلات أو كتباً، ليقرأها الزميل الجديد ويقول عما فيها للعمال الآخرين في الميناء يكون هذا شيئاً عظيماً ويدفع الحركة إلى الأمام، وشدد عليّ في هذا، وكنت مع ذلك أتوخى معه الحذر الكامل وقواعد الأمان ولا أتحدث معه إلا بكلامٍ عام وأحرص ألا أشير إلى اسم محدد أو مكان معروف أو أي ميعاد لأي نشاط، ولم أقل له حتى عن اسمي وكان يعرفني باسم مستعار.

وعندما دخلت رأيته في عتمة آخر البار ومعه امرأة.

كان وجهه الطويل المتهضم لامعَ السمرة تقريباً في نور بعد الظهر الكابي. وكان الجو في البار الخاوي منعشاً ببرودة خفيفة من البلاط والظل الرطيب بعد شمس الشارع.

قام اسكندر عـوض يسلم عليّ، وقـال لها: البـاشمهندس يـوسف اللي كلمتك عنه. وهو يومىء إليها برأسه، ثم همس إليّ: زيـزي، ما تخافش، هي عارفة، ومعانا بكل قلبها وحياة المسيح.

مدت إليّ يدها وهي جالسة، من فوق المائدة، بين زجاجتيْ البـيرة «الاستيـلا» وأكـواب البـيرة الـطويلة المكتـوب عليهـا بـالإنجليـزيـة «زوتوس»، وأحسست يدهـا رخوة وبـاردة وليس فيها عصَب، كـأنها سمكة بأصابع طويلة تنتهي «بالمانيكير» الأحمـر القاني، وكـانت تلبس فستاناً ناعماً بلا أكمام وفتحته تحت الذراعين واسعة تكشف جانباً من صـدرها، ولمحت الـزغب الأصفـر الخفيف الهشّ جـداً عـلى ذراعهـا الممدوة إليّ في النور الخفيف.

قالت، مباشرة، في هجـوم جنسي واضح ومستقـر وطيب القلب، من أول وهلة:

ـ يا أهلاً بالباشمهندس الحليوة الصُغيرّ بتاعنـا، اتفضـل يا حبيبي..

وأحسست الدم يملأ وجهي ويـطنّ في أذني ولكنني قررت أن هـذه التحيـة ليس فيها مـا يُضير بكـرامتي وأن البنت عـلى العكس تتحبب إلـيّ، فغمغمتُ بكلمات مـدغمـة، وانفجـرتْ هي فجـأة بضحكـة صافية وبريئة وليس فيها أدنى شبهة من مهنتها.

كـان هناك جـزء صغـير جـداً بـارزٌ إلى الأمـام من شفتهـا العليـا الرقيقة، يُظلل أسنانها الصغـيرة البيضاء، وشفتهـا السفلى مليئـة، على العكس، ونازلة تعطي وجهها إيحاء شهوياً صريحاً، لكن شفتيها كانتا بريئتين تماماً مع ذلك، وبلونهما الطبيعي ليس عليهما طـلاء، وشممتُ

عطرها الجاف الرقيق عندما مدّت ذراعها إليّ، وكان وجهها يقول إنها صَحَت من النوم متأخرة جداً، عيناها منتفختان قليلاً وفيهما نظرة ثقيلة، ويُوحي بأنوثةٍ كثيفة وحنوٍ كثيف.

وقال اسكندر عوض: تشرب إيه يا باشمهندس؟

وصفّق وبرز من عتمة آخر البار «جرسون» يوناني عجوز ويتحرك برشاقة وخفة، يضع فوطة بيضاء على كتفه فوق «الجاكتة الأسموكن» السوداء، وبنطلونه ضيق وطويل مخطط، وجهه مُخَدَّد نظيف التجاعيد وعيناه مدفونتان. وكنت «بيوريتانيا» جداً في تلك الأيام، لا أدخن ولا أشرب إلا نادراً، ولا أعرف النسوان، ولكني على سبيل التحدي، طلبت براندي، وفي ثانية كان «الجرسون» اليوناني يضع أمامي الكأس المفلطحة العريضة وثلثها يترقرق بالسائل الأصهب الثمين الشكل.

قلت له ماذا حدث؟ ولماذا لم يأت صاحبنا؟ فقال إنه لا بد سيأتي حالاً، وهل أحضرت معي الورق والأشياء؟ فلم أرد عليه، واقتربتْ زيزي مني بوجهها الأبيض المثقل وحاجبيها المقوسين الرفيعين جداً وسألتني، متودّدة، أين أشتغل؟ ومن أين أنا في اسكندرية، ورددت عليها بكلام عام، وكان صدرها المحبوك المستدير مستنداً إلى المائدة متكوراً في داخل الفستان الخفيف الذي يكشف عن قميص داخلي أسود له شريط من الدانتيلا يلمّ الصدر الوافر الذي يبدو دسماً ومتحفظاً وبكْراً وفيه تأكيد خفيف للمرأة لا للأنثى. وكنت قلقاً وغير مستريح وهي تتحدث عن الأحوال والشغل الذي أصبح خفيفاً ولا يساوي التعب والبهدلة، وأحسست ساقها من تحت المائدة تمس

ساقي وكان «البراندي» قد نزل حاراً إلى قلبي وأحسست بالصلابة والتوتّر الحميم بين ساقيّ، ثم قامت فجأة، ودارت حول المائدة، ورفع اسكندر وجهه إليها مندهشاً متسائلاً، ومدت إليّ يدها وقالت بهدوء: تعال معي.

ودارت بي خواطر مفاجئة، وتجسمتْ في ذهني ثم اختفت على الفور صورٌ مخطوفة من سافو دوديه، ونانا زولا، وغادة الكاميليا، وغرفة زيزي التي تخيلّتها علويةً على سلالم من وراء الباب الخلفي الصغير، وستائرها خفيفة شفافة تطل على البحر وعلى بابِ القلب المفتوح وهَوَسِ الجنس وعربدته، ومناعم الجسد كما رأيتها، أول مرة، في الراقصة البلدي، عارية، وأنا في الثانية عشرة، في فرح بجوار بيتنا في محرم بك. وارتعبتُ من احتمال الإصابة بمرض سرّي، وفكرت أنني لا أحتمل أجرة العلاج، ونفيتُ ذلك كله عن نفسي ولم أكد أخطو معها أوّل خطوة، وكأنما حَدَسَتْ ما بنفسي فابتسمت لي عن أسنانها الصغيرة بغموض وغواية، فهل كانت غرارتي وعنفُ براءتي هي ما أغواها؟

ولكنني كنت صاحياً جداً مع ذلك، وأنا أقوم معها، والتفتت هي إلى اسكندر عوض بحسم، وقالت: إيه ياسي اسكندر؟ وأنت مالك؟ خليك أنتَ هنا يا نور عينيّ. وكانت يدي في يدها وهي تخرج من الباب الخلفي الصغير خلف البار، ونزلنا درجتين حجريّتين زلقتين من البلل وعشيتْ عيناي قليلاً من بهرة نور بعد الظهر، ووجدت أنني معها في طرقة مبلّطة بين حائطين عاليين، وصفائح «الزبالة» وصناديق «البيرة» المليئة بالزجاجات الفارغة إلى جانب الحائط، وكانت الشمس تنزل ساخنة بين الحائطين المسدودين، وباب حديدي

أسود صغير مكتوب عليه بالأبيض GENTS بالانجليزية، ممسوحة وفوقها صورة بيضاء لرأس عليه خوذة عسكرية مُدوَّرة.

نظرتْ إليَّ وأنا واقف متحيراً في الطرقة، وقالت، غاضبة وحارّة بهمس خشن:

- إمشِ من هنا، يالله، رَوَّحْ من غير ما تسأل، إمشِ يالله يا حبيبي إمشِ.

ولكنني أحسست فمها على خدي، فجأة، في قبلة خاطفة مُلِحَّة، ودفعتني بيدها، برفق، وأقفلت الباب عليها. وسطعَ في ذهني على الفور أنني نجوت من الكمين ولم أتذكر الملاك ميخائيل.

ووجدت نفسي أنهج قليلاً من المشي الجاد السريع، في الترام العائد إلى المنشية، وعرفت معنى الأَمْنَ بين الناس الصامتين، ولم أر اسكندر عوض بعد ذلك، أبداً، وبعدها بكثير تذكرت مرة واحدة، وعرفت أن الخيانة، والنقاوة، لهما طرق خفيّة.

كنت قد نزلت من الترام، وكنت أصعد على صقالة خشبية بها حزوز بارزة أُثبت بها قدميّ، إلى المركب الصغير المربوط بالرصيف يتأرجح قليلاً على المياه المخضرة الثقيلة القوام التي تطفو عليها، وسط زَبَد أبيض كرغوة الصابون غير النظيفة، عُكارة، وأوراق خضروات ذابلة، وقطع خشب عليها بقع زفت سوداء، حول جنزير الهلب الساقط في العمق الداكن، تبرق على موجه نُقَطٌ حادة من شمس بعد الظهر، وكان زملائي من مدرسة النيل الابتدائية قد ابتعدوا عني جداً ولكني أسمع صوت أقدامهم تصعد السلالم الضيّقة الى سطح المركب، وضحكهم ولغَطَهم ونداءاتهم، وأعرف أن ذلك كان من زمن بعيد. وكان المركب خالياً تماماً، وفجأة، وأنا أجري في ممرات

تفتح على ممرات مفتوحة وفيها نوافذ زجاجية مـدورة أرى منها أمـواج البحر الزرقاء العالية وجوانب البـواخر الشـاهقة ومـداخنها العـريضة وأبراجها الثابتة، ومـا زلت أجري وأجـد أمامي سـلالم خشبية عـالية تصعـد إلى مـالا نهايـة، لا أصـل إلى سـطح المـركب أبـداً، وكـانت جـدران المركب الـداخلية بلون بنيّ فـاتح جـداً يكاد يكـون أصفـر، ولامعـة مصقولـة تومض، وأنـا أجري، بـلا وزن، على السـلالم التي تصعد معي بلا نهاية، وأسأل نفسي، من غـير دهشة، إلى أين تنتهي السلالم في هذا المركب الصغير الذي كنت أظن أنني سأقـطعه، طـولاً وعرضاً، في دقائق، ولا أنهج ولا أحس ثقلاً ولا ضعفاً.

وأنا أجري الآن في ممر طويل، على سـطح المركب، خشبـه مبلول داكن اللون من المـاء الـذي تشرَّبـه وينفث رائحـة ملح البحـر، وصرخات النوارس تحوم حولي ثاقبة وجائعة، تصعد وتحوم وتهبط على الموج الراكد حول خشب المـركب الواقف، وأنـا أطل عليـه فجأة من حاجز حديدي طويل.

وتنقض عليَّ نورسـةٌ سوداء، صـدرها صلب ومـدور ومكتنز، وفي منقارها الطويل الجارح رائحة أعشـاب البحر الحـادة، وهي تنظر إليَّ بعينين حانيتين فيهما حُكْم عليَّ بالقتل.

٣ الموت على البحر

أرى الولد، صغير الجسم، ساقاه رفيعتان في «الشورت» الأبيض الواسع، وقميصه مفتوح. عيناه كأنما فيهما نظرة متأمّلة، مبكرة كثيراً عن سِنّه، وهو يقف في أول الصبح على حافة البحر الموحش، عند «المندرة».

أمامه صفحة ساكنة وشاسعة، مشعّة ولا تكاد تترقرق، دسامةٌ بيضاء في الضوء الذي يكاد يكون شتوياً، تنتهي برغوة شفّافة تغوص في الرمل بوشيش خفيض، متكرّر.

أُحِسُّ، عبر السنين الطويلة، بالنداوة الليّنة تحت قدميه الحافيتين، والهواء المبلول على وجهه

وأجد أن الشوق، مثل نزوعِ الموجِ، يرتمي على الشطّ ممدود اليدين، بلا تحقّق، مثل اندفاع الماءِ، مُستَنْفذاً بعد رحلة طويلة على ثَبَج العُمر، ينكص محسوراً أبداً إلى عرض اليمّ العميق، ولا يفتأ يعلو وينحسر، حلمه يأتي ويعود، لا يهدأ إلى راحة، وكأنه لم يترك خط النهاية المتعرِّج، لحظةً واحدة.

في تلك الساعة لم يكن هناك غيره على الشاطىء الواسع.

وعلى مسافة كبيرة داخل هذا الامتداد الساكن المتسايل تحت سماء خفيفة اللون، كنقطتين، أراهما، لا تكادان تتحرّكان، أعرف أنهما أبي وأمي وحدهما في البُعد الفسيح. وأريد أن يرجعا، بسرعة، إليّ.

يصل الموج الطفيف إلى قدميّ، ويترك غشاء فضّياً رقيقاً لا يكاد يجفّ، وهو يلمع، حتى يبتلّ من جديد بزبد يتقطّع ويذوب.

في تلك السنة استأجرنا «كابينة» في مصيف أصدقاء الكتاب المقدّس في «المندرة». وكان للمصيف سور منخفض من الطوب الأحمر حول أرض واسعة ناعمة الرمل. وكنت أحبّ أن ألعب تحت النخل العجوز العفيّ الخشن الخراشيف، بين «الكباين» الخشبية المتناثرة من غير نظام، وأن أنظر إلى عناقيد البلح الأخضر المدوّر تقريباً بغضارته الكثيفة تحت السَعَف العريض وهو يهتزّ بأطرافه الشوكيّة المسنّنة على زرقة السماء التي تكاد تكون بيضاء. وكانت الفراخ تجري وتنقّ وتلقط أكلها من الرمل تحت النخل وحول «الكباين»، وتقفل الباب الخشبيّ في السور، عندما نجري وراءها، أنا وأمي، لنمسك واحدة، وتذبحها أمي بالسكّين الحادّة التي تومض في الشمس، وهي تقول «باسم الصليب وشارة الصليب كاك كاك إلهي يصبّرك على ما بلاك»، ثم ترمي الفرخة على الرمل تصفّي دمها وهي تجري قليلاً ثم تسقط وأجنحتها تتخبّط بجسمها.

وكنت أعدّ الأيام لأنني سأدخل المدرسة الثانوية بعد هذا المصيف مباشرة، وأفرح بكل يوم جديد، وكنت أستوحش مع ذلك إلى أخواتي البنات عايدة وهناء ولويزة التي كبرت الآن وتمشي في البيت على رجليها غير الثابتتين وتصرخ وتقول بضع كلمات، تركناهنّ في

بيتنا في غيط العنب مع جدّتي أماليا وخالتي وديدة وخالتي سارة وأخوالي.

وكان أبي يأخذ حمَّام الصبح مع أمي، مبكراً جداً قبل القهوة، هو «بالمايوه» الأسود الطويل الطويل كـ «الفانلة»، وجسمه كالعود مشدود وله عضلات جافّة ونحيلة، وهي «بالمايوه» القماش، الغامق الزرقة، مقفل تماماً، له أكمام قصيرة مكشكشة عند أعلى الذراعين وينزل إلى الركبتين، وكانت قد فصَّلته وخيَّطته بنفسها على «الماكينة السينجر» القديمة الرفيعة البطن التي بهتت الكتابة الذهبية عليها، قليلاً.

وأجري معهما، وأنا لما أكد أصحو من النوم، بـ «الشورت» الأبيض والقميص الخفيف، نعبر «الكورنيش» اللامع السواد من أمام المصيف مباشرة، هواء البحر البارد بعد كِنّ «الكابينة» ودفئها يصدم وجهي، والسيارات قليلة جداً في هذه الساعة، وننزل إلى الرمل الواسع المتحدِّر، وليس فيه ولا شمسية، وأقف على حافة الماء وأنتظرهما حتى يعودا من البحر، وعلى ذراعي الفُوَط الطويلة الكثيفة الوبرة.

وتخرج أمي من البحر، ناصعةً ومضيئة وناعمة، وشعرها القصير المقصوص مبلول يقطر بالماء، ويلحق بها أبي، قائم العود، ينظر إليها بحب وطيبة، بعينيه الثاقبتين العميقتين في وجهه الحادّ العظام، ويلتفّان بالفُوَط، ونرجع جرياً إلى «الكابينة».

وفي الدفء الذي يأتي من خشب «الكابينة» المغلق، يغيّران، ونقعد لنفطر على الطبليّة المنخفضة، وبعد الفطور نتربَّع على الكليم الأسيوطي، ويصنع أبي قهوته السادة بنفسه، على «السبرتاية» الصغيرة

بلهبها الأزرق يتراقص تحت الكنكة، ويحكي لنا حكايات عن أيام شبابه عندما كان صرّافاً في الصعيد يطوف القرى حول إخميم على حماره الميري، ليجمع ضريبة الحكومة من الفلاحين، وكان يضع تحت لسانه فتفوتة مكوّرة لدنة القوام يكحتها بعود كبريت من عجين أسود لزج، في علبة صفيح مبطّطة صغيرة، ثم يذهب فيأخذ «الأوتوبيس» إلى شُغله ولا يعود إلّا على العشاء.

وأكون أنا قد أكلت من زمان، وأكاد أسقط في النوم، ولكني أنتظره وجسمي هادىء وثقيل بهذا التعب الحلو الذي يأتي من اللعب والجري على البحر طول النهار، بينما هو يتعشّى على الطبلية المحمّلة بالعيش البلدي الطازج وورْك الفرخة والجبنة الرومي والبيض المسلوق مقشّراً ومقطوعاً إلى شقّين قد عصر عليهما الليمون، ويشرب على العشاء، كل ليلة، ويصبّ لي كأساً صغيرة من خمسينيّة «الكونياك» الصهباء اللون، أُحسّ طعمها لاذعاً وممتعاً، وأنا على مشارف النوم، وهو يحكي مع أمي.

كان خالي ناثان يسوق «الأوتوبيس» الأخضر، بهيكله المربّع، على الكورنيش بين أول سيدي بشر والمندرة، وكنت بعد الفطور مباشرة ألبس «المايوه» الضيِّق الذي يحبك عليّ وقد صنعته لي خالتي وديدة من الصوف «التريكو» الأحمر، تحت «الشورت» القطيفة الأسود الذي بحمّالات فيها زراير بيضاء كبيرة، وأدسّ تحته القميص الحرير الياباني، وأخرج جرياً من «الكابينة» وأمي تقول لي: «خلٍّ بالك من «الأوتومبيلات وأنت بتعدّي بُصّ يمين وشمال» وهي مشغولة أمام «وابور» الجاز تطبخ للغداء، في «الكابينة» المعتمة قليلاً.

وأعبر الكورنيش، بعد أن أنتظر، واجف القلب، حتى يخلو من

السيارات القليلة، وأثب إلى رصيف البحر، وأمشي قليلاً إلى محطة الأوتوبيس، فإذا جاء وقف لي حتى ولو لم يكن في المحطة غيري، فأصعد الدرجة الحديدية التي كنت أجدها عالية قليلاً، ويشير إليّ خالي ناثان بوجهه الصغير الأسمر المدوّر وعينيه الضيّقتين الحانيتين اللتين يمتلىء الجلد حولها بالتجاعيد عندما يبتسم، وأجلس بجانبه على كرسيّ صغير ليس له ظهر. وكان هذا الحيِّز الضيِّق بجانب الباب في مقدمة السيارة الكبيرة، دائماً، دافئاً بسخونة المحرِّك وفيه رائحة بنزين، وتسحرني شارات منصّة القيادة المسطّحة وعقاربها الصغيرة المضيئة بنور أحمر.

وفي أول سيدي بشر يقف لي خالي، من غير محطة، فأنزل، وأعبر الكورنيش مرة أخرى، متلفِّتاً عن يمين وعن يسار، وأذهب إلى «لوكاندة رانة» حيث ينزل بقطر ابن عمّتي، كل سنة. وحتى بعد أن استأجر أخوه، رفلة أفندي، «كابينة» في المندرة قريبة جداً من مصيف أصدقاء الكتاب المقدَّس، استمرّ بقطر ابن عمّتي ينزل في هذه اللوكاندة. ولم تكن أمهما عمّتي تماماً، بل بنت عم أبي، وكانا يناديان أبي يا خال، ويقولان لأمي يا مرة خالي، وكانت هذه القرابة تحيّرني وتغويني.

وكان بقطر ابن عمّتي يأتي من إخميم يقضي شهر سبتمبر كل سنة في سيدي بشر، بعد جمع محصول البصل وتشوينه، وكان في عنفوانه، لم يتزوَّج بعد، وطوالاً فارعاً، داكن السمرة، في وجهه المستقيم الخطوط وسامة رجوليّة كاملة، وله ضحكة بصوت أجشّ متملّك.

وعندما أدخل من باب «اللوكاندة» أحسّ على الفور بنَفْح البلل والعتمة الهادئة بعد نور البحر الصافي. الأرض المبلَّطة، من غير

سجّاد، رطبة وعليها ماء قليل، وفي المدخل كله رائحة عـامة وحميمـة في الوقت نفسه. وكـانت صاحبـة «اللوكانـدة» مدوّرة الـوجه، رائقـة السمرة، ممتلئة قليلاً، تجلس وراء المنصّة الدائريّة في المدخل، وعندما تراني أدخل ترحّب بي بصوت ناعم أحسّه يدغدغ فيّ اهتزازاً داخلياً، أهـلاً يا غَنَنْ يـا حبيبي، تعال، تعـال عنـدي هيّ الـرجـالـة بـرضـو ينكسفـوا، وتعزم عـليّ بالشيكـولاتـه، دائمـاً، كـل مـرة، فـأرفض، وأتأبّى، دائماً، كل مرة حتى تغريني بأن آخذها، بصوتها هـذا الدسم الكسول، وهي تجذبني قليلاً إليها، وتضـع ذراعها الـرخصة العـارية عـلى كتفي وتضمّني، قليلاً، إليهـا، وتنـظر إليّ، من فـوق، بعينيهـا الواسعتين اللتين تهتزّ خضرتها الداكنة وتسيل بحنوّ أنثوي يملأ قلبي، ثم تقول فجأة: اطلع بقى قريبك مستنّيك فوق، واللا عايزنا نطلعلو معاك؟ فأهزّ رأسي وأجري أصعد السلالم إلى غرفة بقطر ابن عمّتي في الدور الثالث.

وعندما أطـرق باب غـرفته، وأدخـل دون أن أنتظر الاذن، أجـده ينتظرني، عادة، وقد لبس «المايوه الفانلة» الطويل الذي يشبه «مـايوه» أبي، بحمّالات عريضـة وفتحة عـالية تصـل إلى تحت الرقبـة بقليل، فيضع البرنس المخـطّط على كتفيـه، ويأخـذ فوطـة معه وننـزل معـاً وعندما نعـبر الردهـة، أمام صـاحبة «اللوكـاندة»، كـان وجهه فيـه، دائماً، نظرة غائبة متحفّظة، وكانت هي لا تنظر إليّ ولا تحييني.

ويمسك بيدي لنعبر الكورنيش، وننزل السلالم القليلة، ونسير حتى البقعة الفسيحة عند شاطىء الطاحونـة، أخلع «الشورت» والقميص وأرميهما، مع الفوطة والبرنس على الـرمل، وألعب عنـد حافـة البحر حتى يصـل الماء إلى أعـلى صدري ولا أدخـل كثيراً. وكـان ابن عمّتي

بقطر هو الوحيد الذي أحسّ الأمان معه في البحر، كان يسبح إلى الداخل ثم يعود إليّ. يتوغّل في البحر من جديد ويعود. وكنت ألعب وحدي، بينما هو في البحر، على الرمل المبلّل الذي يخبطه الموج وينحسر عنه، أصنع قوالب من الرمل الطريّ المتماسك، مصنوعة في علبة كبريت فارغة، وأحفر حفرة ضيِّقة أجهد في تعميقها حتى يملأها الماء. يخرج أخيراً، شامخ الطول، يسيل الماء على جسمه، فيتلفَّف بالبرنس وأجفِّف نفسي بفوطته السميكة التي سخنت الآن، وألبس. ويذهب هو إلى «اللوكاندة»، أما أنا فأسير إلى المحطة، حتى يأتي أوتوبيس خالي ناثان، فأعود معه وأنا خفيف الخطو متوهِّج الجسم من الشمس والبحر واللعب في الماء والرمل.

وفي مرّة تأخَّرت، عندما دخلت «اللوكاندة» فزعت فزعاً غامضاً لأنني لم أجدها في الردهة، وراء المنصّة. واندفعت، كأنني مروّع، إلى غرفة بقطر ابن عمّتي، وفتحتها على الفور، فوجدتها أمامي، وهي تعتدل واقفة جنب السرير المهوش الفرش، وتزرّر الزر الأعلى من «الروب» الخفيف الذي يترك ذراعيها المليئتين عاريتين متفجّرتين بالبضاضة، وهي تسوّيه على فخذيها السمراوين المتجسّدتين وراءه، فحدست أنها تلبسه على اللحم، وكان ثدياها بدورانهما المكتنز يهتزّان تحت النسيج اللدن، والجزء الذي يبدو من الفتحة الواسعة يلتمع بالعرق، وشعرها الخشن مهوش قليلاً ومندّى على جبينها، وضحكت وأنا أندفع داخلاً ثم أتجمَّد مرّة واحدة، ضحكة خافتة، وكان صوتها ناعماً وليس فيه أدنى حرج وهي تقول: «يوه.. هو أنت؟ يقطعني وانت داخل كده زي الساروخ. طَبْ تعال، تعال هنا يا حبيبي». وأدخلت يدها في جيب الروب وبحثت قليلاً ثم قالت: «أهي..

الشيكولاته بتاعتك.. خد..» ولكنني رفضت تماماً، هذه المرّة، وأطرقت برأسي في عناد، ففهمتْ، ولم تصرّ، ولم تضحك. قاومتُ البكاء، بشجاعة، وهي تجذبني من يدي، وتجلسني جنبها على السرير، وأطعتها، وأحسست لحمها الحارّ من وراء «الروب» المشقوق من الوسط تماماً على صدرها ومنتصف بطنها وبين ساقيها، ومزرَّر بأزرار مستديرة كبيرة من الصدف الأبيض الذي يومض. وكان جسمها باذخاً ومبذولاً، وأحسست بغموض أنها تراهن به في لعبة خطرة، وخفت عليها، ونشقت رائحتها الخفية، وكان وجهي يضطرم، ولم أبكِ بل كنت غاضباً. أما بقطر ابن عمّتي فقد كان نصف راقد نصف جالس على السرير، بالجلابية «البوبلين» البيضاء الناصعة ياقتها الصلبة الدائرية مفتوحة على صدره العريض، ونظر إليّ بابتسام وقال لي بصوته الأجشّ قليلاً: «يوه يابن خالي.. عوّجت لغاية دلوجيتي جُلنا ما جاييش عاد. مالك داخل كربان ومَزعُول؟ أجعد أجعد خُد نفسك لما ألبس». وقال للسيدة التي معه بلهجة من لا يريد أن يخفي شيئاً، وبصوت فيه بساطة التملّك ونهائيته: «ناوليني الكوستيم من الدولاب»، فأعطته له ودخل الحمّام يغيّر ملابسه، وجاء وشيش البحر، فجأة، في الصمت الذي حلّ في الغرفة، مع أصوات عجلات السيارات تكشّط الأسفلت، وترنّم بائع المنجة، يتغنّى: معايا تيمور.. هندي.. ألفونس، واحتكاك عجلات الترام بالقضبان في المحطة القريبة.

ما زلت أرى الولد يذهب إلى فراشه غير المألوف في «كابينة» المندرة، مرتبة مفروشة على الأرض ومغطاة بملاءة سرير، «يغوص تحت «الكِبرتاية» القطنية البيضاء المشغولة بنقوش أزهار وأوراق

مطبوعة من نفس القماش ونفس اللون، بارزة وغائرة فيه، تعطيه دغدغة مترفة للجسم، وأعرف معه فرحه المنقضي بيومه على البحر، وترسّبات اليوم في قلبه، وخوفه من مفازع الليل وأحلامه المضطربة.

هل كان خاله ناثان أم خاله يونان هو الذي كان قد حكى عن صدقي باشا والعمل في عنابر السكة الحديد؟ أم هو الذي كان قد قرأ عن الحكاية عندما دخل تحت سرير خاله يونان وزوجة خاله إستر التي كان يحبّها، في بيتهم في غيط العنب، وكان السرير عالياً وفرشه جديداً وعليه ملاءة من «الساتان» الأخضر تتدلّى على أطرافه، وكان هو يحبّ أن يغوص هناك في العتمة الخفيفة بنور أخضر فاتح يشمّ رائحة الورق والتراب وبقية متطايرة من عطر نسائي يعرفه عند امرأة خاله إستر، ويقلب في الصحف والمجلات القديمة المرصوصة تحت السرير، الأهرام والبلاغ ومصر والصرخة والجهاد، ويقضي ساعات في عزلة عن صخب البيت وأصواته واحتشاده.

ورأى أنه في محطة باب الحديد الخالية تماماً في الليل، والأرصفة القوية العالية تمتدّ عريضة وليس عليها أحد وليس عليها قطارات، والسقف الزجاجي بعيد جداً فوقه وتنعكس عليه، من تحت، أنوار الأعمدة الطويلة، ورأى أن القطارات واقفة في خارج المحطة، متراصة صفوفاً في ظلام الساحة المغطّاة بالقضبان المتعرّجة، متربّصة، صدور القاطرات أقراص سوداء كاملة الاستدارة منبعجة قليلاً إلى الأمام وكأنها تهمّ بأن تنبعث فجأة من جمودها، بالحياة والبخار والهجوم، لتدخل المحطة، في أية لحظة الآن، تداهم، وتسحق كل ما أمامها. ورأى نفسه معهم في الجانب الآخر من المحطة، المفتوح على شبكة القضبان الواسعة، وكانوا كثيرين جداً، متزاحمين بالأكتاف

والرؤوس، ولمح في وسط الوجوه المتعاقبة التي تظهر وتختفي في عتمة الليل الضافية وجوه بقطر ابن عمّته ورفلة أفندي وخاله ناثان وخاله يونان وخاله سوريال وجدّه ساويرس، ولم يدهش عندما رأى بينهم أخته عايدة التي تصغره بسنتين تحمل أخته لويزة الصغيرة على ذراعيها في وسط زحمة سوّاقي القطارات و«العطشجية» وعمال الصيانة و«الكمسارية» ببدلهم الصفراء الداكنة وفي أيديهم عصيّ جديدية رفيعة طويلة، وعِدد قَطْع التذاكر المعدنية ومقراض التذاكر البشع الشكل، وهم يتحرَّكون ببطء، محتشدين تحت السماء المفتوحة، ورأى بينهم، لحظة واحدة ثم اختفت، رانة صاحبة «اللوكاندة»، وخيِّل إليه في لمحة واحدة أنها ترتدي «المايوه» القماش الأزرق المكشكش الأكمام عند أعلى ذراعيها، ولكنه رآها عارية تماماً، وثدياها قائمان مكوّران بكبرياء ونعومة مستديرة مليئة، وساقاها السمراوان تلمعان بندى عرق خفيف، وكان يعرف أنها لا يمكن أن تكون هناك، وأنها ماتت، بغموض وفي قلب شيءٌ ما قابض ولكنه لم يصدِّق ذلك، وأحسّ لها الولد بخجل مكتوم معتصر اكتسحه ثم مضى كأنه لم يوجد، ثم ضاعت منه وسط زحام حشد الناس وكأنه لم يرها قط، وكان يعرف أنها ليست هناك. وكان الناس يلوحون بأيديهم وأذرعهم ويفتحون أفواههم صارخين من غير صوت. وكان معهم، يحس أن موجهم يحمله ويرتمي به برفق، يصعد به ويهبط بنعومة من غير صدمة. ووجد أن الأرصفة قد امتلأت بجنود «بُلُوك» النظام «بالشورت الكاكي» و«الباي» الداكن تلتف شرائطه حول سيقانهم، على صدورهم أحزمة جلدية عريضة متقاطعة وعلى طرابيشهم أغطية قماش صفراء لها ياقة متدلية على مؤخرة رؤوسهم، وفي أيديهم

خراطيم الماء القوية تتلوى، حراشيفها الجلدية شريرة، كثيفة الأضلاع. وتزحف الخراطيم على الأرصفة، من تلقائها، ثم تنتصب بفوهاتها الحديدية المسددة إليهم، وتندفع منها أعمدة الماء المغلي يفور وله وشيش وبخار أبيض يتطاير في دوائر كثيفة تدور وتصعد من فوق انصباب الماء المرغي.

وعلى صرخة يقظته المروعة جاءت أمه حافية، تجري إليه، من على السرير العالي في الجانب الآخر من «الكابينة».

وعلى العكس من ابن عمتي بقطر كان أخوه رفله أفندي مدور الوجه أبيض البشرة وناعماً قليلاً، وكانت له عينان جاحظتان شيئاً ما، تتألقان بالمرح، وسريع النكتة متدفقاً بالكلام وله شارب مشذب ينزل من تحت أنفه بين خطين مستقيمين عموديين كشارب هتلر الذي تظهر صوره في «اللطائف المصورة».

وقضى رفله أفندي سنوات طويلة مدرساً للجبر والهندسة في المرقسية الثانوية وكان أعزب وله شقة في محرم بك. وكان يعزف على العود. وعندما كان يزورنا على العشاء في بيتنا في غيط العنب كنت أسهر معهم على المائدة الطويلة الحافلة، قرصها الرخامي البني المجزَّع مغطى بمفرش أبيض سميك ومكويّ ومحمّل بالأطايب التي كانت أمي تعدّها، تذبح بطة أو وزة وتصنع الكسكسي الذي نأكله بالمرق، وتطبخ، وطاجن أرز معمراً بالحمام، والرقاق الهش الذي تسقسقه بالسمن البلدي وتحمره في الفرن، رقائقه الناعمة المحمصة من فوق واللدنة اللحمية من تحت لها طعم لا أنساه، وتكون ليلتها كأنها ليلة عيد، يأكلون ويشربون ويحكون حكايات كثيرة وشائقة

جـداً، وأمي تعزم عليـه بالـطعام، دون تـوقّف: خد دي من إيـدي وحيـاة خالـك، ما تكسفش إيـدي أمّال، فـيرد: تِسْلم إيـدك يـامـرة خـالي، يا بـوي، لا يمكن، وحياة المسـيح. وبعد قليـل تخلع نسـيرة وافرة من البطة وتعزم من جديـد: تُجْبرْني مـا أنت واخد دي، هـو أنت كلت حاجة؟ فيقول وهو يرد يدها برفق: جَبر ياخد العِدا يامرة خـالي والله ما أجْدَر.

وينتهي بـأن يـأخـذهـا، وهكـذا طـول العشـاء، وكـانت لهجتـه اسكندرانية وفيها نغمة صعيدية خفيفة ومرحة، وكان رفلة أفندي يأتي لي كل مرة بعلب «التوفي» المدور المرسوم عليهـا صور أبـراج وكباري ملونـة عرفت فيـما بعد أنها صـورة برج لنـدن، أو بـرطـمان «كـراملله نادلر» المربّع بزجاجـه الشفاف السميـك وفوّهتـه الدائـرية الـواسعة. وأظل معهم من الفرح بالسهر والحكايات والأكل والكونياك حتى أقع في النوم وأنا لا أريـد الذهـاب إلى السرير، ولا أذكـر في اليوم التـالي متى ولا كيف نمت.

وكانت «كبائن» المندرة أيامها تقع عـلى مرتفعـات صغيرة مـتراوحة من الـرمل أمـام الكورنيش، متنـاثرة ومتبـاعدة من غـير نظام وبينهـا مسـاحات عـذراء فيها نخـل، «والكبائن» عـلى أشكال جميلة وغـريبة ومتعددة جدرانها الخشبية تنتهي بأبراج صغيرة جداً وأنيقة من الخشب أيضاً على الأركان الأربعة، ونوافذها الصغيرة لهـا زجاج ملون ومنمنم من ألواح دقيقة ناعمة أو محببـة زرقاء نـاصعة وحمـراء متقدة وخضراء يانعة وصفراء مزهـرة، ويصعد المـرء إليها عـلى سلالم خشبيـة أيضاً، «وللكباين» الكبيرة شرفات مكشوفـة تحيط بها أعمـدة متتاليـة رشيقة، وتتأرجح تحت القدمين.

وكانت «كابينة» رفلة أفندي تطل على الكورنيش مباشرة، من على ربوة رملية صغيرة الارتفاع، منبسطة. هل كنا قد تغدّينا عنده بالفعل، ونزلت أمي إلى البحر في آخر العصر بعد أن خلا الشاطىء تماماً، وعادت وذهبت إلى الغرفة الداخلية الوحيدة لتسرّح شعرها وتلبس؟ أم كانت ما تزال في البحر، بعد أن خرج منه الناس، وأوشك النور أن يذهب، تأخذ، وحدها في الماء، حمام الغروب؟

كان رفلة أفندي يجلس على كرسي خيزران، بالقميص والبنطلون، وهو منحن بصدره على العود المستند إلى بطنه المنبعج قليلاً، يده البيضاء المرهفة الأصابع تهتز بالريشة على الأوتار هزات خفيفة موَقّعة، وأنا أمامه أجلس على كرسي خشبي مدور من غير ظهر؛ وأرى أرضية «الكابينة» الخشبية عليها آثار أقدام مبلولة لأنها أكثر دكنة من لون الخشب حولها، وكان يدندن: الليل لماخلي. . والساهر. . الباكي. . . وفي صوته وعزفه شجن، وعيناه غائبتان.

كان قرص الشمس أحمر، كبيراً، أراه ينزل بسرعة، كأن الشمس الحقيقية البيضاء الملتهبة قد غابت من زمان، وهذا انعكاسها المتقد، وهمياً، يغوص في البحر وسط سحاب متقطع مشتعل الأذيال بنار داكنة، ومجد الغروب ينطفىء قليلاً قليلاً، وتهب عليَّ أنفاسُ وحشةٍ باردة، كأنه آخر مغيب في آخر يوم، الشمس تركت العالم ولن تعود، ونحن ندخل ليلة القيامة الأخيرة.

وفي الكابينة المفتوحة دفء من سخونة خشبها الذي صهدته الشمس طول النهار. عتمة المغيب، وإيقاعات العود لها رنين شجيّ ومجوف ومتلاحق الرعشات، وقد صمت رفلة أفندي واستغرق في

العـزف. انحنى برأسـه إلى جانب يصغي إلى شكـاة الأوتار المـرتعـدة بصدمات موسيقى رتيبة، ملحّة، لها صـدى في حيز الكـابينة الخشبي الضيّق.

كنت أحس نفسي وحيداً جداً، وهواء البحر يأتي على وجهي حاراً ثم رطبـاً على التعـاقب، مرة بعـد مرة، ومحمّـلاً برائحـة الماء المِلحيّة. وأضاءت أعمدة النور على الكورنيش، معاً مرة واحدة، بقعاً مستديرة بصفرة وهّاجة إزاء نسيج السماء الداكن الزرقة الذي ما زال في طـرفه احتراق الغروب، يسـود بـالتـدريج، ونـور المصابيـح المهتز يقـع على أسفلت الكورنيش وعلى ظهور السيارات الـلامعة التي تمـرق بصمت وسرعة، متباعدة وقليلة، لتختفي في انعطاف الطريق، عند الكـازينو البعيد.

وأمـام الكابينـة مبـاشرة التفتُّ فجـأة فـرأيت جسمهـا يـدور تحت عجـلات السيارة أمـامي، ناعـماً ولدنـاً بدون مقـاومة، فستـانها يطير ويتقلب تحت السيـارة، والـذراعـان تهـتزان، والجسم يلتفّ مـع العجلات، مرة ومرتين.

أحسست العجلات المسرعة تطأ عظامي نفسها.

وسمعت صرخة ثاقبة في سكون الغروب.

انخلع قلبي برعب خاطف، هل هذه أمي تحت العجلات؟ كانت آتيـة إلينا من البحـر واصطدمت بهـا السيـارة؟ كـان الـروع في قلبي ساطعاً، لحظة واحدة. الغياب النهائي. الفقدان الكامل.

خرجت أمي من الغرفة الداخلية، هادئـة، شعرهـا القصير مسرّح ومـا زال مبلولاً قليلاً عـلى وجههـا الـذي يشـع في عتمـة الكـابينـة، أبيض.

وأحسست ساقي ترتعدان، خاويتين.

لم اتحرك. ولم أقل كلمة واحدة.

كانت «الكابينة» صامتة تماماً، والعود وحده على الكرسيّ الخيزران.

رأيت السيارة تبطىء، بعد أن مرت على الفتاة المرمية على الأسفلت، ساقاها الضامرتان مكشوفتان للهواء، هامدتان، ملويتان إلى جانبها في وضع لا يصدق. ورأيت، من بعيد، شعرها مفروشاً على أرض الشارع، تحت النور. هب الهواء فارتفعت خصلة منه، تهتزّ.

وكان الناس يجرون إليها، وأدركت أن رفلة أفندي قد انطلق إلى مكان الحادث. ووقفت أمي على الباب، صامتة، مفتوحة العينين.

لم يتزوج رفلة أفندي إلا عندما كبر جداً، ونقل مفتشاً ثم نَاظراً في سوهاج الثانوية بعد أن أخذت الابتدائية بسنتين، ولم يخلف، ومات بعد أن حصلت على البكالوريوس، وكنت عندئذ في معتقل الطور، وحرب ١٩٤٨ قد انتهت بضياع فلسطين، وكأنما كتمت مشاعر غامضة كثيرة، فلم أفكر فيه.

في ذلك الصباح انتظرت خالي كالمعتاد، ولكنه عندما وقف بالأوتوبيس نظر إليّ من فوق مقعده نظرةً غريبة ونهض، على غير عادته، وجاء إلى الباب قبل أن أصعد وقال لي: بلاش النهارده. خليك.. العب هنا أحسن. واحسست توجساً وقلقاً مستأثراً فلم أرد عليه، وفعلت مالا أفعل إلا نادراً، صعدت بصمت وتصميم، وجلست على مقعدي الصغير.

وفهم خالي ناثان أنني في نوبة من نوبات عنادي التي لا يفلح معي فيها شيء، لا أمر ولا رجاء ولا تهديد ولا محايلة، وعاد إلى مقعده وخيّل إليّ أن التجاعيد حول عينيه الصغيرتين قد عمقت وازدادت.

وعندما اقتربنا من اللوكاندة قال لي: «طب بلاش تنزل، ألفّ، وترجع معاي، أخْدك لغاية المنتزه، ونروح الكازينو بعد الضُهر». ولم يقف، لكنني في المحطة التالية كنت على الباب بالفعل، وقفزت إلى الشارع مع الناس، وجريت راجعاً، وعبرت الكورنيش دون انتظار من بين السيارات المسرعة التي ارتفع نفيرها الموحش وخَفَت في أذني، وأنا أمرق من بينها.

كان يقف على مقربة من الباب جمع صغير من البوابين والمكوجية والبياعين والفضوليين القلائل، يتهامسون ويتحدثون بصوت خفيف، وسمعتهم يقولون وأنا أشق طريقي بجانبهم على الرصيف: إمتى؟ حدّ عرف مين؟ بيقولو على وش الفجر.. خسارة.. والله ست فنجرية وبنت حلال.. ما هي كانت برضو. ألله يرحمها بقى.. ما احنا بكره هنعرفوا.. مِسِير المستخبي يبان.. ربنا على الظالم يا جدع.. وكان على باب اللوكاندة عسكري في بدلته البيضاء غير المكوية وطربوشه، وفي يده بندقية ومعه مخبر، بالبالطو الميري والجلابية والعصا الخيزان قال لي بخشونة: رايح فين يا ولد؟ فأزحته بيدي، بقوة لم أكن أعرف أنها عندي، دون أن أرد ولا أنظر إليه، فلا شك أن ما رآه في وجهي جعله يسكت ولا يفعل شيئاً.

صعدت السلالم جرياً، وفي الدور الثالث رأيت باباً مفتوحاً بالقرب من غرفة ابن عمتي بقطر، وعرفت أنه باب غرفتها، واندفعت إليه، ورأيت ضابطاً بنجمة وتاج يقف في الغرفة مع اثنين

من المخبرين، وكانت الغرفة مزدحمة بهم، وكان ابن عمتي بقطر يقف معـه، مهيب الطول صـارم الـوجـه، أنيقـاً في «البـالـطو» الصعيـدي «الجبردين» الخفيف على جلابية «سكروته»، ناصعة تنزل حتى حذائـه البني الـلامع كـالمرآة، وطـربوشـه محكم ومضبوط تمـاماً عـلى رأسـه، وأحسست أنه يتفجر، في هذه اللحظة بالذات، بشباب عارم مكتوم.

وعنـدمااندفعت إلى الداخـل من بينهم جميعـاً، وقبـل أن يمسكني أحـد، رأيتها عـلى السرير. كـانت مغطاة بمـلاءة بيضاء، عليهـا بقع الـدم، داكنة، تـرشح ببطء وتتسـع في مـواقـع مختلفـة عنـد الصـدر والبطن، ورأسها ملقى إلى الوراء من غير مخدة، سمرة وجهها شاحبة ولكن عينيهـا الـواسعتـين، تحت الجفنـين المـدورين، مفتـوحتـان، اخضرارهما الآن ثابت لا يتموج، وكانت تنظر إليّ.

أخذني ابن عمتي بقطر، من يـدي، ببطء ودون تعجل وقـال لي: تعالَ معاي دلوجيتي يا ود خالي. تعالى. ما عادشفيه فايدة من الوجفة دي يا خال. وكـانت أول مرة ينـاديني كما ينـادي أبي، وكما يتحـدّث الرجل إلى الرجل. واهتز صوتـه الراسـخ العميق. ولم أبكِ، يـومها، أيضاً.

واستمـر بقطر ابن عمتي يـأتي إلى «لوكـاندة رانـة» كل مصيف، لم يغير عادته، واحتفظ باعتدال قامته الشامخة، وصرامة وجهه، وشباب نظرته الثاقبة، بعـد أن تزوج من الصعيـد وخلّف. ومات بعـد أخيه رفله أفندي بقليل، وكنت قد انتقلت من معتقل الطور إلى معتقل أبو قير، مرة أخرى، ولم أعرف إلا بعـد أن خرجت. وحزنت عليه حـزناً صامتاً طويلاً، وكنت أمرّ، أيامهـا ، بغمرات حب ظننت أنـه ميئوس منه، وكنت يائساً من العالم.

وكنت أذهب، في مضض هـذا الحب الـذي لم أكن أعـرف كيف أحتمله ولا أعرف كيف ينتهي، إلى كازينو كليوباترا، وأقضي ساعات بعد الظهر المبكر أنظر إلى البحر، وأحلم أحـلاماً مضـطربة، أحـاول أن اقرأ رواية، أو انتـظر صديقـاً قبل ميعـاده بكثير، أو أقـرر، خلال ساعات، هل أذهب إلى سينما، أي سينما، أو إلى قهوة الفـريسكادور أو باستوريدس في شارع سعد زغلول، أو سان جيـوفاني في ستـانلي، لمجرد أنني لا أطيق البقاء بين أربعة حيطان وحدي.

كنـا في أواخر سبتمـبر، وشمس بعد الـظهـر تصنـع عـلى صفحـة البحر، تحتي، ملايين النقط اللامعـة التي تبرق وتختفي وتعشي عينيّ، وزرقة الماء تحتها عميقة وداكنة وكثيفة الشفـافية في الـوقت نفسه، فـأمد بصري من نـافذة الكـازينو العـاليـة المفتـوحـة إلى الأفق الغـامض في اتصاله بخط السماء المهتزّ بالضوء عندما رأيتها.

كانت تسبح تحت النافذة «بالمايوه» الأزرق الفاتح، محبوكـاً عليها، لامعـاً تحت سيـولـة المـوج الخفيف الـذي يـترقـرق عليـه وينحسر في حـركتها النـاعمة، ذراعـاهـا لا تكـادان تصنعـان رغـوة في انـزلاقهـا المنساب على المـاء. وعرفتهـا. رانة التي كنت نسيت كـل شيء عنها. جسمها فاتح السمرة وغضّ ولما يكد يكتنز بأنوثته التي تتفتح وتزدهر، في أول امتـلائها البـاكر، ولكنهـا أصغر سنـاً بكثير، فتـاة بعـد، ولهـا رشاقة سمكة في الماء.

خفق قلبي، وتوقّف. من هي؟ هل هي أخت لها، صغيرة، لم أرهـا من قبـل؟ كنت مـوقنـاً أنها هي، هي. أم هي الأخـرى التي سـوف أعشقهـا، وأفقدهـا. تعلقت عيناي بهـا، مسحوراً وغـائباً، وعنـدمـا

انقلبت على ظهرها، تطفو فوق المـاء، رأيت وجهها المـدور الخمري، مغمض العينـين تحت الشمس، طـافيـاً إليّ، وكـان شعـرهـا الخشن الـوحف قصيراً حـول رأسها، مبلولاً وداكن السـواد، أعرف حـرافـة عبقه المسكِر، وخـداها الأسيـلان يومضـان في استدارة رخيمـة كاملة تحت الماء، وهي تبتعد. ساقاها، في بضاضتهـما المخروطـة العبلة، لا تكـادان تتحركـان، وذراعاهـا تضربان المـاء بحركـة خلفية منتـظمـة إيقـاعهـا هـادىء، وهي تبتعـد. وعـرفت أنني سـأحبـهـا، فـي آخـر العمر، حباً كأنه الموت، وأن قلبي هو ساحة بحـرها اللجّيّ الجيـاش أبداً بأمواج لا هدوء لها.

٤ فلك طاف على طوفان الجسد

أنزل للمدرسة في الثامنة إلا عشر دقائق، على الساعة.

ساعة الحائط معلقة جنب الباب. البندول النحاسي الطويل ينتهي بقرص مدوّر، مليء، صفرته وهّاجة ومُغوية، يتأرجح، ذاهباً آتياً بإصرارٍ كأنّ فيه نَزَقاً وخفّة، في بطن الصندوق الخشبي المستطيل، بجسمه البُنّي الداكن اللامع الدسامة، على حوافّه الأربع «كورنيش» مشغول بتفريعات ناعمة اللَفْلَفَة، بضّة الخشب، يدور بعضها على بعض متداخلة ومتنزّية ومتقلبة، وعلى الحافة العلوية تموّجٌ مقبّب عليه فارس خشبي رقيق النحت، له خوذة ينزل من تحتها شعره الطويل المنمنم المتجعّدُ الخُصَل، وله لحية مخروطة، وعباءته يتطاير بها الهواء المحبوس، وهو يشبّ على حصانه الصافن الذي يرفع إحدى ساقيه الأماميتين، مثنيّة برشاقةٍ ثابتة، وطرف الحافر المنصوب لا يكاد يمس الأرض.

فطوري، دائماً، تَسْقِيّة بالشاي واللبن، فقط. تفتّ أمي وجه الخبز الناشف الرقيق، فقد كنت لا أحب بطن الرغيف الخشن المحبّب بالردة، وتُغرقُه بالشاي واللبن حتي يتشربه، ويلين، ولكنه لا

يتعجّن، فآكله بالملعقة الفضية الخاصة بي وحدي، عليها نقش تاجٍ صغير واسم لا أنساه: محمد غالي وأولاده، بالخط النسخ الدقيق التدوير وقد اسودّ وسط لمعان الفضة الثقيلة، أرفع بها الخبز المسقيّ بالشاي واللبن فأجده سائغ السخونة، سهل البلع وأنا لا أرفع عيني عن الساعة، والعقرب الطويل يقفز من علامةٍ إلى علامة، كل دقيقة، حتى يصل إلى الخط الذي أعرف عنده أنني يجب أن أترك كل شيء، وأخطف كتبي من على رخامة البُوريه، وأجري.

كل يوم أحد، قبل أن نذهب للكنيسة، أترجّى أمي أن تتركني أملأ الساعة. آخذ مفتاحها الذي له تجويف دائري دقيق في ساقه، من مكانه على أرضية الصندوق الداخلية أحسّ الغبار الدقيق عليها بأصابعي، وأطلع على كرسي خيزران، وأُولج خُرم المفتاح الطويل فيلفّ بإحكامٍ وثيق حول سنٍ كالإبرة تبرز من فجوةٍ دائرية في منتصف وجه الساعة بميناته البيضاء الساطعة، وأدير المفتاح وأنا أمسك برأسه المفلطح ذي الورقتين النحاسيّتين الدقيقتين بين الإبهام والسبابة، فتصرُّ التروس الداخلية، بمتعة، وهي تمتلىء، وتكتسبُ الدقاتِ المنتظمة الواضحة، أقوى صوتاً وأكثر تجسّداً. وكانت تدقّ، كل ساعة، بصلصلةِ النواقيس.

تركنا البيت الذي في شارع ١٢ أمام وابور الدقيق، بالقرب من الكركون، عندما دخلت مدرسة النيل الابتدائية من أربع سنين، وانتقلنا إلى بيت شارع الكروم أمام الاصطبل، قريباً من ترعة المحمودية، مخصوص لأن المدرسة كانت في الشارع نفسه، أصل إليها بعد خمس دقائق مشياً، أو جرياً في دقيقتين، أعبر تقاطع شارع سيد

كريّم، ثم شارع الترامواي، فأجد المدرسة على قمة الشارع التالي، على طول.

للمدرسة سورٌ عال، من الحجر، على شارع الكروم، لا يفتح إلا على باب خشبيّ يفضي مباشرة إلى سلالم ضيّقة، معتمة ونظيفة جداً، بين حائطين مُضْمَتَين، لا يدخل منه إلا الناظر والمدرّسون، لم أصعد عليه، ولم أعرف رهبته، إلا مع أبي، وهوو يمسك بيدي، عندما جاء ليقدّم لي في المدرسة أول مرة، من زمان، وعندما ذهبت لأخذ الشهادة من مكتب الناظر في آخر تلك السنة.

أما نحن فندخل من الباب الواسع الكبير على شارع المعارف، من الناحية الثانية. يقف عليه عم ميساك البواب العجوز المشقق الوجه، بشاربه المتهدّل وعمّته القماش الملفوفة على اللبدة الحائلة اللون، هو الذي يفتحه ويغلقه، ويقرر مصائرنا في الدخول والخروج، والحصص والفُسْحة، إذ يضرب الجرس النحاسي الصدىء المعلّق جنب الباب، على ساعته الفضية المكتنزة المضبوطة بالثانية، مربوطة، في جيب جلابّيته الجانبي العميق، «بكاتينة» معقودة بالزرّ الأعلى في صديريته التي يبدو قماشها اللامع ضيقاً حول صدره النحيل، من فتحة الجلابّية العليا.

وللباب ضلفتان حديديتان مسدودتان، بين قائمين من الحجر العريض، ويفتح على مدخل مبلّط صغير تصعد منه سلالمُ عريضةٌ رخامية بيضاء لها، من الجانبين، درابزين حجري، كالشرفات ويؤدي إلى ردهة تقع الفصول على جانبيها. وعلى مستوى الدور الثاني يبرز من فوق السلالم، ويُظللّها، بناءُ المدرسة المرتفع، المضلّع، بالحجر

القديم الكبير، والزخارف الحجرية الطويلة، وفيه النوافذ العالية الواسعة بضلفها الخشبية الثقيلة.

اندفعت جرياً من جنب عم ميساك إلى الحوش الصغير، إلى يمين السلالم الرخامية، حيث كان يقف «الكبار» الذين يلبسون البنطلونات الطويلة والبدلة الكاملة، والطرابيش والكرافتات.

وقلت صباح الخير لغُريِّب عَلِي، فرد عليّ وهو مستند بجنبه إلى السور، طربوشه مَعْوُوج على زاويةٍ أنيقة من جبهته، و«جاكتته» مزررة، فهي دائماً محبوكةعليه، لا يفتحها أبداً، ووجهه طويل فيه نظرة حالمة شيئاً ما، مترفعة شيئاً ما. ورد عليّ أيضاً حسن المرديني، بخدّيْه المدوّرين وعينيه الدسمتين، وسليمان بطرس، الصعيدي الوسيم، لونه بني محروق.

لعل الكبار كانوا في السادسة عشرة أو بعدها، ونحن، أوائل الفصل، صغار في السنّ عنهم، في العاشرة أو نحوها، وكلنا شَيْطنة، ولكننا كنّا، بمعنى ما، أنداداً لهم، بميزة التفوق التي تجعلهم يحترموننا، وتتيح لنا أن ننضم على قدم المساواة إلى جماعتهم في الحوش الصغير، نتبادل «السندوتشات» و«التُوفّي»، رأساً برأس، حتى لو كانوا هم - كما هو واضح - أولاد عز وآباؤهم أغنياء، بينما كنّا على قدّ الحال، مستورين، وما زلنا نلبس «الشورت» والقميص المفتوح الرقبة والشراب القصير المتهدل على رقبة الجزمة. ولكن الطربوش كان إجبارياً، علينا نحن أيضاً، نلبسه في الفصل وفي الفُسحة، وفي الشارع.

ومع ذلك فقد كنا نعرف، بغموض، أننا لسنا أنداداً لهم، تماماً.

كانوا كباراً، وكانت لهم معرفة بأسرار الجسم التي تحدث للواحد عندما يكون كبيراً، ولا نملكها بعد. ولهذا، وحده، كنا نكنّ لهم إعجاباً خفياً، واحتراماً من نوع خاص، حتى لو كانوا في آخر ترتيب الفصل. وكانت لهم مرات، في صباح الاثنين خصوصاً، يتحلقون معاً، الكبار وحدهم، ويتحدثون بهمس منفعل ويتبادلون أسراراً لا يسمحون لنا بأن نسمعها.

ضرب الجرس، واندفعنا نجري على السلالم الرخام، ودخلنا حصة العَربي. كان خليفة أفندي يتكلم بلهجة فلّاحية قليلاً، ويُعطّش الجيم دائماً، وله شارب كثّ كشريط مستقيم الحواف تحت أنفه، وعظم وجهه غائر وجافّ. وكنت في أول صفّ، وطلب مني خليفة أفندي أن أسمّع المحفوظات. كانت سورة الليل وسورة الضحى مقرّرتين علينا في المحفوظات، وكنت حسن الحفظ، فتلوتهما، واحدةً بعد الأخرى، مسحوراً بالإيقاع والمعاني، وحَلَّ في الفصل كله سكونٌ تام وأنا ألقي الآيات المنغّمة القِصار، وكان خليفة أفندي ينظر إليّ نظرة ثابتة عميقة، حتى فرغت، وفي الصمت سمعت همهمة خافتة غامضة من الفصول الأخرى، والأنفاس كلّها معلّقة، حتى قال خليفة أفندي فجأة: ألله. . ! هذا إلقاء مثل سلاسل الذهب. . فتح الله عليك يا بنيّ فأحسست وجهي يتضرّج من الزهو والخجل. وسمعت لغطاً وضحكاً مكتوماً في آخر الفصل.

في الفُسحة ذهبنا، من يسار السلالم العريضة، إلى الممرّ الضيّق الذي يدور بمبنى المدرسة، ويفتح على حوش مسقوف بالخشب، مبلّط، فيه دِكَك طويلة وموائد خشبية عارية الخشب، وكان هذا الحوش معتماً قليلاً، ومُفرحاً في الوقت نفسه، فقد كان مرتعاً

للاستغماية والنطّ فوق الدكك وبين الموائد، وتحت الحائط الذي تقوم أمامه حنفية نحاس نشرب منها بأيدينا، تحتها بقعة غير منتظمة مبلولة وداكنة اللون دائماً، ولم يكن الكبار يأتون إليه.

كنت منحنياً على الحنفية، أملأ يديّ المتجاورتين المكّورتين بالماء وأشرب بعطش بينما الماء ينسرب بسرعة من بين أصابعي، عندما جاء جبره من خلفي، بقامته الطويلة ووجهه الشمعيّ الأبيض، وابتسامته التي أكرهها، ومعه كمال المدكوك الجسم في بنطلونه الطويل الضيق المحشوّ فيما بين ساقيه، ومعهما رمزي، قصيراً، ومدور الجسم، «الشورت» الذي يلبسه يكتشف بإحكام عن فخذين ناعمتين بيضاوين، وعيناه جاحظتان قليلاً، وسمعت جبره يقول بصوت يتعمّد أن أسمعه: يا عيني على سلاسل الذَهَب.. يا حلاوة الذَهب.. وضحك رمزي ضحكة كسولاً ورفيعة، كالبنات وقال كمال بصوت خشن: إيوه يا سيدي..! اعتدلتُ وأنا أرتجف من الغيظ، وتمنيت لو كنت كبيراً فأحطّم لهم وجوههم بقبضتي كما كان يفعل روكامبول وأرسين لوبين، ولكن حسن المرديني، على غير عادته، كان يقترب متمهّلاً، ومعه غُريّب عَلي، وأنطون زخاري. سكت جبره وكمال فجأة، واستدارا، وابتعدا وهما يمسكان بيديْ رمزي، كلٌّ من ناحية.

في فسحة بعد الظهر كنت في الحوش الكبير المفتوح الذي يحدّه السور من ناحية، وحيطان البيوت العالية من ناحية، بنوافذها المواربة التي لا تفتح أبداً، وظَهْر مبنى المدرسة من ناحية ثالثة، وينتهي إليه الحوش المبلّط المسقوف من آخر جوانبه. كانت الشمس تنصبّ عليه فيدفأ جداً في الشتاء ويتّقد حرارة في الصيف، وأرضه قد اسودّ رملها قليلاً بتراب ناعم تثور منه سحابات صغيرة تحت أرجلنا من الجري

واللعب والصياح الذي لا يهدأ أثناء الفُسحة الكبيرة، وكان من لُعَبنا الأثيرة أن يخلع أحدنا حذاءه ويمسك به، حرصاً عليه مهما كانت الصداقة، ويقف بالشراب على أكتاف اثنين معاً، ويطلّ برأسه، بالكاد، من فوق السور، ويُنادي على المارة أو البيّاعين القليلين الذين يمرون في شارع الكروم، ولا يحصل على هذه الميزة إلا من كسب في لعب «البِلْي»، أو «صلّخ»، أو ما نبتكره من ألعاب.

جاء جبره، وكمال، ورمزي، ثلاثتهم، إليّ وأنا في الحوش الكبير، وطلب مني جبره بصوتٍ كله رجاء، واعتذار، ومصالحة، أن أشرح لهم معاني المحفوظات وإعرابها، فتصالحنا، ولكنني كنت دائماً أحس معهم بالقلق، وكُرْهٍ ملتبس، وأن ما يدور بينهم في خفاءٍ جسديّ غير مفهوم، جذّاب ومنفّر معاً.

قال لي جبره إنهم سوف يذهبون بعد المدرسة إلى بيت رمزي في آخر شارع ١٢، جنب شركة الغزل، وإن رمزي عنده مجموعة مجلات كل شيء والدنيا والكواكب، في غرفة على سطح بيتهم، وسوف يقنعه بأن يسلّفني إياها لأقرأها في إجازة نصف السنة. وكان جابر يسمع الكلام، فجاء إليّ في آخر حصة، وكنا قد حفرنا أسماءنا على خشب الأدراج، وأخرجنا المحابر الخزفية البيضاء من فوهاتها الغائرة ووضعنا بعضها فوق بعض، رصّاتٍ رصّات، على مائدة المدرّسين، وطيرّنا دبابير من الورق في سماء الفصل وكتبنا بالطباشير الأحمر على زجاج النوافذ «تحيا الإجازة». وقال لي جابر بغموض: خلّ بالك لما تروح مع الولاد دول عند رمزي، خلّ بالك. وكنت فرحاً بالاجازة الطويلة ومتوثباً بالعفرتة والفرح فلم أهتمّ بما قال.

خـرجنا مبكّـرين في هذا اليـوم الأخير قبـل إجـازة نصف السنـة، وكان عندي وقت قبـل ميعاد العـودة التي كانت أمي تحـاسبني عليها، بالدقيقة، على السـاعة. وذهبت مـع جبره وكـمال الذي وضـع ذراعه على كتفي وهو يقول إن خليفة أفندي وسامي أفندي، ضابط المدرسة الشابّ، أصحاب وينامون معـاً في بيته بـالليل. خـطوتُ إلى جنب، بعنف، وابتعـدت عنه، وقـطعنـا شـارع ١٢ حتى آخـره، وصعـدنـا السـلالم النظيفـة المعتمـة، وعـبرنـا الأبـواب لمغلقـة الصـامتـة، حتى السطح. وقال جبره إن رمزي سيأتي حالاً من تحت، ودخلنـا غرفـة، عـلى السـطح، خـاليـة، لهـا ثـلاثـة جـدران فقط من الحجـر الخشن العاري، وفيها شبـاك واحد عـالٍ منقور في الحـائط ليس له ضلفـة، وفي وسطها، أمام لوح الخشب الكبير المفتوح الـذي يحل محـل الحائط الرابع، عمودٌ عريض من الاسمنت تخـرج من صلبه أطـرافُ حديـدٍ متلوية رقيقة وصدئة، يحمـل السقف من المنتصف تمامـاً. كان النـور خفيفاً في غرفة السطح، وفي المكـان كله نوع من السرّ والتـوتّر. قـال جبره، بصوته اللزج وفيه غنّه لينة إن رمزي صعد معـه إلى هنا، يـوم الأحد الماضي. وحكى كيف أنـه ركع عـلى يديـه ورجليه واستنـد إلى العمود وقال إنه لم يصرخ بل كان يكزّ عـلى فمه فقط، ولم أفهـم شيئـاً ولكنني أحسست فجـأة أنني في كمين، وأن شيئـاً ما، خَـطِراً ومرعبـاً وغـامضاً يـدور من حـولي، قلت يجب أن أنـزل الآن، بيتنـا بعيـد، وانـدفعت أجري نـازلاً على السلم وأنـا أسمع كـمال يقول إن رمـزي سيجيء بـالمجلات حـالاً، لم أردّ عليه، كنت أجـري في شارع ١٢، أجري في شارع الكروم، أجري أعبر شارع الترامواي، لا أتوقف ولا آخذ نفسي، حتى وجدت نفْسي في فَسحَة السلالم داخل بيتنا، فوقفت

وأنـا أنهج، واكتشفت أنني أضمّ كتبي إلى جنبي بشـدة، وأن الـدم يضرب في عروقي كلها. وكان كل شيء مستغلقـاً عليّ وغـريباً وأريـد أن أنساه.

تجنّبت هؤلاء الثلاثة بقية هذه السنـة الأخـيرة في مـدرسـة النيـل الابتدائية، وكنت لا أريد أن أرى الابتسامة الكريهـة على وجـه جبره الشمعيّ، ولكنني، أحيـاناً، كنت لا أملك أن أردّ عيني متأملاً جسم الولد رمزي المدوّر الكسول.

استرددت نَفَسي، وطلعت السلم، كلّ درجتـين في وثبة واحـدة، وعنـدما خبطت على زجـاج ضلفة البـاب المغبّشة فتحت لي خـالتي سـارة الصغـيرة التي لم تكن تكـبرني إلا بسنـوات قـلائـل، وكـانت تحمل، على يـدها الأخـرى، الصينية المِرآة المستطيلة ذات المقبضـين وعليها أكواب «المُغَـات» السخن رائحته شهيّـة، داكن الصفرة تـطفو عليه طبقة السمن بـدوائرهـا الصغيرة المُزبدة مغـروزاً فيها فتـات من فصوص البندق واللوز وعين الجمل.

كانت أمي قد ولـدت أختي لويـزة، وعملنا لهـا «السبوع»، وجـاء أبونا سمعان وصلّى عـلى رأس أختي لويـزة فصرخت وهي في قماطهـا الأبيض الـوثيق، وبَخَّرَهـا ورشّ البيت كله بالمـاء المصلّى عليـه الذي حمله معه في زجاجة صغيرة أخرجها من جيب جُبّتـه السوداء الحـرير، وهزّ مجمرة البخـور التي كانت أمي قـد أوقدت النـار في قطعـة فحمٍ صغيرة فيها، حتى احمرّت، فامتلأ البيت برائحةٍ عبقة وحريّفة كرائحة الكنيسة من سُحُب البخور المتقطعة، ومن الشمـوع الموقـدة حول قُلَّة منتفخة البطن، مصبـوغة بـالأحمر، عـلى المائـدة في فسحة البيت، في صينية نحاسية، ونيران الشمعـات السبْع خافتـة في عـز النهار ومـدبّبة

وصفراء، وكل شمعة مغروزة في طَبَق فنجان، زُرعتْ فيها سبعة حبوب على أرضية من القطن المبلول، وسُقيتْ برشّ الماء طول الأيام السبعة الماضية، الترمس والفول والشعير والغلّة والحلبة والذرة والعدس أبو جبّة، وكانت النباتات الرقيقة الرفيعة جديدة الخضرة تكاد تكون شفّافة من رقتها، وقد ارتفعت حول جذوع الشمع البيضاء المدوّرة. وكانت أمي، في عزّ شبابها، تقوم من سرير الولادة ثاني يوم، وتعمل شغل البيت، وكان أبي يرسل للبيت الفراخ، بالقَفَص، طول أيام النِفاس، تحملها عربة «كارّو» من مينا البصل لغيط العنب.

عندما دخلت، سمعت ثرثرة الستات واللغط والصيحات الناعمة والضحكات النسائية العالية، كانت أمي عندها ضيوف، جئن يهنّئن بالسلامة، ورأيت على كنبة الفَسَحة ملاءاتهن السوداء خلعنها ورمينها من غير نظام، وعلى «البُورينه» كومة صغيرة من الأساور والحِلقان والعقود والخواتم الذهبية. كانت الكومة الذهبية متهدلة الخيوط والحلقات بعضها فوق بعض، تومض وتشعّ بخفوت، وكنت أعرف أن زائرات أمي عليهن أن يخلعن كل ما يلبسن من ذهب قبل أن يدخلن عليها، طول أربعين يوماً بعد الولادة، خوفاً من «المشاهرة». وكانت هذه الكلمة، وهذا الطقس كلّه، يسحرني ويحمل إليّ معاني غامضة عما يحدث للنساء من أشياء غريبة.

نادتني أمي فخجلت أن أدخل وكل هؤلاء النسوة معها ولم أردّ، فنادتني مرة أخرى بصوتٍ عال، وجذبتني خالتي سارّة من يدي، وعندما دخلت الغرفة كانت النافذة مغلقة والمصباح الكهربائي متّقداً في داخل كُمثراه الزجاجية المورِقة المفتوحة وزجاجها بلون اللبن.

وفَغَمتني روائح كثيفة مختلطة من الرضاع والمُغات وفَوْح الأجسام النسائية، وكانت أمي نصف مضطجعة مستندة بظهرها إلى مخدّة طويلة على قائم السرير ذي القضبان الحديدية اللامعة المتجاورة، وإلى جانبها لويزة الملفوفة في قماطها، مغمضة العينين حمراء الوجه، وذهبت إلى أمي أخطو بين النساء اللاتي تربعن على «الكِليم»، تحت السرير، في ثيابهن المشجّرة المقوّرة الفتحة عن أثداء مستريحة وفيرة وانكشفت أفخاذهن قليلاً من فوق الركبة، وهن يشربن المُغات ويثرثرن بعضهن مع بعض. وسمعت الست وهيبة تقول لامرأةٍ ممصوصة الوجه حادّة الشفتين لا أعرفها: لا ياختي، اسم الله عليه ده زيّ الملاك اسأليني أنا. ووقفت أمامها صامتاً وقلبي يدقّ فمدت يدها تحت المخدّة وأخرجتْ صرّة صغيرة جداً ملفوفة بقطعة قماش بيضاء معقودة بعُقَد كثيرة وأعطتها لي فأحسستها طريّة كأنّ فيها قطعة لحم حية، واقشعرّ جسمي، وقالت لي أمي أنْ أذهب، في صَفَار الشمس، إلى تقاطع شارع الكروم بشارع سيدي كريم، وأقف أمام بيت روزا الخيّاطة بالضبط في وسط الأربعة مفارق، وأرميها بعزم ذراعي، فوق، فوق خالص..

ظللت ممسك بالصرّة الصغيرة اللينة الجسم وذهبتُ إلى شرفة بيتنا المطلة على اصطبل الخيل وحوش العربيات «الحنطور»، وعندما رأيت أن الشمس تميل للغروب على المحمودية نزلت جرياً، وفي يدي الصرّة، وكنت سمعت أمي تقول وهي لا تعرف أنني أسمعها إنه «خلاص» أختي لويزة، ولم أعرف ما معنى الخلاص ولكن خيالي النشط صوّر لي أنه شيء ينزل مع البنات فقط عند الولادة ويجب الخلاص منه وأن أختي الوليدة لن يكون لها خلاص من عذابات النار

بعد الموت إلا بذلك. ولكن السؤال الذي كان يحيّرني هو كيف أن هذه المفارق أربعة، هل هي أربعة شوارع، يعني؟ لكنهما شارعان فقط، ولم أستطع أن أحلّ هذا اللغز، ووقفتُ بالضبط في نصف تقاطع الشارعين وكان بيت روزا الخياطة من دور واحد، وعريض، وله جنينة واسعة أمامها سور من قوائم الخشب القصيرة وله باب خشبي بضلفتين، وفي الجنينة تعريشة عنب كثّة بالورق العريض والأغصان المتلوّية، وأمام الجنينة رصيف مبلّط بالبلاط الأبيض يفتح عليه باب البيت ونوافذه المنخفضة الكبيرة. وكان البيت صامتاً تماماً، ومظلماً في هذا الوقت من النهار، فقد كانت الخيّاطة العجوز الشاميّة الأصل تعيش وحدها وكنت أعرف أن البنات يأتين للشغل عندها في النهار ويذهبن لبيوتهن على العصر وكنت أخاف قليلاً من المرأة الشمعيّة الوجه الحادّة الأنف، بشعرها الأبيض الجاف الملفوف دائماً في منديل ملوّن تربط عقدته خلف رقبتها.

كان الشارع خالياً من الناحيتين، على طول البصر. كل شيء في آخر النهار كان هادئاً ومهجوراً وساكتاً تماماً، والنخيل في جنينة روزا الخيّاطة يهتز سعَفُه بصوتِ خشخشةٍ خافتة.

رميت بالصرّة الصغيرة التي كنت أمسكها طول الوقت كأنني خائف من قوّتها الكامنة ومقدرتها على الإيذاء، وطوّحت بها ذراعِي إلى أقصى ما أستطيع. وارتفعت اللفّة الصغيرة الطرّية في الهواء، عالياً باندفاع كأنه آتٍ من داخلها، ارتفعتْ، بقوة، ثم اختفتْ، تماماً. كأنها ذابت، في انطلاقها إلى أعلى، إلى بعيد، كأن شيئاً ما، غير مرئيّ، قد التقطها في الفراغ. وراحت.

استدرتُ على وجهي، وانطلقتُ أجري إلى البيت بأسرع ما تحملني قدماي. كأنني أفرّ.

في حصة الدين كان الأولاد المسلمون يذهبون إلى غرفة المدرّسين حيث يتجمع زملاؤهم من الفصول الأخرى، ويعطيهم خليفة أفندي درس الدين. وأسمعهم، من الشباك، يقرأون القرآن معاً بصوت عالٍ منغّم له إيقاع مليء يحتشد له قلبي بالرهبة، وأحسدهم وأريد أن أكون معهم. أما نحن فيدخل إلينا جرجس أفندي مدرّس الانجليزي، وكان صعيدياً وقصيراً ونحيلاً وله وجه قاسٍ أسمر، ويحفّظنا قانون الإيمان والوصايا العشر ومزامير داود وموعظة الجبل وكتاباً صغيراً فيه أسئلة وأجوبة. وفي إحدى الحصص وقف أنطون زخاري فجأة وقال للمدرّس بصوتٍ عالٍ: أفندي الوصية الثالثة مش فاهمها يعني إيه لا تزنِ؟ فضحك الكبار ضحكاً مكتوماً وقال جرجس أفندي بهدوء: طَبْ أجْعُدْ.. هي دي اللي أنت مش فاهمها؟ لما تكبر هتعرف، مستعجل ليه؟ وكنت أنا، حقاً، لا أعرف، بأي شكل، ومع ذلك فان شيئاً ما يُخجلني عن أن أسأل.

بعد أن خرجنا من المدرسة، وقفتُ مع الأولاد الصغار أمام الفرن، حتى يمر الترام في الشارع بصلصلته البطيئة وعرباته الزرقاء اللامعة، وسألتهم بصوتٍ فيه تحدٍ وشيطنة: حد فيكم بقي يعرف يعني إيه بيوت الدعارة؟ كنت قد قرأت خبراً في «الجهاد» عن تفكير الحكومة في إغلاق بيوت الدعارة، ولم أفهم ما هي هذه البيوت، وقلت لنفسي إنها لا بدّ البيوت القديمة التي سوف تسقط على أصحابها. ولم يعرف أحد ما هي، وسكتوا، ومع ذلك لم نسأل أحداً.

في يوم الاثنين من الأسبوع الأخير للمدرسة كان الحوش الصغير دافئاً ومشمساً في فسحة بعد الظهر، وكان الكبار متجمعين معاً. سمحوا لنا، لأول مرة، أن ننضمّ إليهم في حديثهم الخافت الحارّ عن مغامراتهم في كُوم بَكير يوم الأحد الذي فات وكأنهم قد اتخذوا قراراً بأننا كبرنا نحن أيضاً ونستحق هذه الجائزة، إجازة الصيف الأخير توشك أن تأتي، فمن يدري هل سنلتقي، ومتى، بعدها؛ فمن حقنا الآن أن نعبر العتبة التي كانت محرّمة علينا. وقفنا في حلقة متضامّة متزاحمة نسمع بلهفة، وقلوبنا تدقّ، عن أشياء مبهمة تماماً عليّ، ولا أستطيع أن أتصوّرها مهما حاولت، ولكنني أحسّ لها سحراً لا مقاومة له. وبينا انطلق انطون زخاري يهمس بصوتٍ حادّ وسريع ومبحوح قليلاً كان الأولاد يقاطعونه ويهتفون بأصوات فيها انكسار البحة الأولى. ويضمّون رؤوسهم بعضها إلى بعض ويدورون حوله ويستحثّونه بالسؤال عن التفاصيل. كانوا يعطوننا نحن الصغار ظهورهم كأنهم وقد تركونا ندخل الحلقة نَفَضوا أيديهم منا. وكان أنطون رفيعاً جداً وطويلاً ويداه عصبيتان وعيناه ذكيّتان قلقتان تدوران حولنا كأنهما لا تريانا وهو يصوّر بيديه وتقاطيع وجهه المسنونة وأنفه الكبير كيف أن المرأة البيضاء السمينة أعطته ظهرها وانحنت وعلّمته شيئاً ما لم ألتقط، في وسط الزحمة، ما هو، ولا كيف يكون، ولم أستطع أن أتصوّر ماذا كان يحدث عندئذ، وإن كنت أهتزّ بنوع من الروع، والمتعة الخفية بخيالاتٍ غير محدَّدة. أما غريِّب فقال إنهُ دخل على واحدة خلعت له قميصها الحرير الأبيض وكانت عارية تماماً تحته، وسألته عن اسمه وأين يسكن ولما عرفت أنه من غيط العنب ومن شارع الكروم تركته يفعل ذلك مرتين إحداهما بعد الأخرى ولم

تأخذ منه أي مليم وقالت له إن اسمها حسنيّة وأنها سكنت مرة في شارع الكروم وإنها تراعي الأصول وعليها دين لناس طيّبين هناك تريد أن تؤدّيه، وقال إنها كانت رفيعة وسمراء وملتهبة كالنار وحنوناً أيضاً، وكان صوته المترفّع البارد يرتعد قليلاً على غير عادته وكأنه خجل من ذلك. وقال إنها طلعت أو نزلت شرموطة بنت كلب وانه سيرجع إليها ويعطيها فلوسها على الجزمة ويضربها إذا فتحت فمها، أيضاً، وكنت أستمع للحكاية وقلبي يرتجف مليئاً بالغموض ولم أصدّق أنها هي، أبداً.

وقرّرنا نحن الصغار يومها ونحن نعود نحمل كتبنا ولا نريد أن نلعب «البِلْي»، أننا عندما نكبر ونروح الثانوية، سوف نذهب إلى كُوم بَكير نحن أيضاً ونطرق هذا المكان وبيوته السرية الواعدة بمتعات وملذات جنونية لا نعرف طعمها ولا نتصوّرها، حتى. وكنا نعرف مع ذلك أنه يقع بين السيّالة وشارع توفيق قريباً من كركون اللبان وقال جابر إنه يعرفه بالضبط. وتعاهدنا أن نذهب، جميعاً، أنا وجابر وفرنسيس واسكندر حتى لو تفرّقت بنا المدارس في الثانوي، ولم نفِ بهذا التعهّد أبداً.

كان جابر أكبر جماعة الصغار، ولكنه من الكبار أيضاً، يضع رِجْلاً هنا ورِجْلاً هناك. وبعد الامتحانات التي عقدت في تلك السنة، لأول مرة في حياتي، تحت خيمة عالية نُصبت في الحوش الكبير ولها فتحات وقماش ملون ومزخرف كقماش شوادر الأفراح والمآتم، قال لي جابر إن عنده سحّارة ملآنة بالمجلات والكتب والروايات فقلت له إنني أريد أن أقرأها، كلها، في الاجازة، فقال لي تعالَ، ووصف لي أين بيتهم.

كـان بيتهم في شارع ١٢ من نـاحيـة كـرمـوز، دخلت من البـاب الخشبيّ من فوق عتبة رخامية ممسوحة، وفوجئت بالسـماء فوقي، وكـان في جـانب الحوش الـذي جرت فيـه الفراخ من أمـامي، فَرن مـوقـد جلست أمامه سيدة بملابس سوداء وطَرحـة على أطـرافها غبـار أبيض من الدقيق، تخبز. سألتها عنه فرحّبت بي وقالت لي هّو أنتَ صاحبه؟ يا أهلاً يا ضنايَ ونـادته بصـوت عال، ودخلتُ معـه إلى البيت وكان غـرفة واحـدة فقط، وكـان أبـوه راقـداً عـلى «كَنَبـة» ومغـطى بمـلاءة مصنوعةٍ من خِرق ملونة قديمة مَخِيطة بعضها إلى بعض ويسعل بشدة، وركع جابر أمام الكنبة وفتح لي غطاءً قائماً عموديـاً يُفتح إلى جنب في بـطن «الكنبة» التي كـان يرقـد عليها أبـوه، وأحسست بحرَج شـديد ونوعٍ من الإثم. ولكن الرجل العجوز قـال لي اتفضل يـابْني خُد الـلي انتَ عايزه دا جابر أخوك وكلّمني عنك كتير ربنا يخليك يابني ويـديك الصحة انت واللي زيك يا ربّ يـا كريم. ومـدّ جابـر يده واستخـرج أكواماً من الكـواكب وكل شيء والـدنيا والمصـور واللطائف وروايات جرجي زيدان وروكامبول، وجلست عـلى الأرض أمام الكنبـة أنتقي منهـا ما لم أكن قـد قرأتـه من عند الست وهيبـة أو عند أصهـار خالي سوريال، وتشجعت فمددت يدي أيضاً تحت الرَجـلِ الراقِـد بضعفٍ واستسلام، مغمَض العينين شاربه الكبير مُصفَرّ تماماً ووجهـه متهضم جاف ومليء بالتجاعيد الخشنة، وخرجَتْ يدي برصّةٍ ملفوفة بـدوبارة من أربعة كتب ذات جلدة ورقية خشِنة صفراء، والكتاب الأول عليه رسمٌ سـاذج الخطّ ومُغْوٍ لامـرأةٍ جالسـة على ركبتيهـا، تضع فخـذيهـا تحتها؛ قدمها، فقط، بأصابعها المتجـاورة، ظاهـرةٌ تحت ثوبهـا، وإلى جـانبها خُفّهـا العربـيّ مـدبّب الطرف، وهي تـرفع ذراعهـا المحملة

بأساور غليظة وتشير بيدها إلى شيخ له لحية طويلة، مربّعة، مفروشة على صدره، متربّع، ظهره إلى وسادة ويُسند رأسه إلى يده، أما المرأة فثدياها أحدهما قائم ومكوّر والآخر متهدل ومستدير والحَلَمتان قائمتان بارزتان منهما، وامرأة أخرى تجلس على البساط وتنظر إليهما بنظرة رعب.

وقرأتُ أعلى الرسم «ألف ليلة وليلة» بالخط الرقعة، وعندما فككتُ الدوبارة رأيت الصفحة الأولى تقول إنها ذات الحوادث العجيبة والقصص المطربة الغريبة لياليها غرام في غرام وتفاصيل حب وعشق وهيام بالصور المدهشة البديعة من أبداع ما كان ومناظر أعجوبة من عجائب الزمان، وخفق قلبي بشدة. سمعت عنها من الكبار. وتردد جابر في أن يعيرني الكتاب ولكني أغريته بمجوعتي من «عشرين قصة» ورواية سافو، فوافق على أن يعطيني الجزء الأول فقط، وعندما أعيده يعطيني الثاني، وهكذا، وعدتُ إلى البيت أجري جرياً من شارع إلى شارع، في نشوةٍ يطير بها جسمي، حافياً. تخففتُ من الشبشب أمسكه في يدي، مع الكتاب ومجلات الكواكب، ودخلت البيت بعد أن نفضت رجلي من التراب ولبست الشبشب وأخفيت الكتاب تحت جلابيتي الخفيفة وضممت ذراعي، وفيها المجلات، عليه.

وفي الغرفة الطويلة ذات الشرفة الخشبية المقفلة المسقوفة التي تطل على اصطبل عربات الحنطور، رقدتُ على الكنبة الاسطمبولي، جنب مائدتي الرُخامية البيضاوية المفروشة بالجرائد التي كنت أذاكر عليها دروسي، والجرامفون ذي البوق ورسم الكلب. انزلقت قدماي إلى أرضِ ألف ليلة وليلة، ودخلتُها، ولم أخرج منها حتى الآن.

ذهبتُ فجأة إلى قديم الزمان وسالف العصر والأوان، ودخلتُ قصر شهريار ملك ساسان وأخيه شاه زمان ملك سمرقند والعجم، ورأيت امرأته تواقع العبد مسعود مع جواريها العشرين اللاتي يواقعن العبيد العشرين وما صاحب ذلك من بوس وتقبيل وما تلاه من تنكيل وتقتيل ، والأميرة شهرزاد تنزل من «أتومبيل باكار» مقدمته مربعة الشكل ولامعة، أمام سينما محمد علي في شارع فؤاد، وينحسر الفستان الحرير عن فخذيها السمراوين تنفرجان عندما تهبط فَأرى العتمة الغامضة بينهما. أفزعتني المَرَدة الهائلة تخرج من القماقم، وركبتُ الخيل الحديد تطير على عنان السحاب، وهبطت إلى مدن الأبنوس والنحاس الخاوية من البشر، وانحدرتُ على السلالم الأربعين إلى الأقبية الخفية والسراديب فوجدت القردة والدببة الشبقة تُعاطي النساء من اللذة ما لم يعرفه بشر، وارتقيتُ ظهور الجن العمالقة وركبت البساط السحريّ إلى جزائر الهند والصين، ودرَّ صدري بالشفقة والخوف على أولاد المساتير المسخوطين كلاباً تنبح وتتغطى منهم الحريم حياء، والمسحورين حميراً وبغالاً تعتِل الأثقال وتدور بأحجار الطواحين الثقيلة في سيرجة معتمة نازلة تحت الأرض والرجال الذين لا ينامون أبداً يضربونها بفروع من خشب الجميز، والزيت يتقطر ويرشح ببطء في طسوت واسعة جدرانها الصفيح سوداء ولزجة، وعرفت جَبَّ الخِصيّ بالسكاكين واستلال المحاشم وصبّ الزيت المغلي على الجسم الحيّ المتنزّي وطيران الرؤوس على حدود السيوف والموت صبراً في الغَيران والآبار والزنازين والحبوس، والعبيد يكدّون وتتقصم ظهورهم في الوديان والمحاجر والأهوار، والجواري الرافهات اللاعبات بالدفّ والعود، وقَتْلَى الحب، وصرَعَى

المكـائد، والأبـرياء يُؤخـذون بجرائـر الماكـرين، والصعايـدة يحملون شوالات الدقيق البيضاء الدسمـة الانبعاجـات على ظهـورهم القويـة القضيفة التي لا يكسوها إلا خيش شوال مقـطوع الجانبـين تبرز منهـما أذرع عـارية سـوداء معقّدة العضـلات، والبنـات الحيّـات، والبنـات الغـزِلان، والشُـطّار والعُيّـار، والعـماليق والبـطاريق، والقسـوس والنصـارى بقـلانسهم وزنـانـيرهم وصلبـانهم، والسَحَـرة والمجـانـين والدراويش والهائمين، والمَجوس عَبَدة النار، والسود عَبَدة الأصنـام، والقراصنة. والربابنة، والقهرمانات والطواشي، والرهبان والمُجاهدين والصُنّاع والجواهرجية والصيّاغ والمزّينـين والحمّالـين والخلفاء والـوزراء وشهْبَنَـادر التجار، والبنـات الصغـيرات صـدورهن ضيّقـة ومخسـوفـة وشعورهن الخشنة ملفوفة بالمدورة البيضـاء غير النـظيفة ينحنـينْ طول النهـار بالإبـرة والخيط وجوههنّ الشـاحبة تلتصق بـالقماش الأسـود في مشغل روزا الشامية يفقدن عيونهن في عتمة الغرفة الـطويلة المنخفضة السقف، وتَلَوْتُ الرُقَى والتعازيم وحللتُ الـطلاسم وحملت الأحجبة وملّستُ عـلى العِمدان وأشعلُت المجـامر ولبستُ الخـواتم السحـريـة ووجـدتُ حجَر الفـلاسفة ونشقتُ البِنج والنشوق وسففتُ العقـاقـير والزرنيخ والجير ولعبت بالدرر واللآلىء والزبرجـد والياقـوت وتنزهتُ في البساتين ذات الأشجار الباسقة الفارعة والعريضة والعقيمة والمُثمرة والمتشابكة والجرداء. النخل والجميـز والتين الهنـدي والسنط والكافـور والنبق وأمّ الشعـور، واغتسلتُ في الحمّامـات، وانسربتُ في الدهـاليز والرواقات ونمتُ في الخانات على المصاطب والسُرُر المفروشة بالحريـر، ورميتُ بالسهام والـرماح من الأبـراج والحصون، وامتـطيتُ صهوات الخيل في الاصطبلات بينما الرجال يحكّون روث الخيل الـداكن اللون

طبقاتٍ مكومة فوق طبقات، والروث الجديد فوقها مدوّر مُصْفَرّ اللون يصعد منه البخار، وأبحرتُ على سفن كالجبال تمخر البحار إلى الهند والسند وجزر واق الواق، وكنت هناك والترامواي يدهم الصبيان وتطير أشلاؤهم الدامية، سيقاناً عارية مقطوعة ورؤوسهم تتدحرج على حَجِر البازلت الأسود النظيف، انسللتُ أمام زرائب الجاموس المظلمة، أرضها الترابية عليها أكداس من التِبْن الأسود المنعجن بالروث ولها رائحة نفاذة حارقة للأنف يعمل فيها رجال سود ليس عليهم إلا سراويل كالحة من العَبَك متصلبة بالنفايات الجافة عليها وصديريات ذات صف عمودي من أزرار صغيرة مدورة كثيرة، كثيفة القماش من الوسَخ يكسحون الروث بأيديهم يملأون به جرادل ضخمة مدورة ويلقونه في أكوام لزجة جنب الباب ويضربون ما بقي منه بالتبن المكدّس على الأرض، ونساؤهم، بعيونهن الجائعة وملابسهن السوداء الملوثة بالبلل، يحلبن الضروع الثرة باللبن الذي يسقط له خرير في الأسطال المعدنية اللامعة، ثم يركعن أمام أكوام الروث ويصنعن أقراص الجلّة يفرشنها في الشمس على أرض الشارع.

وعندما عدت تجولتُ في شوارع بغداد متنكراً مع هارون الرشيد، وسمعتُ شجْوَ الأغاني مع الموصليّ وبراعة القريض، وروّعتني فاجعة البرامكة، وأحسستُ عنقي في يد مسرور السياف وذراعيّ ورجليّ مقيدة بالكلاليب والجنازير، وصارعتُ الاحناش والتنانين وفتحتُ الكنز المرصود عن ذهب وماس ولؤلؤ منثور، وأكلتُ من أصناف الطعوم المطبوخات والمشويات والحلويات والنُقْل من لوز وجوز وبندق وزبيب وحسوتُ القهوة والشربات والنارنج والنبيذ الأصهب

كالزعفران، وشممتُ الآس والياسمين والنرجس والقرنفل، وعجبتُ من أفعال الرجال في ثياب النساء والنساء في زيّ الرجال المحاربين، وعاشرتُ العفاريت الكَفَرة والجّن المؤمنين والغلمان كالبدور والقِيان كالشموس وعرائس البحار، والبنات الطيور اللاتي يخلعن ريشهن فإذا لهن حُسْن يدوّخ العقول، كأنهن الحور العِين، ونعمتُ بملمس القمصان البندقية، الذهبية منها والمشمشية والمطرزة بأسلاك الفضة، على نساءٍ لهن شعور كالحرير ووجنات كرحيق الأرجوان وأنوف كحدّ السيوف وشفاه كالعقيق أو حَبّ الرمان، وأعناق تلعاء كالعاج وصدور كبلاط الحمّام عليها نهود كفحول الرمّان أو حِقاق المِسك والريحان، وخصور مُخَنْصرة كأنّها من وهم الخيال وبطون كأنها العجين الخمران مكسوة بشقائق النعمان وأكثر بياضاً من المرمر كل عكنة من أعكانها تسع أوقية من دهن اللِبان وفككتُ تِكك السراويل المعقودة على فصوص الزمرد والمنقوشة بأشعار الهوى والتدلّه والتحريم، فإذا سيقان من رخام دافىء مسنون فوقها كثبان من البلور ناعمة ومربربة واعدةً بالنعيم، وأفخاذ كالعِمدان ألين من الزبد وأنعم من الحرير، وجُلتُ بيدي في جميع الجهات حتى وصلت إلى قباب كثيرة الحركات والبركات عرفتُ من أسمائها خان أبي منصور وحبق الجسور والسمسم المقشور، وفهمتُ أسرار البَوْس والمصّ والعضّ والغُنْج والشهقات واشتعل جسمي بالشوق فتيقّظتُ واشتددتُ وتوتّر البرعم النابض المنتصب وجلجلتْ نواقيس الساعة وسطع العالم للمرة الأولى بلبِ المعرفة وانهمر الطوفان ووجدتُ نفسي فُلْكاً طافياً على الغَمْر وليس بين أمواج اليمّ العاتية من طريق، وما زلت أطفو وأغوص.

٥ غربان سود في النور

الطفل يحس جسمه يتيقظ فجأة في الليل، في غرفة النوم الدافئة المغلقة الباب. ويجد أنه على سرير عال ثقيل بالأغطية، ليس سريره. وأمه جنبه، مرتفعة الجسم، تملأ السرير والغرفة. ويعرف أن أباه ليس هنا، ولا يعرف أين ذهب، ولماذا هو غائب لا ينام هنا. ويتحرك الطفل على يديه وقدميه، يلف من تحت ساقي أمه النائمة التي تتنفس بهدوء، بصوت مسموع. وينزل من على هذا السرير إلى صندوق كبير لا يكاد يراه في ظلمة الليل، مغطى بالألحفة والملاءات المطوية الناعمة التي تتلقى سقطته عليها من غير صدمة.

لماذا كان يريد أن يذهب إلى سريره، مُسَوًّى، نظيفاً، لم ينم عليه الليلة، عريضاً وموحشاً؟

عندما صعد من على الصندوق الى سريره الخالي، وقف غير ثابت القدمين على المرتبة الطرية، ومشى، يهتزّ، حتى جاء إلى النافذة المواربة، ونظر منها إلى الشارع، تحت. كانت النافذة عالية جداً.

عمود النور في الشارع الخاوي يتّقد بالغاز الأبيض الساطع شعلته لا تكاد تهتز في داخل فانوس الزجاج المربع النظيف، فتَحْتَه من

تحت، والنور يسقط من العمود على شجرة كثة الورق، خضرتها، في الليل، تلمع بضوء الغاز، وتحت العمود، بعيداً جداً تحت، يقف العسكري، بحلته السوداء أزرارها الصفراء تومض وتنطفىء، والبندقية الطويلة، ترتفع من وراء ظهره مصوبة إلى أعلى، إليه مباشرة، والأبواب كلها مغلقة أمامه، والشارع واسع أسود الأرضية وطويل جداً. صدر الطفل ممتلىء بدقات قلبه العالية، وهو يرى على الشجرة، وبين الورق المتراكب في الظل والنور، سرباً من الطيور السوداء، طويلة الجسم، كثيرة، كثيرة بلا عدد، واقفة، صامتة، ظهورها مقوسة قليلاً ومناقيرها مطبقة وممدودة إلى الأمام.

يسقط إلى الخلف، يرى خطوط النور البيضاء، متجاورة، مستقيمة، تقع على ظلمة سريره من خلال خصاص النافذة.

يحسّ أمه تثب إليه من السرير الآخر، تحيطه بذراعيها العاريتين، نعومتهما على ظهره، ليس فيهما أمان، بعد، وتقول بصوت خفيض مُلِح: اسم الصليب اسم الصليب، وتحتضنه إليها فيغمض عينيه ويدفن رأسه في صدرها الغني لا يكاد يحتمل دق الدم في صدره.

يقول لأمه بلهفة: فين بابا؟ فين بابا؟ فتهدهد خوفه: يا ختي، يا يسوع. مالك مَسْرُوع كده، إيه اللي قوّمك بس؟ طب تعال، تعال نام واتخمد كده. سَرَعْتِنِي. فيسأل ثانية: فين بابا؟ فين بابا؟ ويحس عينيه تغمضان.

وبعد أن ضربته الحياة كثيراً، وأحبطته، ولانت له أيضاً، وأمتعته بعمق، مثل كل الناس، ظل يرى المشهد نقياً، كأنه حدث بالأمس، كأنه يحدث الآن.

في قاع المياه المضطربة حصاة بيضاء، مدوّرة، ناعمة. لم تترسب عليها شائبة من عكارة السنوات وطينتها.

ظل يحتفظ به طول عمره، يتأمله ويسترجعه، يهدهده في خِفْية. ويعتقد أنه أول ما يذكر، أول ما بقي، واضحاً، وحاضراً، وفعّالاً. ويظن أنه كان عندئذ في الثالثة من عمره، بالكثير. بل يجب أن يتصور أنه كان في الثانية من عمره، حتى، ولكنه يقول: الثانية؟ غير معقول. لا أظن. هذا مبكر جداً، أليس كذلك؟ في الوقت الذي يظل فيه أميَل إلى هذه الفكرة لا يتخلى عنها، ويقول: ولم لا؟ صحيح. نعم. كنت في الثانية، أو نحو ذلك على أي حال، صحيح... ولا يستطيع طبعاً أن يحسم الأمر. بل ينظر إلى الطفل الذي كانه، ويبتسم قليلاً، وكأنه آخَر، وإن كان غير غريب. وما زال يشعر بخوف ذلك الطفل، ومضضه، وبحثه الملتبس.

قال لنفسه: مَنْ هذا الطفل؟ أين هو؟

وقال: ومَنْ الصبي الذي كان بعد عشر سنين، وبعد أن طفا فُلكاً متطوحاً على طوفان جسده، وحده، تتخبط به أمواجٌ ملتطمة وساطعة وملتبسة؟

انتقل أبواه، مرة أخرى، وأخرى، من بيت إلى بيت، بحثاً عن شقة إيجارها أرخص، وأقرب إلى العباسية الثانوية، وهرباً من الحجز على عفش البيت وفاء للأجرة المتأخرة المكسورة شهراً على شهر، حتى استقروا في بيت عبده في محرم بك.

وانقطعت صداقاته بزملاء النيل الابتدائية في غيط العنب وكان يحس نفسه وحيداً وغريباً بين جمهرة تلاميذ العباسية الثانوية، كثيرين جداً، ملابسهم أغلى وأحسن، كلامهم وطريقة سلوكهم تختلف،

والمسلمون فيهم أكبر عدداً بكثير. وتعلّم أن يـأكل، حسب الأصـول، في مطعم المدرسة الفواح بـرائحة الأكـل الشهي والمدوّم بلغط الأكـل البهيـج، الطبيـخ والأرز واللحم أو الفـراخ والحلو كـل يـوم، وقبـل الأعيـاد هناك الأكـل الصيامي اللذيـذ للأقبـاط، مخصـوص، أمـا في رمضان فيصرف لهم سندويتشـات، موضـوعة في علب ورق بيضـاء. وفي الفُسَح الطويلة بعد الغداء دخـل في زمالات وصراعـات، ولعب الكرة الشراب وتسلق أشجار الجنينة الممنوعة في بيت الناظر، وضرب وانضرب، وعرف المكتبة الغنية وغرق في كنوزها، وطُرد من المدرسة لأنه لم يدفع قسط المصاريف وعـاد بعد أن دبـر أبوه الجنيهـين و ٣٠٠ مليم وأخذ بها إيصالاً رقيق الورق أحمر اللون.

كانت أمه قد أطلت من البلكونة على البائع الـذي كان ينـادي من تحت «بيكيا. بوتِيلْيـا. .» وقالت لـه: تعال. وكـان صعيديـاً يلف على رأسـه عمامـة من قماش أسـود وحول رقبتـه الطويلة كـوفيـة سـوداء، وساومته طويلاً وقال لها صلّي على النبي، طَبْ مجّدي سيّدك، مـا هي جايبة حَقّ المَشال. حتى رضيت بأن يـأخذ البـوريه، بمـرآته البلجيكيـة الثقيلة، على جانبيها دواليب صغيرة أبوابها الخشبية مشغولة ولها زجاج محبب أصفر وأحمر داكن، ورخامته المحمـرة مجزعـة بتشريحات بيضـاء متشعبة، وأدراجه التي كان يرسم على خشبها الداخلي الأبيض، وهـو طفل، رسوم رجالٍ لهم وجوه دائرية مقطوعة فيها عينان وشَرطـة فم وأيد وأرجل كالعصي، وكتب عليها اسمه من غير حروف المد كلهـا، بحـــروف منفصلة م خ ء ل. وذهب الـرجـــل وعـاد ومعـــه «شيّـال» صعيدي ثقيل الجسم فَكّ أجزاء البوريه وحملهـا على ظهـره ونزل بهـا السلالم.

كان جابر هو الصديق الوحيد الذي ظل يأتي من غيط العنب. كان قد قضى العام كله في المدرسة الزراعية في شبين الكوم، حيث عاد أبوه، ما زال يعاني من المرض، والكحة، ولكن عنيد، وصلب العود، ليعمل مزارعاً في عزبة البيه القريبة من البلد، وقال له إنه سقط في امتحان آخر السنة، وأنهم عادوا إلى بيتهم في غيط العنب، وأنه اشتغل ظهورات في البلدية ويكسب الآن عشرين قرشاً في الأسبوع، كل يوم سبت، نعمة من عند ربنا، وكان يأتي إليه بأعداد رجوع من مجلة أبوللو، وروايات الجيب، وأهداه صورة قطعها من مجلة أبوللو، على ورقٍ جِسُّه ناعم، بألوان مضطربة، وفي أسفل الورقة علامات خروم الدبابيس التي كانت تثبته بالمجلة، وعنوان: نفرتيتي والمثال.

نفرتيتي تجلس على منصة عالية بدرجتين عن الأرض، وبجانبها أصص زرع بنفسجي وحشي مهتَدل تحت ستارة ثقيلة زرقاء عليها رسم أعواد اللوتس القائمة الطويلة تنتهي بازدهار مقوس تخطيطيّ الزخرفة. تاجها الأزرق المقطوع السطح معقود بشريط مذهَّبِ التطريز، وكأنها تنظر إلى ما وراء الصورة، وجهها صارم ودقيق فيه شبه ابتسامة، وصدرها عارٍ تماماً لا يغطيه إلا عقد عريض متعدد الحلقات بالأزرق والأصفر وثدياها صغيران وقائمان في دورانهما ليونة متماسكة مخروطة، وينسدل على فخذيها ثوبها الحريري الأبيض اللدن الطيات. أمامها، من بعيد وإلى تحت، المثّال. يضع اللمسات الأخيرة في تمثالها، جالساً على كرسي بغير ظهر وإحدى ركبتيه مثنية، نصف جسمه العلوي عارٍ خشن الأضلاع وشعره جَعْد مربوط بعصابة رفيعة من القماش الأبيض، ويلفّ على حقويه إزاراً معقوداً

بحزام قماش أحمر، لا يصل إلى ركبتيه العاريتين. وهو يرفع إليها عينين عابدتين. وبجانبه قِصاع الألوان الصغيرة وفُرَش التلوين، والقادوم والإزميل والمساطر والإبر الطويلة وسائر عدّة مهنته.

زرقة الحلم الداكنة هي لون العالم.

وعلى ظهر الورقة البيضاء الأملس مكتوب بخط كبير: إهداء من جابر بسيوني إلى ميخائيل قلدس ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨، في داخل إطار مستطيل له ثلاثة خطوط بالمسطرة والقلم الرصاص الذي بهت الآن.

كان أمام بيت عبده، في محرم بك، فيللا قديمة من الحجر، مربعة، مسطحة الجدران، ووراءها حديقة لا يرى منها، خلف البناء المتين، إلا أعالي النخل وشجر المنجة والتوت الداكنة. ولم يكن يعرف عن أصحاب هذا البيت إلا أنهم أغنياء، مترفّعون، لا يختلطون بالجيران بل لا يكلمونهم، وأنهم أم عجوز لم يرها قط، وولد في مثل سِنه كان يخرج إلى البلكونة، في مقابل بلكونة بيتهم، كثيراً، وكان يذهب للمدرسة في سيارة فورد سوداء عالية ومربعة، وأخته الأكبر منه بعدة سنوات، جميلة جداً. ولم يعرف أسماءهم ولاجرؤ أن يسأل، وكان يعرف أنهم من أصل تركي.

كان يقف في البلكونة المطلة على الفيللا، أعلى منها قليلاً، ساعات. لا يفعل شيئاً، ينتظر فقط أن تخرج إلى الشرفة المقابلة.

وكانت لا تخرج إلا لحظة واحدة، ثم تدخل على الفور.

كانت بيضاوية الوجه، ناصعة، شعرها الفاتح ينسدل على كتفيها وتلمه وراء عنقها بربطة زرقاء رقيقة، ودائماً تخرج في «روب دي شامبر» حريري، أزرق سماوي عليه رسوم ورد أحمر وأصفر كبير،

ملفوف على جسمها اللدن، سابغ يؤكد انسياب ساقيهـا الطويلتـين، وكان لحذائها الصغير ذي الكعب العالي قليلاً وقع على بلاط شرفتها، يسمعه في الشارع الساكت.

يحبها جداً، ويحلم بها أحلاماً مبهمة غير متحددة، ولم يفكر قط في أن يعرفها أو تعرفه أو تنعقد بينهما علاقة من أي نوع. فقط ينتظرهـا، وينظر إليها، وترفع إليه عينيها أحياناً، ويحبها جداً.

الحلم لم ينطق. اسودت شفتاه.

نعمتي بئر عينيها عميقة تومض بلمعة سوادها، وكان الصراع بـين جسدينا لا ينتهي، ومعركة الحنان بيننا لا شفاء لها. جسمها كالعجين الأبيض المتماسك، والسـواد الشفاف يـبرق نسيجه المُهفْهَف كـالموج، بالليل، على رمالها الدمثـة، وهي تنفتح عن ربـوة فينوس المتحـدرة، شِقّها الطري ملتئم بنعومة وشوق، وشفتاي منطبقتان على ثمرة البلح الصغـيرة الداكنـة، أستطعم سُـلافتها المسكِـرة، وأنين المتعـة كـأنـين الموت، لم أجد في الجسم الإجابة التي أنشدها ولـوعتي إليها لاعجـة، أبداً. الطائر الأبيض الرؤوم يطبق عليَّ بجناحيه الأسودين الوثـيرين، يـرفرفـان، حنانـه قاتـل ولا غنى لي عنه، واختنـاقي في الريش اللين كـأنني أريده وآوي إليـه. الغـراب الحـدأة الأنثى الخصيبـة المعـطاء، بَذَلَتْ لي جسم عمرها، وعرفت في صدرها الطيِّب قوة الحب والمقدرة على البقاء. فأين مهبّ الهواء الفسيح في الأفق الواسـع المفتوح؟ وأين عصف الرعد بموسيقى الحرية والفرح، وميـاه المطر الهـامرة، مـدراراً مُبْرِئة؟ عدت إلى حضن طائـري بعد أن أحـرقني عقيق برق العِشق، بعـد أن اشتعلتُ في نار العليقـة القائمـة أبداً لا يبقى منهـا إلا جذع

أسود الجهال، متفحم وصلب ومستضيء، لا يسقط ولا ينكسر.

كان أبوه أيامها قد ترك عمله عند الشيخ المراغي تاجر البيض والبصل والمسلى في شارع انسطاسي بسبب قضية ما ظلت غامضة عليه حتى الآن، وكان بالكاد يعمل حسابات التجار الآخرين باليومية، أو بالمقاولة، يشتغل يوماً أو يومين، أو أسبوعاً أو أسبوعين ثم لا يجد شغلاً بالأسابيع، ولكنه ينزل كل يوم على الصبح، في ميعاده، بعد أن يشرب قهوته التي يصنعها بنفسه على «السبرتاية» ولا يعود إلا على المساء. جفّ وجهه ونحل وغارت عيناه الثاقبتان المليئتان بالذكاء واليقظة، ولم يعد يشرب خمسينية «الكونياك» على العشاء إلا في النادر، ولكنه ظل أنيق الملبس، أمي تنظف له «البالطو» بالفرشة صباح كل يوم، والجلابية المفتوحة الحرير «السكروته» مكوية دائماً، تهفهف، شقها مطويّ على الشق الآخر بحزام مضفور دقيق، والطربوش حادّ الدوران، جافّ الحافة من غير أثر للعرق ليس عليه ذرة غبار.

وقرأ في اللطائف المصورة أن حضرة صاحب السعادة مراد سيد أحمد باشا عيّن وزيراً مفوضاً لمصر بألمانيا بعد أن كان يشغل هذا النصب في بلجيكا خلفاً لسعادة سيزوستريس سيداروس باشا وترك أثراً جليلاً في التمثيل الخارجي، وتأمل قليلاً في صورته، بالطربوش القصير والنظارة المدورة اللامعة والشارب المشذب، والياقة «البمباغ» والمعطف «الاسموكنج»، ممتلئاً باعتدال وكبرياء.

عاد أبوه مرهقاً، هالكاً من البحث والفشل، وسمع أمه وهي قاعدة على الأرض في الفَسحَة تقول باللهجة الصعيدية التي تعلمتها منه رغماً عنها: يا حِزْني يا حِزْني... يا ميلة بختك يا سوسن..

ودخل أبوه غرفة النوم وأغلق بابها على نفسه وسمعه يصلي وارتفع صوته من وراء الباب بنشيج مكتوم ودعاءٍ لله، محروقِ القلب، فثارت نفسه عندئذ على أبيه وأمه معاً، واعتمل قلبه بالسخط الغامض عليهما معاً، والغضب، وهرب إلى الغرفة التي فيها مائدته الرخامية أمام «الكنبة»، فتح كتاباً لم يقرأ فيه، وعندما نادته أمه على العشاء مع أخواته قال لها إن نفسه مسدودة فقالت إنها ستترك عشاءه على ترابيزة الوسط في الفسحة وقال له أبوه ربنا يرضى عليك يا وَلَدي وينجّحك ويفرّح قلبي بيك.

قال: وقامت الحرب بعد ذلك، وانصلحت الأمور قليلاً وانتظمت، ودخلتُ الجامعة لأدرس الهندسة لأن أبي كان يريد أن يراني مهندساً وبَنَّاء عظيماً ولكنه مات في ثاني سنة لي في الجامعة ولم يفرح قلبه بي.

وقال: مثل ناس كثيرين، جداً. وليس مِثل أحد.

استيقظ من النوم متأخراً، فوجد أن أخته التي كانت تنام على نفس سريره قد قامت قبله، ووجد أن صباح الجمعة يمتد حائراً وخاوياً أمامه. نزع ملاءة السرير المغضنة من عليه ولمّ جلابيته حوله، وعندما فتح الشباك دخل الذباب إلى الغرفة، وكان كثيراً وعنيداً وراح يدور ويئزّ. فذهب إلى المطبخ الكبير الخالي، وكان معتماً ونظيفاً، وإبريق الشاي يغلي على الوابور، وفطوره جاهز، تسقية الخبز الناشف المكسر والمكوم في صحن غويط، وكوز اللبن المغلي بجانبه. وسمع أخته عايدة وأخته الصغيرة هناء تلعبان في البلكونة وتثرثران بذلك الذي تثرثر به البنات في سنهن، أيا كان، لا يسمع إلا أصواتاً طفلية

مستغرقة في اهتمامها بنفسها، تماماً. وصبّ لنفسه اللبن على التسقيّة، وجلس يأكل بملعقته الفضية الخاصة به منذ كان صغيراً جداً، وكان يصنع في ذهنه شعراً حزيناً ويردد لنفسه: «حالت من الروض ورُودُه، وماء الحسن قد جفّ عودُه.. وذوى النبْت يا طول ما ماست قدوده» ثم قام ليغسل وجهه.

قال لأمه: عايز مصروفي النهارده. نص فرنك. كفاية بقى. أنا ماخدتش حاجة بقى لي أسبوع بحاله.

فنظرت إليه بصمت، وقالت: حاضر.

قال ملحاً: دلوقتي: أنا نازل بعد الضهر.

فقالت مرة أخرى: حاضر، ورآها تذهب إلى دولاب الملابس، واشتغلت بما فيه مدة طويلة ترفع الأشياء التي فيه وتقلبها وتحطها، وعادت إليه تحمل شيئاً ملفوفاً في ورقة جرنال. أعطته له فأحسه لينا وطريّ الطيّات في يده من وراء الورق الخشن الذي له حفيف.

قالت له أن يذهب إلى محل الرهوناتي الذي في آخر شراع محرم بك، على اليمين، بعد شارع عِرْفان، سيجد يافطة باسمه، اسمه يواقيم اسكندر. قال لها: آخد كام؟ قالت: إللّي يديهولك. وحولت عنه وجهها.

نزل السلالم بالجلابية، لم يغيرها، يحمل اللفّة المطوية، بعناية، ورفع رأسه إلى البلكونة المقابلة ودق قلبه لأنها كانت خالية، وخرج من الشارع الترابيّ العريض إلى شارع محرم بك وهو يسير بسرعة، والترام يهتز في صباح الجمعة الموحش، وعربات الحنطور تجري بجانبه تحت الأشجار. ومر من على المقاهي، خجلاً ومضطرباً يتخيل أن كل

الناس تعرف، وعبر أمام محل عينو في تقاطع الاسكندراني ومحرم بك، وسار تحت الأسوار الحديدية للبيوت القديمة كأنها سرايات، بأبراجها الحجرية الكثيفة الشجر، حتى وجد الدكان، عليه اليافطة، وبابه من الصاج المضلع، مرتفعاً في اسطوانة كبيرة ملفوفة إلى أعلى. وكان واسعاً ومعتماً، والبلاط الرمادي رطب تحت حذائه القماش. وكانت المنصة الرخامية سوداء وعالية، يقوم في منتصفها حاجز من النحاس من الحائط للحائط، له قضبان رفيعة لامعة صفراء، متجاورة، في وسطها فتحة مدورة صغيرة، ومد الرجل يده، من الفتحة، بصمت.

رأى وجهه الغليظ تحت طربوش قصير داكن الحافة ضيّق على جبهته الناتئة، وأنفه حادّ، أقنى، عيناه صغيرتان قال لنفسه إن فيهما نوعاً من الفهم والحزن وقال لنفسه لا ليس فيهما شيء.

انفكت ورقة الجرنال وسقطت، وأحس في يديه النسيج الصوف القديم بلونه البنفسجي الفاتح عارياً وساخناً من طول إمساكه به، فتَل الصوف واضحة، متقاطعة، كثيفة، وشم نفْثةً خفيفة من رائحة العرق وهَبْوةً لا تكاد تُحس من العطر الذي يعرفه. تناول الرجل الفستان من يديه، وفرده وراء الحاجز النحاسي وهزّه أمامه، ورأى الكمّين الطويلين الضيقين، يهتزان بين اليدين الغريبتين، وانسدال النسيج من تحت الحزام العريض وفتحة الرقبة المشغولة بكلفة من القماش نفسه خالية، وقال الرجل بصوت طريّ، من غير اهتمام، وحاسم: ثمانية صاغ. وأحس صوته يخرج مخنوقاً قليلاً وهو يقول: طيّب. وكتب الرجل على ورقة مشرشرة من منتصفها، ثم مزقها من عند الشرشرة بصوت سمعه مفاجئاً، قاطعاً، في عتمة الدكان

الفسيحة، ورشق نصف الورق بدبوس في رقبة الفستان، وأعطاه النصف الآخر وقال له: شهر، فَكّ الرهنّية بعد شهر ٣٠ يوم. من النهارده.

أعطاه الفلوس، قطعة بخمسة، وقطعة نصف فرنك مدورة صغيرة وقرشين تعريفة مخرومين.

وخرج من الدكان. أعشى عينيه نور الشمس الحارقة، فلم ير في الشارع شيئاً.

تغدّوا يومها متأخرين جداً، نزلت أمه بالملاءة السوداء، وعادت ومعها لفة طرية الشكل في قطعة قماش سوداء مربوطة، عندما فكّتها على رخامة المطبخ اصطدمت بها، بصوت مبلل، أرجل الفراخ بأصابعها المفرودة وجلدها الخشن المجعد على العظام المحزوزة بالسكين، أطرافها داكنة اللون، ورؤوسها المفتوحة العيون، ملتصقة بالرقاب، مقطوعة، بعضها فوق بعض، على الرخامة البيضاء المنقورة بحبيبات دقيقة. أكلوا فتة عيش بالخل والثوم، وشوربة فراخ.

وبعد الغداء أعطته أمه القطعة الفضية المدورة الصغيرة التي كان قد جاء بها من دكان الرهوناتي.

جاء جابر بعد الظهر، وخرج يتمشى معه حتى شارع المحمودية المظلل بالشجر الكثيف، والمراكب البطيئة تنزلق على الماء الضيق الرصاصي، وحكى له جابر عن شبين الكوم، وعن ابن اخته فلفل وعن جارته امرأة البقال التي لم تخلف له، وكيف نام معها في ظهر يوم حار ونعم بذلك كثيراً، وندم على ذلك كثيراً، وصام كفارة سبعة أيام

لا يأكل إلا بعد صلاة المغرب، فتذكر صلاته هو المُحرقة، لإلَهِه، وندمَه ودموعَه، هو، على لذّاته السّرية، كل مرة، وغَرَقه، بلهفةٍ ومتعةٍ مجلجلة الضجيج وصامتة جداً وساطعة، كل مرة، في موجة جسده الملتطمة. ولم يحكِ لصديقه شيئاً.

وذهب مع جابر إلى «كازينو غيط العنب» أمام الكوبري. وطلب جابر اثنين شاي، ولذعَ السائل الساخن المسكّر الثقيل اللون والطعم لسانه وكاد يشرق به وأحس الدم يكاد يتفجر من عينيه. وكانت القهوة محاطة بحيطان من الزجاج والحديد، ومشتعلة بالنور من المصابيح الكهربية القوية، وغاصّة بالعربجية وعمال الزرائب والصعايدة يقرقرون في النراجيل التي يغرغر الماء في بطونها المدورة، ويشفطون الشاي بصوتٍ استمتاع عال، ويثرثرون بلهجتهم التي يحبها لأنها لهجة أبيه، وأصرّ على أن يدفع ثمن الطلبات، جاء الجرسون بجلابيته التي في مقدمتها جيب كبير مبلول، فأعطاه كل ما معه، القطعة بقرشين، وكان قد حرص على أن يتلمسها وهي صغيرة، روّاغة، في جيبه طول القعدة، ليتأكد أنها هناك، وأمام إصراره لم يمانع جابر كثيراً، ولكنه عندما رد للجرسون القرش تعريفه الباقي، على سبيل البقشيش، قال جابر، همساً، إن هذا كثير، اثنين ثلاثة مليم كان كفاية.

ويقول لنفسه: أين أنت الآن يا جابر؟ هل تعيش في اسكندرية، ما زلت، ولك أولاد ـ كبار، وأحفاد، ربما؟ هل متّ، وانقضيت؟ وما أغرب هذا كله، وكيف لم يرك هذا الصبي، بعد، طوال خمسين عاماً أو تقل قليلاً؟ وأين ذهب كل هؤلاء الصغار والكبار؟

ويقـول: ما معنى هـذا التوجّـع الصعب، وضعف النفس، ولذع الحنين القديم؟ وما قيمته؟ أليس هذا كله معروفاً ومأثوراً، قرب نهاية الأمـر؟ فما عكـوفك، المثير للسخريـة قليلاً، عـلى مـا بـاد وانـدثـر؟ حذار.. خلِّ بالك.

في آخر ذلك الصيف رُصَّتْ الكراسي الخيزران صفوفاً في الحـوش الضيق المترب، بين حيطان البيوت المـطبقة عليـه. وتُرِكت مسـاحة، تحت الحائط، فيها كراسي فارغـة، مواجهـة. كانت «الكلوبـات» تئزّ بنور حجرى أبيض، والمصابيح الكهربية كرات صغيرة لامعة بالضـوء الأصفر معلقة يهتزّ بها الهواء في حبال عرضية، مرتخية، بين حائطين.

الصبيّ يجلس، بجـلابيته البيضـاء النظيفـة وحذاء «بـاتا» القـماش الـذي اغبّر من الـتراب، على كـرسيّ غير مـريح في أول صفّ، عـلى الآخر، جنب نافذةٍ مغلقة الشيش يتخـايل من ورائهـا نور الحجـرة، وإلى يمينه سيدة بدينة فـاض جسمها من عـلى الكرسي والتصق بـه، في فستـانها «السـاتـان» الأخضر تحت مـلاءتهـا التي سقـطت عـلى ظهـر الكرسي وراءها، وعلى حِجرها طفل نائم بعمق في ضجيج النـداءات والهتـافات وصراخ أطفـالٍ يجرون بـين الكـراسي يثـيرون الـتراب أو يتشبّثون بفساتين أمهاتهم. كـان أعضاء التخت يجـربون مـوسيقاهم، أصـوات العود التي تـرن في جوف الخشب والكمنجـة التي تئنّ فجـأة بنغمات خادشة رفيعة، والعجوز الذي يلبس طربوشـاً ينزّ العـرق على حافته يحضن عوده ويتمطّق بشيءٍ بين فكيه المطبقين، وبجانبه الـطبّال الجسيم وجهه مدور وأسمـر ومنقور بحفـر جدريّ قـديم، في جلبابـه الأبيض ذي الياقة الجافة المفتوحة على لغد مترجرج، ينـظر إلى الناس بعينـين نصف مغلقتين من الـدهن حولهـا، بجانبـه الرقّـاق الطويـل

النحيل في بالـطو وجلابيـة، يداه عصبيتـان وأصابعـه طويلة جـداً لها أظافر مدبّبة ولامعة، يمسك بالرق ذي الصاجات التي تصلصـل قليلاً في يده، أما «الكمنجـاتي»، في بذلتـه السوداء التي تبـدو رماديـة تحت نور الكلوب وياقته «البمباغ» التي تدور حول رقبته بصلابة تتدلى منها عقدة «بابيون» سوداء ضافية القماش على صـدر قميص أبيض منشّى، فقد أسند رأسه إلى يده، وتـرك «الكمنجة» عـلى حجره، وبـدا كأنـه نائم.

ثم حدث لغط وحركة، وانفتح الباب الخشبي المطل على الحوش، وخرج منه أولاً صبيّ العالمة، قصيراً ورفيعاً في جلابية حريريـة بيضاء تشفّ عن «فانلة» رفيعة الحمالات، تظهر من ورائها ساقاه النحيلتان، وكان انفه أقنى ومدبباً، وحاجباه مقوسان بعنـاية، وهـو يقول بصـوت مشروخ وسَّـعْ يا جـدع وسّعي يا أمي خـلّ بـالـك يـا ولـد، ووراءه الراقصة تكاد تحتكّ بالحائط في الممر الضيقّ بين البيت وبـين الكراسي المصفوفة المتزاحمة الغاصة بالناس، حتى جاءت إلى أول صف، ومرت من أمـامه قـريبة جـداً إليه، شمّ منهـا رائحة عـطر الياسمـين النفّـاذ والبودرة ونفح الجسم النسـائي الخاص. وكـانت عاريـة إلا من بدلـة الرقص اللامعة الصفراء تلفّ على الثديـين المحبوكـين والبطن المـدور بترتر فضيّ صغـير سريع الاهـتزاز، في حركتهـا، ولحم الثديـين مكور مضغوط نصفه ظـاهر ومسكـوب من النسيج المـزدحم بحشوه اللين؛ نـوع من موسيقى الـرشاقـة المنسابـة، كانسـلال القطط الممتلئة، في حركة ساقيها القصيرتين نوعاً ما، والبطن المقبب المحبـوس في القماش تحت السرة التي وقع النور عـلى غورهـا المدور القـريب وعلى الـردفين المسـوكين بقَمـطة سوداء عـريضة ذات شراشيب، يهبط منهـا، حتى

الأرض، قماش أسود شفاف بخروم دقيقة مفتوح نصفين، علق التراب بأطرافه السفلى، وفيه مزقة طويلة مرتوقة بخيط أسود ضيق الغُرَز، شعرها خشن وقصير صلب الشكل، وعلى وجهها الأبيض المربع العظام المفروش بالبودرة، لامبالاة، وتحدي البذاءة، وفي عينيها المكحولتين بثقل والجاحظتين قليلاً، نظرةُ بلادةٍ ووخامة أرضية، ورأى على ذقنها المنحدر للوراء نقطة وشم زرقاء. وعلى الفور انتبه التخت ونشط، وناح العود نواحاً ضعيفاً والكمنجة تصاحبه بينما دقات الطبل تحت اليد المكتنزة الأصابع تتتابع وتتسارع. وقف الرقاق بجسمه الضاوي المشدود يهزّ الصاجات وراء الراقصة، فانخرطت مباشرة في هزّ جسمها ببطء وكسل يميناً ويساراً، ورفعت ذراعيها المدملجتين، عليهما أساور فضية ثقيلة، عن الإبطين بطّياتهما الصغيرة الداكنة اللون قليلاً مكان الشعر المنزوع، وأخذت تتحرك على إيقاع التخت في المساحة المتربة الضيقة أمام الكراسي، حذاؤها الذهبي الناصل اللون يضغط بسيوره الرفيعة على لحم قدمها وأصابعها الغليظة. اقتربت منه جداً، ثدياها يترجرحان في ضيق البدلة، وبطنها العاري يهتزّ، فوقه السرة الدقيقة المعجونة بليونة، وتحته القبة الصغيرة كاملة التدوير فيها شقّ واضح غائر بين الخدّين الصغيرين تحت النسيج الأصفر الملتصق، محدَّداً بأقراص الترتر السريعة التموج، ورأى أن أطراف النسيج ناصلة ومفكوكة الخيوط ومُشَعَّثة قليلاً. ابتعدت فجأة، واستدارت إليه بظهرها وردفاها يتراوحان في كتلة واحدة كبيرة. ، وأحسّ بين ساقيه بالتوترّ الصلب يفضحه نتوء الجلابية، وتضرّج وجهه بالدم. كانت البودرة قد ساحت قليلاً على ظهرها، والصبيّ قد تسمّرت عيناه بالجسم الجميل العاري الذي

يلف ويدور وينحني ويقوم ويرتعد وينفجر ويهدأ ويميل ويتحرك بلدونة وآلية معاً، على ضبط التخت وأنينه، كأنه مشدود إلى الموسيقى الخشنة بخيوط غير مرئيّة، وكأنه في الوقت نفسه شيء منفصل، يقوم بعمل مرسوم، مخطّط، لا صلة له به. حتى انقطع التخت فجأة، وصمت.

عاد اللغط، والنداءات، وصراخ النساء على أولادهن، وعادت الراقصة إلى البيت من الباب الخشبي المفتوح على الحوش. ثم انفتحت النافذة المجاورة له تماماً، فتحة صغيرة مواربة، ورأى، من الشق الطولي، صبيّ العالمة النحيل القصير، خصل شعره الأسود ليّنة على وجهه الأسمر الطويل، وهو ينحني يفتح حقيبة من الخشب. تناول من بين الأشياء الكثيرة فيها علبة مدورة كبيرة عليها رسمُ ورد ملون، وحَفَن منها حفنة بودرة، وراح يمسح على ظهر الراقصة، وبطنها وفخذيها، وذراعيها، وأعلى صدرها، بنظام وترتيب، يجفّف العرق بالبودرة، بيدين مدرّبتين حاذقتين، في حركة بطيئة فيها ملاطفة ناعمة نسائية الإيحاء، ورأى أنه هو أيضاً متوتّر وهناك نتوء مرئيّ تحت جلابيته الحريرية الشفافة المنسدلة عليه تهتزّ وهو يعمل، وسمع الراقصة تضحك فجأة بخفوت وكأنما بمتعة وملل في الوقت نفسه وهي تقول: خلصيني بقى يا أختي، وَرَانا شغل تاني. وفوجىء بهذا النداء. وقام بسرعة قبل أن تعود الراقصة للحوش، ولفّ من وراء البيت. وقف في الشارع، في هواء الليل، أصوات الفرح المختلطة غامضة الآن، تحت سماء داكنة الزرقة حريرية الملمس، مثقوبة بنقط فضية لامعة، حتى جف وجهه الغارق في العرق قبل أن يصعد السلالم إلى بيتهم، ووجد صحن الفول على ترابيزة الوسط في

الفسحة، وأكله بشهية وجوع وغضب.

في الليل، في ضوء المصباح الكهربي القويّ، كان وحده، على الكنبة الاسطمبولي، وحده يقرأ رواية السهم الأسود على مائدته الرخامية البيضاوية المفروشة بكتبه وقواميسه، وإلى جانبه دولاب الملابس العالي، خشبه البُنيّ لامع ومصقول، وعلى كلٍ من ضلفتيه مرآة بلجيكية سميكة بللورية النقاء. ساقان بيضاوان يومضان باللحم الناعم وينضهان على المثلّث المقبب المَمْسود، والنسيج الأسود «الساتان» يلتصق بالاستدارة الصغيرة وينتهي تحت تكوّر الردفين بنمنمة «الدانتيللا»، يتراوح سوادها المشغول بين خرومها الدقيقة مع بياض الجسد المتنزّي المتقلّب الذي يحتضن انبثاق الصلابة الجياشة بالدم والمتعة المحبوسة، حتى تنبجس، من جديد، سورة مياه الطوفان، ويتقوّض الجسم.

جاء من محرم بك، مشياً، إلى محطة الرمل، ترك وراءه أحزان صباح ثقيل السحاب في سماء الاسكندرية الفضّية، المقفلة على نفسها فوق البحر، وعَبَر السلسلة، ووقف عند الشاطبي. ترك الكورنيش، ونزل على سلالم متعرجة منحوتة في الصخر المتآكل الزلِق تحت قدميه، وكانت السلالم تغوص في مياه بحرية هادئة ويهتزّ موجها في دوائر تتسع حتى تصل إلى حافة جدران الصخر فتصطدم به بخفة، رغوتها متقلبة الزبَد. وتحت قدميه العاريتين، بالضبط عند التقاء الماء بالصخر، طحلب مخضر كثّ الوبرة، مُخْضلّ بالبلولة اللزجة؛ إذا انحسرت عنه موجةّ الماء الشفافة، الهفهافة القوام، جفّ الطحلب بسرعة، واصفرّ لونه قليلاً ونشف الماء تماماً. يبيضّ جسد الطحلب شيئاً فشيئاً فاذا هو غضّ وناعم وأملس يلتفّ بلدونة ملتصقاً بحافة

الصخر الدائرية، حتى يرتفع الماء فجأة، ويلطمه برفق، فيبتل من جديد، ويعود أخضر غضِراً كثيف اللحم.

النور يأتي من فتحةٍ علوية واسعة منقورة في السقف الحجري مضطربةِ الحواف، فيغمر هذا الاتساع الداخلي المحصور بين صخور مشقّقة عليها طبقات بارزة قليلاً متلوية الخطوط بلون أكثر صفرة كأنها هشّة ومتماسكة بالكاد. وينفتح، إلى جانبه، في الجدار المحبّب، نفق متحدّر نصفه الأعلى القريب منه جاف، مدور، أرضيته رملية مفروشة بقواقع صغيرة بيضاء كثيرة، ثم يهوي النفق إلى الماء وتلتطم الأمواج فيه ويرتفع سطحها المتراوح المرتطم ويضيق حيّز الفراغ فوق الموج حتى يغوض النفق تماماً في الماء الذي يملؤه، بلونه الأزرق الداكن، حتى العمق المدفون الذاهب إلى تحت في ظلمة القاع.

يعرف أن فتحة النفق التي تدعوه مُغوية، ومُفضية إلى التهلكة، وينزل بثقة على سلالم يعرف أنها ستهبط به في الماء، إلى كهوف أخرى، واحداً بعد واحد، منقورة كلها في قلب صخر البحر الداخلي، تحت الأمواج، عالية وفسيحة يخبّ فيها نسيم رقيق ملحيّ الطعم، منيرة بضوء خاص من غير شمس ولا مصابيح ولا شموع، فيها فتحات على الرمل الأبيض الذي تغمر سطحه، بالكاد، مياه قليلة، مترجرجة.

حتى وصل بعد رحلةٍ لا جهد فيها ماشياً كأنه يسبح في الهواء، إلى أرض رملية فسيحة غارقة في شمس السماء تحيط بها أسوار النحاس المُصمتة العالية، سميكة وساخنة، إنْ دَقَقتَ عليها جاءك صدى أجوف عميق، لا باب فيها؛ دائرية تماماً ولكن شاسعة لا يكاد البصر

أن يحيط بـدائريّتهـا المرميـة على أقصى سعـة الأفق، بإحكـام لا منفذ منه، ولا رغبة له في الخروج منها.

وإلى هذه الساحة الرمليـة الخاويـة سوف يخـرج، بعد أن يغتسـل ويتطهر في البحر الملح.

يخـرج إليها والماء يقطر منـه، يضع رأسـه على فخـذيهـا اللدنتـين العاريتين، وهي جالسة على الرمل، تبتسم، وشعرهـا الفاتـح ينسدل عـلى كتفيها الـرشيقتين، ويغمض عينيـه بـالقـرب من بـطنهـا المـدور المحبـوك، ويرى، من خـلال جفنيه المـطبقـين، دوائـر مشعـة ملونـة بالأحمر الداكن، تتسع وتتسع وتضيع، ويأتي بعدها نور حريري ناعم لا ألوان فيه.

وأعرف أن الظلال السوداء عندئذ، سوف ترفرف عـليّ، وتسقط، من السماء الخاوية.

لمـاذا أنثـر حبـات قلبي على الـرمال، تحت أقـدام العابـرين، مَنْ سوف يلتقطها؟ وماذا سيفعل بها؟

٦ النوارس بيضاء الجناح

سمع الطفل رفرفة أجنحة الملاك.

غرفة نومه كأنها واحدة، متكررة في بيوت متعاقبة، دافئة وليلية ومزدحمة بالسرير العالي ذي الأعمدة الأربعة، داير السرير التُلّ الأبيض المخرَّم، عليه نقوش مشغولة، لسلالٍ مخصوفة متهدلة بالورد المفتوح، يحاصره من فوق، ثابتٌ وساقط في النور. «لمبة الجاز» نمرة خمسة معلقة على الحائط، كأنها قريبة إليه جداً، شُعلتها البيضاء مدببة، لسانها رفيع صاعد يذوب في سنٍ من النار ترتعش وتتجدد من وراء زجاجها الرقيق.

والألم في أذنه كان ثاقباً، ودائماً، لا يخفّ ولكن ينبض، يهزّه بإيقاعٍ متكرر، مستمرّ. والطفل كان قد قبل هذا الألم الذي لم يكن الرجل يقبله، أبداً. ورقبته كانت ضخمة، متورّمة تملأ عليه إحساسه، ملفوفة بربطة بيضاء عليها قماش ملويّ بعضه على بعض، طريّ بشيءٍ لزج وداكن اللون. والنار كانت في وجهه، ورأسه، كأنها قد أصبحت مادة جسمِه نفسها. كان قد سكت الآن يُغفي قليلاً كأنه يحس أنه نائم، ويستيقظ، في الليل، وكأنه نائم، ودقات الوجع

المزّق في جانب وجهه، منتظمة بإصرار لا ينتهي، وهو يرى شعلة النار الدقيقة باردة، وكبيرة.

كانت أمه راكعة تحت سريره، لا يرى في عكس النور إلا ظُلمة رأسها المحنيّ المسنود على حافة السرير، وشعرها القصير المضطرب كتلة واحدة من غير تفاصيل. وكان يسمع من خلال خبطات الألم المسدودة، صوتها الخافت الحار المِلِحّ، تصلّي.

قالت له: كان عندك سنتين، يمكن، تلاتة. وكنت هتروح مني.

وقالت إنها سَبَحت على بحر الليل بطوله، وإنها نذرته للملاك إن وصل للبر.

كان راقداً لا يتحرك الآن، جسمه يتقّد بهدوء، ساكناً بسطوع الألم واللهب المستديم، ولم يكن للخوف معنى، بعد، ولا للحركة. وعندما بهتت شعلة «لمبة الجاز» واصفرّت، آخر الليل، وبطنها الشفاف أصبح داكنَ الزجاج قليلاً، ودخل في الغرفة ما يشبه نور الأشياء عندما لا تعود مظلمة، كانت أمه قد تركت رأسها على حرف السرير، وهي ما زالت راكعة، ولكنها كانت هادئة تماماً، منتظمة الأنفاس، نائمة. كان الليل، في آخره، صامتاً، فسيحاً جداً وصامتاً.

عندئذ سمع رفرفة الأجنحة، واهتزّ داير السرير فوقه، وتموّج، وهبّت في الغرفة المقفلة الكثيفة أنفاسُ ريحٍ باردة منعشة، وكأنها نفحةٌ من بخورٍ خفيف، عَبِقٍ بعذوبةٍ لم يعرفها أبداً من بعد.

ولا يذكر شيئاً آخر.

كُنّا في بيت بسيوني، في شارع الأنهار الذي ينتهي ببيت أم توتو.

وله شرفة واسعة تطلّ، عبر الشارع الترابي النظيف، على جنينة فيها شجر ونخل، وكانت أمي تقوم في آخر الليل وتعجن فطير الملاك في قصعة فخّار واسعة، في هذه الشرفة، وأستيقظُ على طبطبة العجين فأجري حافياً وأقف أراقبها، وفي أول الصبح تأتي أقراص الفطير ساخنة من الفرن، هشّة، مكورة ومنداحة قليلاً، وجهها محموش محروق الصفرة لامع من زيت السيرج وعليه النقوش باللغة القبطية والصليب المُورق الأطراف. وكانت أمي، كل سنة، تضع الأقراص في «كرسي عباس» زجاجيّ كأنه زهرة بلورية ضخمة مفتوحة التويج، ساقها الرشيقة قائمة تومض في الضوء، تحمل السَّعَة الشفافة الرقراقة المُضلَّعة، وترسل منها في أطباق واسعة مسطحة من الصيني الأبيض المنقوش بزهور صغيرة زرقاء إلى الجيران والحبايب، أم محمود، وأم حسن، وأم توتو، وخالي حنا، وخالتي لبيبة. وكان جيرانها من المسلمين يرسلون إليها أطباق العاشوراء في موسمها، وأباريق الخُشاف في رمضان، ونتبادل أطباق الكعك والبسكوت والغُرَيِّبة والقراقيش باللبن، في أعياد القيامة والأضحى والميلاد والفطر، مكسوةً بفُوَط ناصعة البياض، مكوية، أو ملونة بمربعات ذات شراشيب، وتظل أمي تقارن بين فضائل كعك كل جارة وعيوبه، لدونة العجميّة فيه أو صلابة قوامه، ونعومة الغُرَيِّبة أو حُبَيبيّتها، وتُخمّن، بالتذوّق والاستطعام، نوع السمن، بقري أو جاموسي، صعيدي أو فلاحي، المصنوع منه البسكوت.

ومن هذا البيت أخذتني خالتي سارة، من يدي، أول مرة، وذهبت معي إلى روضة الكرمة القبطية الأرثوذكسية في شارع نزيب. وكانت خالتي سارة صغيرة لا تكاد تكبرني إلا بسنوات ولكنها كانت

«الأَلْفَة» في دروس مدارس الأحد التي تقام في الروضة بعد خروج الكنيسة، تنظّف الغرفة الكبيرة وتعدّها وتمسح السبورة وترصّ أصابع الطباشير الملونة بالأحمر والأصفر والأخضر، وترتّب الصور الدينية التي تُوزَّع على الصغار مجاناً، وتجمع كتب الترانيم بعد الدرس.

ويومها كانت الدنيا قد أمطرت طول الليل، وكان الشارع موحلاً، وكان حذائي الأسود الجديد يغوص في الطين، وهي تمسك بيدي، وشرابي الأبيض الناصع انتثرت عليه نقط الماء الطينيّ الأسود وحزنت عليه جداً. ودخلت معها غرفة الناظر، وجلست على كرسيّ عالٍ عليٍّ جداً، وكان على حيطان الغرفة المدهونة بطلاء أصفر لامع صور معلقة للأسد والجمل والزرافة، وخريطة لمصر ملوّنة بالأخضر والأزرق والبنّي المُحْمَرّ، وفي أسفل الصور الورقية المبطنة بالقماش المسدلة بين قضيبين خشبيين عرضيّين، بلونٍ داكن، كتابةٌ عرفت بعد ذلك بكثير أنها بالعربي والإنجليزي وتعلمت أن أقرأ أسماءها.

دخل منصور أفندي الناظر، طويلاً، قائم العود، صارماً وحنون النظرة، وجهه أسمر وفيه نُقَر الجدري القديمة الدقيقة الغائرة. وأحببته على الفور لأنه سلمَّ عليّ باليد، وكلمّني كما يكلّم الرجال، ومعه «مس كاترين»، نحيلة وبيضاء الوجه كالأطفال وشعرها البنّيّ الفاتح ينهمر ناعماً ومصقولاً على كتفيها، وقبّلتني على خدّي، وكانت هي التي علّمتني الأبجدية بالإنجليزي وأن أقول الأرقام واستهجّي كاتْ.. ماتْ.. مانْ.. رانْ.. تحت صور القطة والحصيرة والرجل والولد الذي يجري بلا توقّف.

وعندما رجعت من الروضة، مليئاً بالأخبار والحكايات، كانت أمي قد ذهبت، بالملاءة السوداء، إلى حلْقة السمك في الأنفوشي،

ورجعت بالترام إلى غيط العنب، ومعها شروة سمك، بلطي وقراميط وثعابين، وجنبري. وقبل أن يغلبني النوم دخلت المطبخ، أشرب. وكان مظلماً تماماً في أوّل الليل، وبمجرد أن عبرت باب المطبخ انخطف بصري، وتوقّفت، مسحوراً.

كان الجنبري الكبير شفافاً ومنيراً في الظلمة، طافياً وممدداً في الطشت النحاسي الكبير المملوء بالماء، على الأرض. كل واحدة على حدة، إحداها فوق الأخرى، وجنب إحداها الأخرى، تلمع بنورها، مرسومةً بخطوطٍ فسفورية مضيئة في عتمة الماء، من الرأس حتى الذيل، والخيوط الرفيعة السوداء تُحدّد هيكل العظام الدقيقة، واللحم الأبيض متوهّج تحت القشرة الهشة، يَضُوء بإشعاع ساطع، وذيولها تتحرك أهون حركة، ترسل في الماء الذي يغمرها بالكاد رعشاتٍ صغيرة.

وأحسست بموسيقى الموت البطيء.

هذه الموسيقى كنت أحسها، خفيةً وتسحرني، كأنما تترقرق في زجاج الصورة التي يحيط بها إطار خشبي عريض بلون الجوز، وفيه الرجل برأسه الأصلع المدوَّر ولحيته الشهباء، متّقد العينين، ينحني على الطفل يسوع الذي تشعّ هالة من نورٍ فضيّ اللون حول رأسه الصغير، والرجل قد ألقى على إحدى كتفيه حرملة حمراء فوق القميص الأزرق اليانع الواسع التقويرة على صدره العظْميّ، والطفل يرفع إليه عينين واسعتين مدهوشتين. وعندما كبرت كنت أحبّ أن أنظر إلى هذا الشيخ، كثيراً، وأحسّ حنانه. قلت لأبي: صورة مَنْ؟ قال أبي: كان رجلاً باراً تقّياً. أوحَى إليه الملاك أنه لا يرى الموت قبل أن يرى الرب. سمعان. سمعان الشيخ. وقال لي أبي: أنا تعبت يا

ولـــدي. جـاهـــدت الجهـاد الحسن. فقط تتخـــرج أنت، وتـأخـــذ شهـادتك. حتى أستـطيع أن أقـول وقلبي مرتـاح: «أكملت السعي، وحفظت الإيمان. الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام. لأن عينيّ قد أبصرتا خلاصك».

وفي ليلةٍ بـاردةٍ جـداً من ديسمـبر كنت في غـرفتي أُذاكـــر، وأرسم تصميـاً لا نهاية لـه، بالمسـطرة والمثلث والـبركـار، وكـانت الـواحـدة صبـاحاً. سمعت الشهقـة فقط، في صمت الليـل، شهقـة واحـدة، حـادة، انقـطعت مـرة واحـدة. جـاءت أمي تجـري إليّ: أبـــوك. . أبوك. . إلحق هات دكتور.

لما رجعت من ظلمة الليـل في اسكندريـة كان الهـواء حادّ الـبرد، وكان قد مات. بسلام.

لم أكن قـد أكملت سعيي، ولم أكمله. ولم أعرف ـ حتى الآن ـ مـا الخلاص.

في حـارة الجُلّنـار في راغب بــاشـا، كـــان الـبرد في بيتنــا لاذعـاً للعظْم، ولكنه لم يكن أبداً جافاً ولا قاسيـاً، بل كـان مبلولاً بشكلٍ ما، ورطب الهواء. وكنت أنزل فأشـتري الفحم من عم عبده البقـال، ونضـع قطع الفحم الهشّـة، تلمـع بقـطرات الجـاز القليلة المصبـوبـة عليهـا، على الـتراب في الموقـدة الفخار، وعـلى أصابعنـا آثار سـواده النـاعم، يدخّن الفحم قليـلًا برائحـةٍ نفاذة، ثم تتـطاير ألسنـة النـار الصغيرة ونحن ننفخ عليها، حتى تتّقد حبات الفحم وتسطع ويتحول جسمها الهشّ إلى جمراتٍ متوهجةِ الحمرة فيها خطوط رقيقة أكثر اتّقاداً وحمرتها أكثر التماعاً، وتتكون عليهـا طبقةٌ من رمـاد أبيض كالـدقيق،

وتـظل محتفظة مـع ذلك بشكلِهـا، وتَكَسُّرِ حنايـاها الحـادّة وطبقـاتِهـا المتراوحة الحمـرة، ولا تنهار إلا إذا حـرّكنا المـوقدة، وجـدّدنا الفحم، ووضعنـا عليـه حبـات «أبـو فـروة» بقشرهـا البنيّ الجـافّ المتجعـد، نتخاطفها ساخنة ومحمرة البطن ولها عبّق خفيف فيه نفحـة من حلاوة السكر وطزاجة الفطير في الفرن.

وكـان أبي يجلس عـلى الشلتـة، عـلى الأرض، وأمـامـه الـطبليّـة المنخفضـة، وعلهيا خمسـينيّة «الكـونيـاك»، وشقـائق البيض المسلوق المقشّر وقـد عُصِر عليه الليمـون، ووِرْك الفـرخـة المحمَّـر، وشرائـح الجِبْنة التركي الصفـراء يابسـةً ومشقّقة ونـدية في الـوقت نفسه بـزيتها النـاضح من لحمهـا الداخـلي، وأرغفة الخبـز الصغيرة المقبَّبـة وجههـا المحمـوش الرقيق مغـروسٌ بحبّـة الـبَركـة المنقَّـطة والسمسم السريـع التفتّت. وكان يحكي لنا حكايات، ويضحك قليلاً جداً عندما أغالط أخواتي في عدد أبو فروة وأستـولي لنفسي على واحـدةٍ أكثر، ولا يـأخذ منه شيئاً.

المطر يقرقـع على زجـاج الشبابيـك بإيقـاعٍ مطّرد سريـع، والدفء داخـل الغرفـة يصنع غشـاءً كالضبـاب، رقيقاً عـلى لـوحـة الـزجـاج الخارجية، وأرى أنوار الحَارَة من خلال نداوة الماء المُغَبَّشة على الزجاج كأنها نجوم صغـيرة كثيرة متشععـة، وعندمـا يَنْعَقُّ البرقُ في خـطفاتٍ ساطعة تثب فيها البيوت وسطوحها وسحب السماء في ضوءٍ فضيّ باهر ثم تختفي، تتلوهـا بعد ثـوان قرقعـة الرعـد المليئة الصـدر، يُجلجـل متلاحقَ الارتطام، كالطبل الضخم، كان قلبي يبتهـج جداً، وتصرخ عـايدة أختي صرخـة صغيرة وتجـري هناء إلى حضن أمي، فتضحـك أمي ويُهدىء أبي من رُوعها، وأحسّ مع ذلك لمسـةً من الخوف تحبـك

البهجة أكثرَ إثارة وأكثر توهُّجاً، وإحساساً بالأمن والكِنّ في الغرفة التي دفئت، وطابت، والفحم قد صفا، نارُه رائقة، وبعد اصطفاق صنوج الرعد الهائلة الفسيحة المدى يكون للفحم هسيسٌ خافت، ووشيش مكتوم في اشتعاله الفرِح الهادىء.

وفي الحرب غلا الفحم، وشحّ، وكنت في الثقافة العامة، أتدفأ «بوابور» الجاز، أضعه يفح ويئز أزيزاً متصلاً ملهوفاً، فوقه كوز مليء بالماء، جنب رِجلي، وأنا أذاكر دروسي على مائدتي الرخام المثقلة الآن بالكتب، أو أفتح «كتاب التنين للشعر» طبعة أكسفورد ١٩٣٦، بجلدته الصلبة الزرقاء الداكنة، وأقرأ شيلي بالإنجليزية، يتغنّى بأوزيماندياس ملك الملوك الذي تحت ساقيه الهائلتين المكسورتين تمتد الرمال موحشةً ومُصوّحة ومُسوَّاة إلى بعيد، بينما الغرفة تمتلىء برائحة «الجاز» المحروق الممتزج ببخار الماء ووشيش «الوابور» المستمر، وكان اسم أوزيماندياس يسحرني، وأمجاد الهوى المشبوب الذي نَحَتَه شيلي في وجهه المقوَّض المُلقى على الرمال الساخنة تزلزل قلبي، بينما يسقط المطر يدقُّ خشب البلكونة المقفل دقاتٍ متلاحقة، لا تنقطع، تجعل جسمي المُتوتِّر مشدودَ الجوارح، لا ينطفىء. وكانت شهوات الصبا ومعاشِقُه حادةً ناتئة الشظايا.

وكأنما كان أبي يسير معي، ممسكاً بيدي، وأنا أسير في شارع الفراهدة في أول المساء، وأعمدة النور معلقة بها الكرات المدورة الزرقاء تُريق ضوءها الشاحب، وكنت أفتقده جداً، ومخازن الخشب العريضة مقفلة الأبواب. ظهرت من آخر الشارع جماعة من العساكر الإنجليز، يجري بعضهم وراء بعض، ويصرخون بأصوات ثاقبة، صِبياناً في مثل سنّي، سكرانين من يقينِ الموت القريب، محترقين

بلذعـات الأجسـام المقضيّ عليهـا من الآن، وأهـل البلد القليلون يسيرون بسرعة، على جنب، في حالهم، ويتبع العساكر ولد سَفْرُوت أكرت الشعر، عـلى ساقيـه السوداوْين الممصـوصينّ «شُـورت كاكي» واسـعٌ ومقطوع، وعـلى كتفيه «جـاكتة» بحّـاري زرقاء بـاهتة في نـور الليـل، حـافي القـدمـين، أراه يقتفيهم بحـذر وتـربُّص حتى يهـدأ ضجيجهم قليـلاً، فيقـترب بجسـرأة ويـدخـل معهم عـلى الفـور في مفـاوضات سريعـة منخفضة الصـوت وملحّـة، بـإنجليـزيـة شـوارع اسكندرية في الحرب ويقودهم بثقة وهم ينحرفون معاً في حارة جانبية مظلمة. وأنا أمرّ أمام «البارات» الصغيرة، المتعاقبة في الشارع، تتدلى فوق أبوابها فوانيس محمرّة داكنة على اللافتات المكتوبـة بالإنجليـزية: القط الأسود، كنج جورج، نجمة لندن، الحصان الأبيض، والبـاب ينفتح فجأة عن نورٍ صاخب مدخّن يقطع أسفلت الشـارع وموسيقى حادة ولغط الشرب ودندنة السكاري وطنين الحديث تقـطعه ضحكـة نسوية فاقعة ثم يصمت فجأة بارتداد الباب، ويعود الظلام.

بعد سنة أو أكثر من موت أبي كنت أشتغـل مساعـد «مخزنجي» في مخـزن ٦ للبحـريـة الـبريـطانيـة، في كَفْـر عَشْرى، وأواصـل دراستي الهندسة. أستيقظ من النوم في الخامسة صباحـاً لكي أفتح المخـزن في السادسة، وأعمل حتى الثالثـة بعد الـظهر. وكنت أنقـل المحاضرات من صـديقٍ نوبيّ دمِث الـوجـه ومنخفض الصـوت دائـماً، ذهبتْ بـه أمواج الأيام عن كل شواطِئي، ولم ألتقِ به أبداً بعـد أن تخرجت، وما زال صـوته الهـادىء يطوف بي حتى الآن. وكنت أستـأذن أحيانـاً من مســتر لي، رئيس المخـزن، لكي أخــرج فـأحضر العمــل أو أقــدّم المشروع، فكـان يأذن لي، غـالباً، بـل يأمـر سائقـه اليـونـاني المجنّد

فيوصلني لغاية الكلية في محرم بك، بسيارة چيب مفتوحة من سيارات البحرية البريطانية، وأعود بالترام، وأشتغل ساعتين أو ثلاثاً في دورية بعد الظهر فيحسبها لي «أوڤر تايم» أو لا يحسبها، حسب المزاج، أو أخبار الحرب. وعند وصول البواخر بشحنات جديدة أطبّق ورديتين فأصل بيتنا في راغب باشا قبيل منتصف الليل، ميّتاً من التعب. وإذا وجدت أن عباس قد ترك لي الكشكول أسهر في نَقْل المحاضرة، ومع ذلك أقرأ في السياسة أو في الشعر من مجلات كانت تصل إليّ بالبريد من فرنسا وانجلترا، قبل أن أنام ساعتين، وتوقظني أمي في الخامسة، وأخطف منها خمس دقائق نوم زيادة، ثم ألحق بأول ترام في شارع راغب باشا وأغيّر إلى ترام القباري، وأفتح المخزن في السادسة.

كنا في ١٩٤٤، وكنت في الثامنة عشرة، ومزعزع الإيمان وشديد الوَرَع، غارقاً في جسمي وطُهْرانياً لم أذهب إلى امرأة قط، وأعتبر نفسي «حرّ الفكر» وسوادويّ المزاج، على الطريقة الرومانتيكية.

وكنت في مخزن ٦ مسئولاً عن العمال المصريين، أشغّلهم وأترجم لهم وعنهم وأحسب أجورهم. وفي الأوّل كنت غريباً بينهم، قليلاً، ولكنني عندما أكلت معهم العيش والملح والبطاطس المقلي والجبنة التركي، وتعلمت أن أشخر لهم بالإسكندراني وأن أشتمهم بالأب والأم والمِلّة، حتى الآخِر، وأطلب لهم مكافآت خاصة في الوقت نفسه وأزوّر لهم قليلاً في الأجر الإضافي، ووصلنا إلى اتفاق عام مُضمَر بالتغاضي عن السرقات الهايفة فأقيّدها في الأذون والدفاتر «خسائر» أو «مفقود عند التفريغ» وأن أبلغ فقط، مع الريس نونو، عن السرقات الكبيرة المحترمة؛ عندئذٍ قبلوني واحداً منهم، وكنا يعزّ بعضنا بعضاً جداً. وما زالت أحنّ - بسذاجة - إلى صحبتهم.

ليلتها، بعد أن انصرفتْ الوردية الثانية، في العاشرة تماماً، قال لي مستر لي أن أنتظر، ودخل مكتبه الزجاجي وتكلم بالتليفون، ونـاداني وقال لي إن عندنا ودرية ثالثة طوارىء، وإن باخرة وصلت الآن فجأة بشحنة كبيرة، وإن سيارات النقل العسكرية ستصـل من الميناء في أي وقتٍ الآن. وقال إنه متأسّف جداً لأن سائقه اليوناني قد أخذ السيـارة ليعيد التذاكـر التي كان قـد حجزهـا لحفلة السـاعـة التاسعـة في سينما رويـال، وإنـه سيصرف لي بـدلّ انتقـال لأن عـليَّ أن أذهب إلى بيت الرّيس نونو أكلفه أن يتولّى جمْع العمّال، بما فيهم عمّ علي الوِنْشـان، والأسـطى مُرسي النجـار، من منازلهم ومقـاهيهم، وإننـا سنتشغـل، كلنا، ومعنا مستر ويلز ومستر رينشـو حتى نفرّغ الحمـولة ونـرصّها في المخـزن. وأعطاني عنـوان الريس نـونو: ٣١ حـارة القاضي الفـاضل المتفـرع من شارع الفـراهدة، وقـال إن السـاعـة الآن العاشرة وسبـع دقائق، وإنه ينتظر الرّيس نـونو والعـمّال في تمام السـاعة الثـانية عشرة وقال: «الثانية عشرة، على دَقّة الساعة، من غير معلهش» فقلت لـه، بحدّة: «الثانية عشرة، على دَقّة الساعـة، وليس هناك معلهش، ومن فضلك لا داعي للأفكار الجاهزة ولا لـلانحيازات، لأن أولاد البلد ـ هؤلاء «النِيتفْـز» أو «الوُجْـز» كـما تقـولـون ـ يعـرفـون معنى الـواجب والشرف في العمـل». فابتسم لي بعينيـه فقط من وراء زجاج نـظّارتـه السميكة قَعْر الكوب، وقال «رايْت أو». فقط.

ركبت ترام السبع بنات، ونزلت في محطة كركون اللبان، وخـرّمت عـلى الفـراهـدة مبـاشرة. لماذا افتقـدتُ أبي، فجـأة، وأنـا أسـير في الشارع، بأنواره الزرقاء، وباراته، وبيوته الغامضة؟.

انطلقتْ قريباً مِنيّ عربـة «حنطور» مثقلة بـالعساكـر الأستراليـين،

مكوَّمين فيها ومتدلّين من جانبيها ومعلّقين بمؤخرتها، بقبّعاتهم المدوّرة العريضة وجثثهم الضخمة الشاهقة، عملاقٌ منهم أخذ مكان «العربجي الذي انحشر جنبه فارغ اليدين مُسلماً أمره لله، والعملاق أخذ يفرقع بالكرباج فوق ظهر الحصان فراح يعدو كأنه قد جمح بالعربة المائلة إلى جانبها بخطورة، والأسترالْ يصفّرون صفيراً ثاقباً يائساً ويصرخون باستماتة: هَا.. شيِ.. شيِ.. بأعلى أصواتهم، في صمت الشارع الخالي.

وجدتُ حارة القاضي مباشرةً بعد أنقاض البيت الذي سقط عليه «طوربيد» طلياني، السنة التي فاتت، وتكومت أحجاره القديمة وترابه وخشبه ونَبَتتْ فيها عناقيدُ مُلْتفَّة من النباتاتِ والحشائش شَكْلُها بالليل مهدِّد، وكانت رائحة البحر دافئة.

عندما دخلتُ الحارة الطويلة أحسست بأمانٍ أكثر، كانت مصابيح النور الزرقاء متباعدة وأبواب البيوت مفتوحة ومظلمة كأنها لا تغلق أبداً، ورأيت جماعات صغيرة من العساكر «الأفريكان» السود الضخام، والإنجليز الشُقر الناحلي القامات، وعدداً قليلاً من أهل البلد بالجلاليب والبلاطي الخفيفة أو البنطلونات، معظمهم كبارٌ في السِنّ جداً، يخرجون ويدخلون البيوت بصمتٍ وسِرِّية. ومررت، وأنا أحاول أن أقرأ أرقام البيوت، على بار واحد ضيّق الباب وعليه كلمة واحدة بالإنجليزية «بار» تومض وتنطفىء لمبة كرويةٌ حمراء فوقها، وعلى قمة الحارة التالية عربة الكِبْدة والطحال، عليها صينية مدوّرة فوق «وابور» جاز يفحّ بصوتٍ واضح أبحّ في سكون الليل، ونشيش مرقة الكبدة ورائحتها المقلية تَفْغَمني وتفتح نفسي للأكل.

وصلت البيت رقم ٣١، وخــرج إليّ من الـظلمــة وراء البـاب، فجأة، رجل طوال ومخروط الوجه وشمعيّ اللون، يعرج قليلاً خفيف السـاقين سـدّ عليَّ البـاب وهو يسـأل بخشونـة: رايح فـين يافنـدي؟ بلهجـةٍ ممطوطـة ومُنذرة. تـرددت لحظة ولكني أجبت طـائعـاً: عـايـز الريس نونو. مش دا نمرة ٣١ برضو؟ فنظر إليّ نظرةً ثـاقبة كـأنه يـزن صـدقي، ومعدني، وأفسـح الطريق بخـطوةٍ جانبيـة مفاجئـة وقـال: اتفضل. الكاتْ التالت فوق. اتفضل أمّال يافندي.

هبّت عـليَّ من بِير السلم رائحـةُ رطوبـةٍ قـديمـة، وكـانت الأنـوار تتخايل على السلالم، فوق.

كـانت أبواب الشقق كلهـا مفتوحـة وسـاطعـة. وكـانت درجـات السلالم الحجريـة البيضاءُ نـاعمةَ الحـواف، انبرتْ من الـرِجْل طـالعة نازلة.

في أول دور، عـلى البـاب الـذي يتّقـد في الفسحـة وراءه مبـاشرة «كلوب غاز» متوهج، وقفتْ بنت، في الثانيـة عشرة؟ أصغر؟ عـارية تقريباً، صدرها لم يكد ينهد، صغيراً وقليل الصلابة. كـانت تستند إلى قائمة الباب من الداخـل، والنور يسقط عـلى شعرهـا الجعد القصـير الخشن اللَفْلَفة، تلبس قميصاً بحمّالات، موجـزاً جداً، أسـود ولامعاً وواسعاً قليلاً يكشف كلّ كتفيها النحيلتـين وظهرهـا وينزل إلى أعـلى وركيها الرفيعتـين المدوّرتـين، ترفـع يدهـا المطليّـة الأظافـر بالمـانيكير الأحمـر، بسيجارة مشتعلة لا تـدخّنها، إلى شفتيهـا الداكنتـين بحمـرة قـانية، وفي يـدها الأخـرى المدلاة إلى فخـذها العـارية عِلْبـة بلايـرز انجليـزي زرقاء فـاتحة، وتخشخش حلقتـان من الأساور الكهـرمانيـة

الصفراء على ذراعها السمراء الضاوية، وعيناها ثقيلتان بالأسود الذي يحددهما، وعظام وجهها تومض، وهي تنظر إليّ.

لمحت في الشقة بنتين أو ثلاثاً من سنّها أو أكبر قليلاً، كأنهنّ أسماك ملونة داخل «أكواريوم» زجاجيّ منير، في درجات متراوحة من العُري، جالساتٍ بصمت وانكسار على «كَنَبة اسطمبولي» طويلة، ناحلات، مسوخٌ صغيرة مُزوَّقة ببذاءة. وسمعت فجأة صوتاً مبحوحاً أجشّ من الحشيش، لم أرَ مَنْ صاحبته، أو صاحبه، من داخل الفَسَحة: اتفضل يا فندي، عندنا حاجة على ذوقك والنبي. وبرُبَع جِني بسّ. اتفضل ياخويا. على عينك يا تاجر. واللي ما يشتري يتفرج. وتمتمتُ بشيءٍ كأنه متشكّر أو ما يشبهها، وكدت أتعثّر بالسلالم، والصوت يُلاحقني بضحكةٍ مبحوحة محمَّلة بإيماءٍ لم أفهمه: يُوه.. هوانته من بتوع فوق يا جَدَع...! ياختي بَلاَ وكْسة..!

في الدور الثاني كانت دكة خشبية موضوعة أمام الباب المفتوح، تكاد تسدّه، شوَّرَ لي الرجل الذي يجلس عليها، بيديه. كان باهظ البدانة، عليه جلابية ممزقة غليظة النسيج و«جاكتة كاكي» فوقها من غير أكمام. خرجتْ من فمه المتدلي أصواتٌ مليئة مُلحّة وأدركت أنه أخرس، كانت في حشرجته دعوة خشنة مباشرة وفيها يأس لا يأتي إلا في أصوات الخُرْس التي تجاهد، بشقّ النفْس، للطلوع. ومدّ إليّ يدين متضخّمتين حيّتينْ، أظافرهما طويلة انحشرت تحتها خطوطُ سوادٍ قديم، وأوشك أن يجذبني إليه بقوةٍ خارقة وهو ما زال يزوم ويحزق ويغصّ بالحمحمة والمجاهدة، رأيت وراء الدكة شلتة عريضة نام عليها ولدٌ صغير السن، طويل الجسم، يلبس جلباباً أبيض شفّافاً يكشف عن قميصٍ بناتي فُسدقي اللون بحمّالات، وقد رفع أمامه

ساقيه العاريتين الملساوين بحيث أخفى عُري ما بينهما، وكان ينظر إلى السقف، وفمه مصبوغ بما يشبه الدم السائل وعيناه مكحولتان بدقة وحاجباه قوسان رفيعان مدوّران، ويبدو كأنه لا ينتظر شيئاً ولا يريد ولا يرفض شيئاً.

وفكرت أننا ربما ما زلنا أول الليل وأن الزبائن لم يصلوا بعد.

كان دمي قد نشف عندما خبطت على باب الريّس نونو، وخرج إليّ، منتفخ العينين قليلاً، بالصديري واللباس الإسكندراني المنفوخ المتراكب الطيّات، ورحَّبَ بي جداً. وكنت أعرف أنه قد طلّق امرأته وأنها تعيش مع أولاده في السيّالة وأنه وحده في هذا البيت الغريب، ولكنه عَزَمَ عليَّ بشاي ثقيل عمله بنفسه وقال لي: ولا يهمَّكْ يافندي، طَبْ وحياة اللي خلَقك، وسِيدي المُرسي أبو العباس، دول كلّهم غلابَة، وأهُو كلّه أكْل عيش بَرْضُو. وضحكنا، ونزل معي حتى باب الشارع. ولم نتكلم.

وكان البيت، ونحن ننزل، مظلماً وهادئاً، والسلالم صامتة تماماً، والأبواب مغلقة.

وفي الثانية عشرة إلا دقائق كان الريّس نونو، وعمّاله الصعايدة والبحارْوة وأولاد البلد وعمّ علي بعمامته البيضاء وجاكتته ومعرفته السحرية بأسرار «الونْش» والأسطى مُرسي وعامل «البوفيه» أيضاً كلهم، بربطةِ المعلّم، من «أبو شنب» العجوز الخشن الصوت الذي يتحرك بصعوبة إلى «حميدو شُورْتِي» الولد السَفْروت الذي في جسمه قوة رَجُلينْ، كلّهم، على باب المَخزن. وكانت السيارات الضخمة، تقف صفاً في الظلام، عاليةً وسوداء ومغطاة بالتاربولين المطّاط

الداكن المشمّع اللمْعة، تكاد تسدّ الحارة أمام المخزن. ودخل العمال من الباب الحديدي الكبير وهم يسلّمون على عسكري الحراسة اليوناني الذي يعرفهم واحداً واحداً. وبدأ الشُغْل فوراً، على الأنوار القوية، وهم يغنُون، والريس نونو يحثّهم ويمدّ يديه في الشغل ويقود الغناء وأنا أهتف بهم وأشتم ضاحكاً وأناديهم بالاسم، وهو يعتلون الصناديق الكبيرة والبالات الهائلة، وأزيز الونْش يصعد بها إلى النافذة المفتوحة الكبيرة في الدور الثاني، وينزل، سلاسِلُه الحديدية تصلصِل وتصطفق، حتى الفجر. وفرشوا حصيرة نظيفة في الحوش، وصلّوا الفجر، وتكوّموا جنب الحائط العالي المُصمَت في الحوش، يشربون الشاي بشفْط مسموع، ويتكلمون بأصواتٍ خافتة، مهدودة.

وقفت بجانب «الونش» على حافة النافذة الكبيرة المفتوحة بعرض الحائط كله، من غير حاجز، خطِرة ومُغوية، وكنت أنظر إليهم، في نور الفجر الغامض الشاحب. وارتعدت من نسمة البحر التي هبّت باردة، مفاجئة، وكنت غائر القلب، وغاضباً.

قبل ذلك بسنتين تقريباً كنت قد أخذت التوجيهية، عِلْمي، بتفوق. وكنت أبحث عن عملٍ في أول الإجازة الصيفية. كان أبي يقطع من لحمه الحيّ ليعطيني مصروفي اليومي المتراوح من نصف الفرنك إلى الشلن، أو البريزة في أيام الشبْرَقة الخاصة جداً. وكنت قد تعلمت المِرواح للسينما، ريو أو بلازا، بل ورويال ـ أحياناً قليلة. فقد كانت تذكرتها بستة صاغ ونصف ـ وكان صاحبي جورج يدفع تذكرته ويستلف مني القرش التعريفة ليشتري ثلاثة سجاير فَرْط، ماركة الفيل، وكنت لا أدخّن ولا أستردّ السلف. واشتريت أيامها، بأربعة قروش صاغ أوّل كتاب انجليزي وكان اسمه «آرييل»، كتبه

«أندريه موروا» عن «شيلي»، وكانت طبعة «البنجوين» خفيفة الورق وغلافها داكن الزرقة. جاء إلى بيتنا في راغب باشا صاحبي جورج الذي كان أبوه ناظر محطة ترام سيدي جابر، خط الرمل، وعنده دكان بقالة صغير في شارع دارا في سيدي جابر أمام بيتهم مباشرة، وقال لي إن له قريباً يشتغل في شركة فرنسية اسمها باتينيول تبني مشروع الميناء في الدخيلة، وإنهم يريدون مُلاحظ عمال، باليومية، وإنه أخذ لي ميعاداً هناك في الثامنة صباحاً يوم الاثنين بعد غد.

صحوت مبكراً جداً، من القلق والتشوف، كأننا في شم النسيم. ونزلت من راغب باشا في السادسة صباحاً وجريت وراء ترام المَكْس ولحقته، وركبت مع العمال وصغار الموظفين الطالعين على رزقهم في أول الصبح الصيفي المنعش البرد، ذاهبين إلى الميناء والفبارك ومخازن القطن والسكة الحديد في القباري والورديان وكوبري التاريخ ورصيف الفحم، والمدابغ التي هجمت عليّ رائحتها النفّاذة وأنا في الترام المتأرجح بعد أن خلا قليلاً من رُكّابه، وقرأت على واجهة المبنى العريض ذي البوابة الحجرية الواسعة كلمة «آباتوار» الفرنسية بحروفٍ بارزة من طراز القرن التاسع عشر. وفي المكس عبرت «الكوبري» الخشبي الرقيق المهتزّ، بفِلَقِه الخشبية المنفرجة قليلاً أرى منها الماء في لسان البحر الضيّق، وركبت «الأوتوبيس» إلى الدخيلة وخرّمت ناحية البحر، على الرمل، حتى وصلت إلى الكشك الخشبي الذي أقامته الشركة، تحت لافتةٍ ضخمة باسمها وعنوانها في فرنسا، في موقع العمل على حافة الصخور، والخلجان الصغيرة بينها يضرب فيها الموج ويُزبِد قليلاً على الحصى والرمل الخشن، برغوته البيضاء المُستَنفَدة.

لم أكن ألبس ساعة في تلك الأيام، وسألت سواق «الأوتوبيس» الذي ذكّرني بخالي ناثان، على نحوٍ ما، فقال «الثامنة إلا ربعاً»، وارتاح قلبي.

كان الكُشك مغلقاً، ومن نافذته الصغيرة المسدودة بشبكةٍ خضراء دقيقة الخروم، ضد الذباب والناموس، رأيت وجهاً مدوّراً متهدّل الخدّيْن، وصدر الرَجُلِ السمين المرتخي في قميص مفتوح حتى بطنه الذي يضغط على مائدةٍ خشبية محمّلة بالمساطر والمثلّثات ولفّات ورق الرسم والأدوات الهندسية، وعندما طرقت الباب الخشبي سمعته يقول بالفرنسية «ادخل» وفهمت أنه المهندس الفرنسي وليس قريب صاحبي، وصبّحت عليه بالفرنسية فردّ باقتضابٍ وشيءٍ من الدهشة وقلت له بفرنسيةٍ جاهدتُ أن تكون صحيحة كنت قد تدرّبت عليها وحدي الليلة الفائتة إنني جئت من أجل الوظيفة، وأكملنا الحديث كلّه بالفرنسية، واضحةً ومحددة وبطيئة النطق وسليمة النحو. قال اقفل الباب من فضلك، بلهجةٍ ممطوطة فأدركت أنني أخطأت وأقفلت الباب بيدين مضطربتين، وعاد ضوء المصباح الكهربي العاري المائتي شمعة يتّقد بصمت في عتمة الكشك الداخلية كأنها قَمَرة مضيئة تغوص في عُمق البحر، وتأمّلني الرجل قليلاً بعينين كعيون السمك ولكنها زرقاء فاتحة جداً وقال لي، بأدب، إنه آسف حقاً ولكن المركز قد شُغِل بالفعل. أكتب لي اسمك وعنوانك على هذه الورقة وسنتصل بك عندما نحتاج إلى خدماتك. ومدّ إليَّ ورقةَ رَسْمٍ عليها تصميمات وخطوط رأسية وأفقية ومساقط ومقاطع وكتابة بحروف مُفردة كبيرة، فانحنيت وأنا واقف وأحسست عينيّ مبللتين بالعرق، وكتبت بقلم الأبنوس الذي تدفّق حِبْره فجأة بعد لحظةٍ

جفـافٍ وجيزة، ولم أكن ألبس نظارة ولم أعـرف أنني كنت أرى العـالم كلّه غائماً ومتميّع الحوافّ إلا بعد ذلك الصيف عنـدما دخلت الكليـة وفي كشْف النـظر دُهش الدكتـور وقـال لي كيف كنت تقـرأ وتكتب؟ وكتب لي على نظّارة. قال لي المهندس الفـرنسيّ بصوتـه الدُهني قليـلاً ورأسـه الأصلع يلمع في النـور، وجسمه العـريان المتراكب الـطوايـا ينضح بعرَقٍ خفيف: نهار طيّب إذن، وقلت له نهار طيّب. ولم يتّصل بي أبداً. خرجتُ إلى بهرة شمسٍ أخذت تحمى قليلاً ولكني أحسست رعـدةً مفاجئـة تنفض جسمي. وكان الهواء بارداً عـلى وجهي، وكـان العـمّال جالسـين تحت سور حجـري منخفض على الشـاطـىء أمام الكشـك، في حلقـات صغـيرة غـير مستبينـة، يتكلمـون بـأصـوات منخفضة ويشربون الشاي، ولاح من بعيد فنـدق «سي جَلْ» حيـطانه بيضاء حائلة اللون ناحية البحـر، وشبابيكـه مُغْلقة بـالخَشَب الأخضر البـاهت، وكان صـاحبي جورج قـد حكى لي كيف أنه يـأخـذ المـرأة الإيطالية التي كـان يرافقهـا إلى هذا الفنـدق، يستأجـران غرفـة باليـوم ويقضيان النهار هناك، وقال إنه مكان هادىء جداً لا يسـأل فيه أحـدٌ عن شيء ويمكن أن يُقتل دون أن يحس أحد. وقال إن هذه المرأة كان زوجها قد اعتقله الإنجليز عندما دخلت إيطاليا الحرب، وإنها عَلَّمتـه من فنـون صُنـع الحب أشيـاء وأشيـاء، ولم أسـألـه، عـلى شـوقي إلى السؤال، وكان حصيفاً فلم يدخل في التفاصيل.

ودخلت الكليـة بنصف مجانيـة ومات أبي فـأخـذت مجـانيـة كـاملة واشتغلت في المخزن ولم يدخل صاحبي جورج الجامعة، وتطوّع مُجَنَّداً في الـطيران الإنجليـزي وبـدأ يتعلم الـطيران، ورأينـاه فِعـلاً في حلّة عسكرية بريطانيـة «كاكي» أنيقـة وعلى كمّـه شريطان بـالأخضر، ثم

رأيناه بعد ذلك من غير اللباس العسكريّ ولم يشرح لنا أبداً لماذا لم يستمر في الجيش البريطاني. ولكن دكان البقالة الصغير في شارع دارا كان محطّا وموئلاً لجماعاتٍ متعاقبة من العساكر الأفريكان والاستراليين والإنجليز، وكان جورج يجيد الحديث معهم، كُلاً على مقتضى الحال، باللهجات الكوكني والأسترالي والأفريكان، كأنه من أبناء كلّ بلدٍ على حدة، وكنت عندما أمرّ عليه أجدهم يقفون في الدكان يأخذون كأساً أو كأسين من برميل «الكونياك» الصغير ذي الصنبور الخشبي الدقيق، خِفية وبسرعة، فلم يكن عنده تصريح بتقديم الخمر، وكانت عربات الجيش الإنجليزي المحملة تقف أمام الدكان في ساعات محسوبة بدقة، بين وَرْديات «البيكيت» الحربيّ، وتُفرغ جانباً محسوباً بدقة في حمولة «البلوبيف» أو «البلاطي» العسكرية وَبَر الجمل التي كانت مطلوبة جداً في السوق، أو علب اللبن المركّز المسكّر، أو البطاطين، تختفي في المَنْور خلف الدكان، على الفور. وكانت له أيضاً شبكة علاقات واسعة مع النسوة اليونانيات والإيطاليات والشاميّات في الإبراهيمية وكامب شيزار ومع العساكر والضباط، في الوقت نفسه، وكانت ساحة «الباتيناج» في «سبورتنج» هي مكان التواعد والتعرف وإنهاء الصفقات. وبعد الحرب اشترى جورج عربيتين «لوري» واشتغل بالنقل وفَتَح الله عليه. وكانت عنده غرفة على البحر، في فندق سيرانادا في ستانلي، صيفاً وشتاء. وكانت الغرفة زجاجيةً كلّها من ثلاث نواح، وداخلةً في قلب الخليج الواسع.

تخرّجت واشتغلت في المتحف اليوناني الروماني بعد فترةِ تعطّلٍ طويلة وانخرطت في الحركة الثورية التي كان يتمخّض بها البلد

ويمور، وطلعت في المظاهرات واشتركت في تنظيم الإضرابات وكـوّنت خـلايـا سريــة، وكتبت بيـانـــاتٍ وتحليـلات ومنشـــورات، ودخلت المعتقـلات، وخـرجت منهـــا، ويئست من العمـل السيــاسي، ومن الحب، ومن الحيـاة، ولم يكن جورج يفهم مـاذا أفعل ولماذا، طـول الوقت، ولم يكن يبالي، ولكنه كان على الأقل لا يسخر مني وينصحني فقط بأن أكون عاقلاً ويتمنّى أن يتـوب ربّنا عَـليّ. وكنا قـريبين جـداً أحدنا من الآخر، ثم تباعدنا، ولا أعـرف، منذ سنـين طويلة، مـاذا حدث له.

وفي ١١ فـبراير ١٩٥١ كنت أتـوجس من حَمْلة البوليس التقليـديـة علينا في ليلة عيد ميلاد المَلِك، وطلبت من جورج أن أبيت في غـرفته في ستانلي فـأعطاني المفتـاح بصمت وقال لي عَـدٍّ عليَّ بُكـره الصبح في المحل، فقط. وكان مـوظف الاستقبال في فنـدق سيرانـادا يعرفني من زمـان فحيّاني بهـزةٍ من رأسه، وكـان الممرّ المفضي إلى الغـرفة خـاويـاً ومعتماً ووقع أقدامي على البلاط الأسود المغسـول له رنـين. ودخلت، وأدرْت زر النور، فَوَجَدْتُ الغرفة، حيّة، وأحاطت بي.

كانت الغرفة ضيقة ودافئة، والسرير صغـير ولكنه نـاعم لينّ رقـدت عليه فوراً من التعب والقلق، وغاص بي، وعلى الأرض سجاد عميق الوَبَـر طوبيّ اللون، وعلى الحائط صُور زيتية لنساء عاريات، راقدات وراكعـات، ولحمهن مُحَمَّر النسيـج وأُملود الحَنْيات، كـأنهن سمكات أنثوية، فارغة العيون تماماً.

كـان البحر مصـطخبـاً اسمـع عجيجـه من وراء الـزجـاج المغبّش بالندى، والأنوار على الكورنيش الطويل أراها من ورائه بُقَعاً صغـيرة لها أسنّة مُشعّعة مهتزّة، ممتدةً واحدة بعـد الأخرى بعيـداً. ولم أستطع

أن أقرأ فأطفأت نور الحجرة الكبيرة ونـور «الأباجـورة» الحمراء جنب السريـر، ودخلت تحت البطانيـة الصوف الكثيفـة الناعمـة وأحسست جفـاف الملاءة النـظيفة البيضـاء تحتي، وكان ضجيـج الأمواج يلتـطم تحت الغرفة، يضرب أحجـار المبنى وأعمدتـه، وأسمع رشّـاته المليئـة تَخْبِط وتنحسر ثم تعـاود ارتطامهـا بصخـور البحـر وحيـطان الفنـدق المتينة، وكنت أحس نفسي وحيداً جـداً، ومغلقاً عـليَّ تمامـاً، في قلب هذا الهدير الرتيب الذي ما عدت أسمعه، في دَوِيِّـه المتصل، وحيـداً وغريقاً أتنفس هواء غَرَقي الـدفِيء المُريـح، ونمت أخيراً وأنـا أفكر في غمـوض الليل الـذي يُدَوِّم بهـدير المـوج المُلِحّ المـتراوح لا يكفّ عن الارتفاع والهبوط من جديد، ولا أفكر في شيء آخر.

وفي الفجر فتحت عينيّ فجأة، وقمت، وفتحت النافذة في الواجهة الـزّجـاجيـة. نشقت الهـواءَ الملح الـرطب المنعش، مِـلْءَ صـــدري، وفكّرت: هل عدَّتْ الليلة على خـير؟ وكان البحـر هادئـاً تمامـاً، وقد انجابت العاصفة، وسطحه ساجٍ ممتدّ، زيتي السكون في النور الوليد الذي يُضفي على العالم صمتاً مائياً كأنه تَرَقُّب، وانتظارٌ للفرَح.

كانت ترتفع من مرآة البحر الرصاصية اللون صخرةٌ ناتئة عريضـة رأيتها مكسوةً بأكملها بـالنوارس، كـأنما حـطّتْ عليها سحـابةٌ كثيفـة مبطّنة بالريش الأبيض، ساكنةً عليها، متشّبثة بها. النوارس متجـاورةٌ متزاحمة، الجسمُ المَطْويُّ يلتصق بالجسمِ المطويّ، وقد أحنت رؤوسَها وأدخلت مناقيرهـا الطويلة في صـدورها، محـدّبة الـظهور، أجنحتهـا مطبقة إلى جانبها، وكانت كلّها تبدو جافّة، مكسورة.

وألـوان البحر قـد أخذت تتخـطط، أمام عيني، بنفسجيّـة وزرقاء

وبيضـاء فضّيـة مشعّـة تحت سحـابٍ أبيض تختفي الشمس وراءه، وتضيئه باحمرارٍ سائلٍ مشاع، وهدوء البحر عميق، صفحته مبسوطة لا تكاد تترجرج، ووشوشة الموج الذي يترقرق، على مهـلٍ، ناعمـة، أسمع صوت الصمت المُطبِق تُطرِّزهُ وتُنمنمهُ، فجأة، زقزقةُ العصـافير التي تتـواثب عـلى الـرمـل الـطريّ، وتنقـر العشبَ اللزج والـوَدَع والصـدَفَ الحيَّ بمناقـيرها الصغـيرة السريعة. ومن بعيـد صدى نـداء يتردّد على الكورنيش: سيّد.. حسّونة.. لا يكاد يُسمَع، وعـلى آخر المدى أرى عاشقَيْن غامضين على الرمال العذراء. في هذا الفجر؟ أيّ هُيام لا يُقاوَم؟ أية رغبة مبهمة وخرساء، مُطْلَقة، تدفعهما يمشيان على هذا الشطّ الموحش المبلول؟

عند التقاء الرمل بالموج خطٌّ الطحلب الأخضر الذي يَبْيَضُّ حينـما ينحسر عنـه المـاء، غضٌّ ويـابس عـلى التـوالي، بـلا تـوقّف. قلت لنفسي: أبديّ، دائم، أمام فنائنا وانتهائنا.

وقلت: أوقـوفٌ، بـلا رحمـة ولا دمـوع، عـلى مـا بـاد من طَلَل، واندثر؟ فماذا يُجدِي؟ وبم يُقَام؟

وقلت: وهل من مُعَوَّلٍ ـ بالعكس ـ إلا على الرُسومِ الدَوَارسِ؟

الشـاطىء طويـل هشّ مشدود، مُلقىً بـين الفراغ والملء، خصرٌ هضيم ضامر مسحوب، قابل للانكسار في أية لحظة، في أية بقعة، لا بؤرة له يتكثّف وراءها ويحميها بنطاقٍ وراء نطاقٍ من الحواجز الواقية، خطٌ متمّـوج يقع عـلى حرفِ هـوّة لا قرار لهـا، متلاطمـة، وخادعـة عندما تهدأ لأنها دائماً مُهددَّة بالعصف وضـاربةٌ بجبـال الماء، سِحـرُها جذاب لا يُقاوَم، وجمالها لا يمكن أبداً الإحاطة به ولا الانتهاء من تملّي

مفاتنه، قوية الأذرع ممدودة إليَّ تدعـوني دعاءً لا أعـرف كيف أصدّه، دعاء في الاستجابة له وقوعُ القضاء الذي لا مردّ منه. على هذه الحافة الهشة القلِقة، بين الحياة والعـدم، وطني الذي لا أعـرف كيف أستقر إليه.

أنظُر إلى البحر وأُفقِه الغامض، أعـرفُ أنه لا شيء وراءه، أبـداً، هذا امتدادٌ لا نهايـةَ له للعبـابِ المجهول، إلى مـالا نهايةَ لـه. وكأنني أرى شاطىء الموت نفسه، سوف أعبره، بلا عودةٍ ولا وصول.

ميـاهٌ كثيرة لا تُغـرِق عشقي، والسيول لا تغمـره. صخرةٌ نـاعمـةُ الحنايا أنتِ في قلب الطُوفان، سفوحها ناعمة غضّة بالزروع اليانعـة، بـالسوسن والبيلسـان، ترابهـا زعفـران، خِصبٌ وحيّ، تـرفُ عليهـا حمامة سوداء جناحـاها مبسـوطان حتـى النهـاية، لا تكفّ رفـرفتُها في قلبي.

٧ السيف البرونزي الأخضر

كأنّ ساحة المنشية عنده ـ هو ساكن غيط العنب ـ ليست من هذا العالم.

لأن العالم كان غيط العنب.

الفراغ الشاسع في ميدان المنشية، ومبانيه الشاهقة بأعمدتها المدورة الرخاميةِ الشكل، ونخيله السلطاني العالي بجذوعه البيضاء الرشيقة الناعمة، تميس صفوفاً على طرفي الحدائق الطويلة، اليانعة دائماً بعشب غضّ وطريّ، والترام يتخطر ويدور حولها، أصفر ونظيفاً ويومض، وعربات الحنطور خيولها الصهباء سنابكها تدق موسيقى مُوقَّعة على الأرض السوداء تلمع بالبلل، وهذا الهدوء، والجمال، والسعة الفسيحة، هذا أسطوريّ مخيف قليلاً، ومُغو جداً.

أما هو فيعيش بين البيوت الصغيرة، من دورين أو ثلاثة بالكثير، مبنية غالباً من الطوب الأحمر القاتم، العاري من غير ملاط، والشوارع بينها ترابية، وأشجارها وجنانيها كثّة وريفية الشكل.

قال: لم أكن أعرف أن البكاء على الأطلال موجع بهذا الشكل.

أطـلال الـطفـولـة والصبــا والشبـاب التي تقــوّضت، ومـا زالت رسومها ماثلة، غير دارسةٍ بعد، وأنقاض القلب الذي دمـرّته أمجادُ معاشِقه ولكن أعمدته قائمة لا تريد أن تنقضّ ولا تريد أن تنقضي.

في يوم أحد الشعانين ذهبوا إلى الكنيسة وحضرَوا القُـدَّاس وعادوا بـالسَّعَف اللَبنيِّ الخُضرة، أبيض تقريبـاً وغضّ الجلْد، مخصـوفـاً عـلى شكل صلبان صغيرة وكبيرة وأكاليل مُشبَّكـة ومدوَّرة متـداخلة ما زال طـلّ الماء المقـدس يبللها. وفي العصر زارهم فـارس أفنـدي، وكـان صديقاً لأبيه، وزوجته الست أم أليس من حبايب أمه. وكـان موظفـاً بـالسكة الحـديد وقصيـراً بدينـاً مكـوَّر الجسم ويلبس نـظارة سميكـة الزجاج وطربوشاً ضيّقاً على جبهته المنحدرة إلى الوراء. كان يسمعهم أحياناً يقولون أن أليس لميخائيل، وكانت البنت البيضاء المـدورة تُنفِّره جداً بضحكتها البلهـاء ونظرتهـا الزيتيّـة.. وجلس فارس أفنـدي مع أبيه على كراسي الصالون الجديـد، كان كـرشه المتضخم المحـزوق في «بنطلونه» المرفوع قليـلاً يستقر عـلى فخذيـه القصيرتـين المدملجتـين، براحة، وكان في كلامه خُنّة خفيفة. دخل الـولد يسلّم عليـه، ألحّت أمه عليه: أدخلْ بقى سلِّم على الراجل أدخـلْ يالله، فسمـع أباه يحكي للضيف حكاية مضطربة متقلبة الأدوار عن النحّاس باشا عنـدما كـان مسافراً مـع الزعـماء إلى مؤتمر في بني سـويف، فحاصر الجنـود المحطة بـأسلحتهم وأوقفت الحكومـة سفـر القـطار كله فلم يـدخـل المحـطة أصلاً، وقضى النحّاس باشا ليلته على رصيف المحطة في بني سويف، ونـام على مقعـد خشبي طويـل من مقاعـد الانتظار. وعندمـا اقتحم النـاس المحطة في الصبـاح، في صفوفٍ مـتراصـة وسط الـرصـاص، ضرب العساكر النحاس باشا بالعصيّ الغليظة وافتداه سينوت حنّا بك

بذراعه فانكسرت، بينما كان الناس يحطمون، بالبُلَط والفؤوس، سلاسل الحديد الممدودة على باب المحطة، وقُتل وجُرح كثير. وكان فارس أفندي غاضباً وقال إن النحاس باشا زعيم الرعاع. ولم يكن الولد يعرف هذه الكلمة ولكنه فهم فوراً أنها شتيمة وأن الناس رعاع، وردّ أبوه بحمية على صديقه وقال إن النحاس خليفة سعد وزعيم الأمة وعدّو الاحتلال الانجليزي وإنه يحمي البلد من جشع هذا الملك الذي ينبح بصوتِ كلب عندما يتكلم. وكان الولد ساكتاً ولم ير أباه يتكلم أبداً من قبل بهذا العنف وهذه الحدّة.

وفي يوم اثنين البَصْخَة، بعد الظُهر، نزل مع أمه ليشتريا حاجات العيد الكبير. ذهبا بعربة حنطور إلى شارع انسطاسي، ووقفت أمه بعيداً، قليلاً، عن باب المحل وذهب هو يجري إلى أبيه فخرج معه من الشغل قبل ميعاده، وقطعوا شارع السبع بنات مشياً حتى المنشية، ولفّوا على المحلات بين كنيسة سانت كاترين والكنيسة اليونانية في المنشية الصغيرة ودخلوا هانو وشركة بيع المصنوعات المصرية. واشترت أمه خمسة أمتار من قماش حريري منقوش ستفصّلها فساتين لأخواته البنات ومترين بوبلين أزرق فاتح مقلّم لتصنع له جلابية جديدة على العيد، وبكرات الخيط الأبيض والملون و«فانلات» وألبسة وشرابات وحذاءً جديداً له من الجلد الأبيض السميك له نعل كثيف، وأحذية ملونة بسيور وزراير لأخواته، واشترت لنفسها قميص نوم فضي اللون «ساتان» لامعاً بحمالات له وَبَرة خفيفة ناعمة ومُوشّى بالدانتللا من تحت ومن فوق، ولم يشتر أبوه لنفسه شيئاً وقال إنه الآن عنده كل شيء مادامـوا قد اشتروا هم لوازمهم وعادوا يحملون اللفف والرُبَط وعلب الجزم الملفوفة

«بالدوبارة». وعلى مقدم المساء ركبوا ترام غيط العنب من أول محطة في ميدان المنشية.

كانت بهجته بملابس العيد الجديد، وتشوّفه إلى فرحة شم النسيم يوم الاثنين القادم، تمتزج بحسه المُمِضّ الغريب بأن أسبوع الآلام قد بدأ وأن المسيح سيُرفَع على الصليب، في العراء، يوم الجمعة الحزينة وعلى رأسه تاج الشوك، ويطلب ماءً فيعُطَى شراباً من النبيذ والخل، وأنه سيموت من أجلنا وإن كان رئيس الملائكة ميخائيل سيدحرج الحجر عن فم القبر المقدّس ليلة سبت النور، وسيقوم المسيح، مجيداً، من بين الأموات.

كان الترام خالياً، تقريباً، والمصابيح الكهربية القوية الشكل تصب نورها الثابت الأبيض على المقاعد الخشبية، مقوسة ومتينة، من أضلاع خشبية مصقولة في لون الكهرمان الفاتح، متلاصقة، وأرضيّة الترام من ألواح خشب عريضة متجاورة، بينها شقوق رفيعة جداً، وتربطها سيور حديدية عريضة لامعة فيها مسامير ممسوحة الرؤوس. وكان الولد يحسّ، في جسمه، وثاقة «الترام»، وطاقَته المنطلقة بقوةٍ كامنة، وهو يدور حول الميدان الفسيح.

الحصان يقوم في وسط الميدان، عالياً وساكناً. رقيق الخصر، صافناً، يرفع ساقه الأمامية مثنية كأنه يهمّ بالانطلاق ولا يتحرك أبداً، والفارس فوقه شامخ ومتمكن، داكن الخضرة، عمامته كبيرة ومتعددة الطبقات، يطير الهواء بثيابه وعباءته الفضفاضة، والسيف البرونزيّ الأخضر مدلّى إلى جانبه، كامنٌ شرُّه وتهديُده، مخبوء، ولكنّه ماثل.

وحول قاعدة التمثال الرخامية الناصعة حديقة صغيرة مدوّرة لها

سياج حديديّ من حلقات واسعة متداخلة، دائريّ، تعلو فوقها مصابيحُ النور، عناقيد خُماسيّة من حبّات كبيرة بيضاء لدنة النور، تصبّ ضوءَها اللبنيّ على الخُضرة اليانعة القصيرة العشب.

كان هواء الليل يدخل إليه من نافذة «الترام» المفتوحة، يهبّ على وجهه الذي يحسّه مندّى بعرق بارد، قلقلة «الترام» تهزّ معدته فتطفو، وتَمُوع، في داخله، ويتجلّد، يتعلّم كيف يصبر على نفسه، كيف يقاوم اضطراب أحشائه، بينما العجلات تصرخ وتئزّ في احتكاكها بالقضبان التي تدور.

أحس بأرضيّة الترام ترتفع إليه، كالموج، ومعدته يقبض عليها تشنّج لا يُقاوم، وتتكون فيها على الفور عُقدة قوية طارِدة، ولم يستطع، أخيراً، أن يحبس نفسه، دفع برأسه من النافذة الزجاجية المفتوحة، وسَفعه الهواء البارد، بينما أحشاؤه تنقذف دفعةً واحدة إلى الخارج، صوت التقلُّص خشن وغريب، وهو ينحني على نفسِه ويتهوّع نفسَه، مرة، ومرتين. ويتطاير الرذاذ الأبيض بعيداً عنه. تلتصق بجدار الترام الخارجي، المندفعِ، قشرةٌ طرية بيضاء تتسع مع حركته إلى الأمام. أحس بيد أبيه تمسك به من ظَهره تُثبّته وتسنده، وأخرجت أمه منديلاً أبيض، فيه نفث عطرِها الخفيف، جافاً ومطرزاً بدنتيللا صغيرة جداً سمنيّة اللون ودقيقة الخروم، فمسحت به أركانَ فمه، وذقنه، وهو يسقط إلى المقعد، في راحة، مفرغَا، خاوي الجوف، قلبه يدق.

وانطلق الترام في الشارع الضيق الهادىء، أبواب المحلات الكبيرة مغلقة ولكن واجهاتها الزجاجية العريضة منيرة على الملابس والأحذية والأقمشة المفروذة، وله جلجلة بهيجة ذات صدى.

أغفى الـولد قليـلاً من الحركـةِ المهتزّة المتـأرجحة، وتعب النهـار، والهواءِ الطلق، وحسِهِ بالفراغ والاطمئنان في معدته، ورأى في غبشـة النـوم والصحو كـأنّ النحاس بـاشا واقف بـالليل عـلى رصيف محـطة مصر، تحت سماء معتمة فسيحة، وكأنّ صدره عارٍ ونحيل وعلى رأسه ما يشبه الـطربوش ولكنـه حادّ الحـافة مُسنَّن بـأسنان سِلْكٍ شـائك، وكـأن عسكريـاً رومانيـا بخوذة ودرع، ينـدفع إليـه في فـراغ المحـطة الخـاوية، وعـلى حقويـه شرائط معدنيـة تلتفّ حول سـاقيـه المتينتـين ويضربه بالحَرْبة الطويلة في جنبه، وكأنّ الحربة تغوص في ذراع رجل أسمر عريض بشارب قويّ في كامل مـلابسه الـرسمية، وكـأنّ صوتـاً قال له: سينـوت حنّا بـك. ولكن الدم ينـز ببطء من يدي النحـاس باشا المبسوطتين المدقوقتين بآثار ندبة غائرة سوداء، وكأن جماهير غفيرة من الناس تهجم وهي تزأر بهتاف يدوّي كـالهديـر، ويصطفق، كـأنه رعد، فانتفض، وأحس أباه يهزّه برفق ويقول: إصحَ يا سيدي. . يا بن ستي. . وصلْنـا خـلاص، ورأى التـرام يصـل إلى نهايـة الخط، أمام الكركون، بالقرب من بيتهم.

وعندما نزلوا من الترام كان يحس ساقيه مفرغتين وليس لهما قوام، فأمسك بيد أبيه بقوة، وهو يصعد سلالم بيتهم المظلمة دائماً، الغامضة بحياة محتشدة وخفية دائماً. وفتحت لهم خالته وديـدة، وكانت بيضـاء الوجه ومنتفخة العينين قليلاً وفيهما حَوَل خفيف، وشعرهـا الجعد بنّي داكن وخشن الملمس، ورشيقـة الجسم هضيمـة، أطـول من كـل أخواتها. وقالت له: ياخْتي. . ! مالـك يا بْني يـا ضنايـا دا وشّك زي اللبن الحليب. . تعالَ معايا. وأخذته إليها، ناحية غرفتها، وأخرجت من صدرها، خِفية، قطعة «تُوفِّ»، أحسّها في فمه دافئة ولدنة.

كانت هذه الغرفة الكبيرة، في آخر البيت، فيها سريران متجاوران بينهما ممر ضيق. وكانت جدته أماليا تنام أحياناً مع بنتيها، وأحياناً في سرير جده، يكتشف ذلك عندما يستيقظ مبكراً جداً ويجري في البيت النائم ويدخل عليهم في هذه الغرفة الخفية بأسرارها، وكان ذلك كله يحيّره جداً ولا يستطيع أن يسأل عنه. وتُحيِّره أيضاً قطع الملابس النسائية المتناثرة على سرير خالتيه وديدة وسارة. قمصان النوم وملابس الخروج والملابس الداخلية الملونة الرقيقة، وكانت تسحره السوتيانات الصغيرة الكؤوس بقماشها الدقيق الخروم أو الشفاف وشرائحها الطويلة الرفيعة التي لا يعرف كيف تتصل وفيم تنعقد وكيف تنفكّ، يفكر في ذلك قليلاً ثم ينسى ويَذكره من جديد عندما يراها مغسولةً ومعلقة على الحبل في سطح البيت، تتقطّر بالماء الخفيف والشمس تنفذ من نسيجها الناعم الملون.

وكانت خالته وديدة متحذلقة وذربة اللسان، والوحيدة بينهم جميعاً التي تستطيع أن تقول «تشيكوسلوفاكيا» أو «طلعت أدبّ نزلت أدبّ لقيت الدبّ يقزقز لبّ» بسرعةٍ خاطفة، دون أن تخطىء. وكانت تحكي لهم حكايات في ليالي الصيف على السطح، يتحلقون حولها: هو وأختاه عايدة وهناء، واسكندرة الجميلة بنت خالةِ أمهِ، ووطواط الفاتح السمرة ابن خالته حنونة وأخته مارية اللامعة السواد، وقد أتى كل واحد بمخدة أو شلتة وجلسوا على الحصيرة في الهواء المنعش. وكانت تسحره تقلبات مصير الشاطر حسن وحِيله لصعود القصر العالي لكي يرى ست الحسن والجمال ولكي يهرب من أمنّا الغولة، ومصير الأميرة بنت الملوك والسلاطين عندما تسخطها العجوز السحّارة إلى بقرة حلوب خصيبة تُذبَح وتُجمع عظامُها في حفرةٍ حتى

يـأتي الأمير ابن ملك البـلاد التي في آخر الأرض عنـد جبـل القمـر، فيضمّ العـظام التي تئن وتتوجـع في حضنه، يُـدْفئها بحبّـه ويغمـرهـا بـدمعه، فيعيـدها عـروساً بـاهرة الحسن والجـمال. وتمضي الحكايـات وتتجسد له شخوصها، في الليـل الهادىء الصـامت، وجسده مغمـور بالقمر، ويقترب أكثر من خـالته وديـدة حتى يحس أمنها، ودفئهـا، ، بجانبه، ويستيقظ فيجد نفسه في سريره، في غرفته، في أوّل الصبح، بجنب أختيه النائمتين، لا يعرف كيف وصل إلى هناك.

ويستيقظ بالليل فجأة على سريره العالي المـزدحم باللحـاف الثقيل، أعمدته الأربعة السوداء تحاصره، والكُرات النحاسية داكنـة الصفرة، عيون جاحظة ومقفلة تنظر إليه مع ذلك، تعرفـه. واللمبة نمـرة خمسة مضيئة على الحائط، بنور مُحْمَرّ شريرٍ متراوح الظلال.

البيت الغـاصّ بالنـاس كأنـه مهجور، وقـد نامـوا جميعـاً وتـركـوه وحده.

أحس في دفء الغرفة، وصمتها الليليّ، أنفاساً غريبة، هواؤها ثقيـل. ورأى عـلى الحـائط ظـلّ شيءٍ مـا، يتحـرك ويتمـوج فـوق الدولاب، ويهتزّ على خشب النافذة المغلقة.

لكنه لم ير مـا هو، أحس فقط حضـوره المهدِّد، يـراوده، يتربصّ به، ويقصده.

أحسّ به يقترب، ما زال لا يراه، ليس لـه جسم، ولكنه هنـاك. لفْحُ أنفـاسـه بـارد، وظلُّه يتكـاثف، ويتجسم من غـير أن يُـرى، ويقترب. يقترب.

كل الرعب الذي في قلبه لم يعد يُطاق.

صرخ صرخةً تمزَّق لها الليلِ، والصمت.

صرخة لم يعد في العالم إلا طَلَب النجدة النهائية فيها، طَلَباً ثاقباً، يجأر، ينادي، ملأ كل فراغ، وخرجَ من كل حصار.

والأقدام تجري إليه، وأخته الصغيرة تبكي في نومها مفزّعة، وهو يضع رأسه في حضن أمه، ويغمض عينيه في صدرها، ولم يكن يبكي بل جسمه كله ينتفض. وفي اللحظة التي غاص فيها في حضن أمه رأى أباه واقفاً على الباب في عكس نور مصباح الفَسَحة الخارجية، لم يرَ وجهه بل قامة طويلة مظلمة ولكن شامخة وحنون في الوقت نفسه.

سمع أمه: أنا عارفة السَرْعَة دي بتجيلك ليه يا ضنايا. .

صرخته نفسها التي ما زال يجأر بها على حافةِ نومِ شيخوخته، مهما حاذر منها ودار حول تهديدها.

وحْشةُ النور الخافت بعد جلجلة الصرخة، خاوية وصامتة. وهو يدخّن سيجارته، مستنداً إلى ظَهر سريره، مستَنْفَداً، وحوله من يحبهم، قد آبوا إلى نومهم. حُنوُّه لهم، وعرفانه، شريانٌ يتموّج في جسم الليل.

القلوبُ ومَثواها، والذي هدهدها وأشجاها، منفيّةً أبداً في أحلامها ومُناها.

نزل من «الترام» في تقاطع شارع النبي دانيال وشارع فؤاد، ومشى بقية المشوار إلى «البطرخانة». كانت بدلته الصوف الجديدة خشنة الوَبَر قليلاً، وحذاؤه الأسود ثقيلاً ولامعاً تحت الشراب الأبيض المسوك «بأسْتِك» عريض على منتصف ساقه. واشترى من بائع

الجـرائد، عـلى رصيف الشارع، مجلة اللطائف المصـورة، ورأى عـلى غلافها صورةً مرسومة تخيلهـا الرسـام ولكنها شـديدة الـواقعية لقـطار تـطايرت عـربـاتُـه وتنـاثـرت، والعسـاكـر الانجليـز ممـدودي الأذرع والسيقان في الهواء، طـوّح الانفجار بخـوذاتهم وبنادقهم، وتحتهـا أنّ الثـوار الفلسطينيـين الشجعان قـد نسفوا قـطاراً حـربيـاً محمـلاً بـالمؤن والذخيرة والعتاد العسكري. وكانت جماعات الناس الفـرحـة تـدخل إلى ساحة البطريركية من الباب الحديديّ الضيّق العالي.

كان القُدّاس طويلاً، يعلو ويهبط، والكنيسة مزدحمة بالناس الذين يحملون الأطفـال الصغـار في لففهم البيضـاء. هـل كـان هـذا أحـد التناصير؟ جوّ العيد، وتراتيل الشمامسة، وصراخ الأطفـال، وصلصلة المثلّث النحـاسيّ، والقسيس يهـزّ المجمـرة يتصاعـد منهـا البخـور، والسيدات والبنات في الجانب الأيمن وفي الشرفة الحجـرية التي تـدور بصحن الكنيسة، رؤوسهن مغطاة، ومـلابسهن ملونة، وهـو يقف ثم يجلس ثم يقف مـع المصلّيـن، وقـد شبـع من النـظر إلى الأيقـونـات الأربـع والعشرين العاليـة المتلاصقـة: التلاميـذ الاثنا عشر مكـرَّرون مـرتّين، ألـوان الأيقونـات في إطاراتهـا الذهبيـة زيتيـة داكنـة الخضرة والحروف القبطية صغيرة رأسية على جـانب كل أيقـونة. ورفـع أبونـا يديه فوق الرؤوس ورشّ بأصابعه الماء المُصـلّى عليه فتنـاثرت قـطراته على المصلين مع ارتفاع التراتيل، وأحس طلَّ المـاء المبارك عـلى وجهه ثم تسلّل من أمام المقاعد الخشبية المزدحمة وخرج إلى الردهة الرخـامية النـظيفة بـين الأعمدة المـدورة، ونزل الـدرجات العـريضة، وكـانت سـاحة الكنيسـة مليئة بـالناس، وبـاعة الصـور المقـدسـة الصغـيرة، والأولاد يجـري بعضهم وراء بعض ويصيحـون ويتنـادون والنـاس

يخرجون ويتحركون مسرعين، متلهّفين. وفجأة تزاحم الناس كتلةً واحدة تحت البيت البطريركي في الممر الرملي الذي يفصله عن جدار الكنيسة العالي المصمَت، واشتد الزحام حوله، والرؤوس كلّها مرفوعة إلى أعلى، والأجسام تتكاثف حوله، والناس يقول بعضهم لبعض في فرح: سيِّدنا. . . سيِّدنا. . وفجأة ارتفعت صيحة تهليل واحدة من الناس جميعاً، الرجال والنساء والأولاد، يهتفون: بارِكْنا يا سيّدنا. . بارِكْنا. . بارِكْنا. حتى ظَهَر الوجه الضاوي النحيل، شفافاً في سمرته الرائقة وكأنه مضيء، بلحيته البيضاء السابغة، وعمامته السوداء المدوّرة، في النافذِة الضيقة. اشتد الصياح والهتاف بلوعة وفرح، وامتدت اليد الرقيقة على الرؤوس فنثرت أشياء معدنية صغيرة براقة سقطت على الناس، قِطَعاً من العملة الفضية الصغيرة والبرونزية اللامعة تنهمر من بين الأصابع الرفيعة الطويلة التي تهتز. كان الوجه مريضاً ومقدّداً ولكنه منير، وجه رجل عجوز، وجهه الأخير. ظهر لمحة خاطفة، وهو يُتمتم، يبارك الناس بشيءٍ لم يعد بعد مسموعاً، في نشوة الصراخ والنداء والتوسل من الساحة التي تَلاصق فيها الناس. ثم انحنى الجميع على الأرض، يلتقطون من الرمل النظيف ومن على الأذرع والأكتاف قِطَع نصف الفرنك والملاليم، كلّها جديدة ومُشعّة، أو يحاولون الإمساك بها في الهواء وهي تهبط كالمطر المتفرّق على الرؤوس.

من بين الأرجل المتدافعة والأجسام المتحركة التقطْتُ نصف فرنك فضيّاً، مدوراً وصغيراً يومض وعليه حبّات رمل خفيفة.

احتفظت به، بَرَكة، سنواتٍ عديدة. لكني لم أعد أجده. أين ذهب؟

كانت عنده قاعدة محبرة خشبية جاءته هـدية من ابن عمتـه بقطر، عندما عاد من القدس ومن يومها كانوا يقولون له المقدس بقطر.

كانت منحوتة على شكل جَمَل صغير، رقيق التفاصيل، من خشب ناعم صُفرته داكنة ولامعة.

والجمـل عنقه أتلع ممـدود للأمـام، ورأسه غـريب، حيّ، كامل التدوير، وعيناه مفتوحتان حالمتان، وله سنام محدّب تنفتح فيـه فجوة مستديرة، وسيقانه الطويلة كأنها تسـير وحدهـا، على أخفافها اللينـة المضغوطة، بخَببٍ هادىء لا يتوقف. كان الجمل قادراً. لم يضع فيـه محبرة أبداً، وظلت النُقرة المدورة الخام فاغرة، محبّبة النسيـج. وكانت قاعدته خشنة الخشب أيضـاً، ومكتوبـاً على جـانبها الأيسر بـالحروف القبطية وعلى جانبها الأيمن بالعربية «أورشليم ١٩٣٢».

كان يضع الجمـل، بعنايـة، في درج خاص من «البـوريه»، آخـر درج من تحت. فيه الأشياء التي تحرص أمه عليها، أمشاط الشعر التي على شكل أقواس مطعَّمـة بالعـاج وحبوبِ الصـدف المتقلبة الضـوء، وثلاث زجاجات عطرٍ مركّز، مغلقة بسدادات زجـاجية محكمـة ولكن عبقهـا نفـاذ، من الصنـدل السـوداني، واليـاسمـين البلدي، والعنـبر اليَمَني، وحارق، ومكحلتها الفضية الصغيرة التي على شكل طاووس ناشر جناحيه وبجانبهـا المِرْود الـلامع في حـافته المستـدقة الـرأس أثرٌ بـاهت من الكحل، وشرائط رفيعـة من القماش الحـرير اللدن الملتف بعضـه على بعض مُنسـاباً كـأنه حيٌّ يتلوى، والـدانتللا الملوّنة الـدقيقة الخـروم، وعلبة معـدنية رقيقـة الجدران فيهـا دبابيس وإبـر الخيـاطـة وبجانبها المقص الضخم بشفرتيه المضموتين شريراً ومنذراً في رقـدته، يتحدّى أن يمسكه، والجَمَل بين هذه الأشياء، كأنه مَلِـك. يعـتز به،

يمسكه، يحيطه بيديه، ويُخرجه من بين هذه الغابة من الأشياء المحملة بشحنات غامضة فيهدأ جَيَشان قلبه عندما يراه في النور والهواء شامخاً ومتكبّراً ووديع النظرة معاً.

ضاع مني بعد ذلك بسنين ولم أجده مهما حاولت ومهما بحثت.

وأحسست جرحاً مكتوماً غائراً لا يندمل، ولعله لم يندمل حتى الآن.

كانت أمي، وخالتي وديدة وستي أماليا يقلن عن عم مقار - زوج خالتي حنونة - بصوتٍ فيه سخرية خفيفة أحياناً، وغيظ: العبد التِّنْتُون.

كان هائل الجسم، وجهه أسمر لامع وطيب، ويعمل في السكة الحديد.

تزوجته خالتي حنونة - وهي صغيرة جداً - عن طريق الكنيسة، فلم يكن له أهل يعرفهم، الكنيسة ربُّته، وعلّمته، وشغّلته. ووافق جدّي ساويرس، أما ستي أماليا فكانت خائفة على عَدَل البنتيْن وديدة وسارة، ولم يرضَ قلبها على عم مقار إلا بعد ذلك بسنين طويلة، عندما شاخت جداً، وكانت عندهم في البيت، وكان هو الذي يؤكّلها بيده، وكان جسمها قد ضمر، وصغر، ولم تعد تستطيع أن تمشي، فكانت تزحف على الأرض، وكان عم مقار هو الذي ينظّفها كل يوم عندما توسّخ نفسها، ويُحمّيها بالماء السخن في الشتاء، والماء البارد في الصيف، بيده، وكانت تدعو له ولأولاده بالصحة وطول العمر وأن يحفظهم المسيحُ ويطرح فيهم البركة.

وكان عندهم بيت مِلْك على قمة شارع كريّم وشارع العيون في

آخر غيط العنب، بالقرب من جامع سيدي كريم، وكان عندهم مجلات مصر والمقتطف ومجلة السكة الحديد اللامعة الورق نصفها بالعربية ونصفها بالانجليزية وفيها صور قاطرة تاريخية ورسوم هندسية للصمامات والغلايات والمَكنات وشوابك العجلات، أتملّاها بشغف. وكنت ألعب مع ابن خالتي وطواط وكان وجهه مدورا وباسماً وفي لون الكاكاو باللبن وكله شقاوة وعَفْرته، وأُحبه جداً. كنا معاً في ثاني سنة من مدرسة الكرمة الأولية القبطية الارثوذكسية، وكنا نهرب، أحياناً، من المدرسة، في الفُسْحة الكبيرة، ونجري إلى بيتهم ونتسلق عمود النور ونقفز منه إلى سطح البيت ونقع بين الفراخ التي تنقّ والديك المُتّلع العنق الذي يُهاجمنا بُعرفه الأحمر ومنقاره المشرَع، بشراسة، بينما تثغو الماعز المربوطة بحبل إلى مسمار في الحائط، ثُغاءً شاكياً، وننزل معاً وثباً على السلالم المفتوحة المبنية بالطوب الأحمر فتفزع خالتي حنونة وهي تخبز أمام الفرن في الحوش الصغير جالسة على الأرض وتشتمنا ثم تضحك معنا.

كنا نسكن أيامها في شارع البان، أمام وابور الطحين ومدرسة البنات، وللبيت شرفة كبيرة أرضها من الأسمنت الرماديّ المعجون بالحصى اللامع المُنَعَّم المصقول، ولها حاجز حديدي مشغول، وتطلّ على دوران الترام، بعد مسافة، أمام الكركون.

وكان وطواط ابن خالتي يأتي ونلعب الاستغماية على السطح وندخل أقفاص الفراخ ونغلق أبوابها المصنوعة من السِلْك علينا ونختبىء جنب حائط غرفة الغسيل ووراء الملايات والملابس المنشورة ونجري على البلاط الأبيض النظيف بين صغار البط بمناقيرها الصفراء المبططة والكتاكيت التي تجري مفزّعة ورقيقة جداً بين أرجلنا، ونصنع

بيوتاً من علب السجاير البيضاء وعليها رسم مُـذهَّب بخطوط رمـادية لـرمسيس الثاني وعجلة عـربته الـدائريـة وحصانـه المنـطلق أبـداً إلى الأمام، ثابت الجري، أبداً، لا يصل إلى غايته، وقبل الأعياد نعاكس الخروف المربوط فيهجم علينا بقرنيه المتشابكين الغليظين ويقف عندما يشتـد الحبل حـول رقبته الغليـظة ويتوتـر ويكاد ينقـطع، وهو يـزفر، مُحنياً رأسه، ونحن نثب أمامه ونصرخ من الرعب والفرح.

وفي عصر يـوم غائم وثقيـل السماء كنت أقف بـالشرفة مـع خالتي وديدة وخالتي سارة، ورأينا الـترام يأخـذ الدوران الـواسع قبـل محطتـه الأخـيرة، بعيداً أمـام الكركـون، وعجلاتـه تصرخ في احتكـاك حـاد، ثم يبـطيء في اندفـاعه، ويقف قبـل المحطة. وسمعنـا نـداء النـاس وصيحاتهم، ورأيت جسم الولد الصغيرة يتـدحرج تحت العجـلات، غـيرَ واضح، وأشيـاءُ مقطوعـة تبدو لا صلة لهـا بالجسم الـذي غاب تحت أرضية الترام العالية. وأخرج الناس ما بقي من الولد وحملوه إلى الـرصيف والـدم يسقط منـه في خيط متّصـل مهـتزّ، ووضعـوه عـلى الـرصيف أمام سـور الحديقـة الكبيرة، القـاتم اللون، تحت أغصـان الشجر الكثيفة الملتفّـة الساقـطة على السـور. وسمعت جلجلةَ جرس عـربة الاسعـاف ورأيت الجسم الصغيرة المكـوَّم يُحمـل عـلى النقـالـة ويغيب في بطن العربة الحمراء البيضـاء. وكانت صـدمة الحـادث قد هزّت قلوبنا، وكنا نسأل يا ترى من الذي سقط وقالت خالتي وديدة: يا ضنايا يا حبيبي..! ربنا يصبّر قلب أمه عليه..!

لم نعرف إلا في آخر الليـل أن ابن خالتي وطـواط هو الـذي سقط تحت عجـلات الترام، ومـات قبل أن تصـل به عـربة الاسعـاف إلى المستشفى الأميري.

هـل كان هـذا أول فقدان؟ وهـل كـانت الضربـة من القـوة حتى كدت أنساهـا، وأنسى أول وأقرب صـديق لي في الطفـولة، وآخـرهـم أيضاً، الذي أحببته ولعبت معه بحريةٍ صافيةٍ في لُـعَـب لم أعرفها مـع أحـد بعد ذلـك، إلا في صنُع الحب مـع مَنْ عشقت في آخر العمـر؟ كنت أطوف معه، ومع العيال، القَبَط والمسلمـين سواء، عـلى البيوت في ليـالِي رمضـان، ومعنـا، كلنا، فـوانيس رمضـان، ونـأخـذ النُقـل والمكسّرات من على أبواب البيوت ونحن نهز الفوانيس الملونة المشتعلة بنـار شمعِها البيضـاء، ونغني حاللّو حـاللّو رمضان كـريم يا حـاللّو، ونُفـرّق ما حصلنـا عليه، وبـالتساوي بـين الكل. وكنـا نلعب الكرة الشراب، وحاوريني يا كيكة وكلوا باميـة، تحت عمود النـور بزجـاجهِ المربّع الذي يئز بطعنةِ الغاز الأبيض الثابت، ثم نجلس تحت العمـود عـلى الأرض، ونسمع بشغف، وقلوب واجفـة، لحكايـات العفـريت الذي طلع لأكبر الأولاد في الحلقة وسد عليه السكة، ولم ينقذه منه إلا فـارس رومانيّ في يـده حَرْبـة طويلة، وحـول رأسه نـور بـاهـر يعشي العينين، وعلى درعه علامة الصليب، كبيرة، وهّاجة.

وأنا استيقظ من نومٍ قِلق على السرير غير المألـوف، الغرفـة جافـة الهواء من التدفئة المركزية، وأفتح شقاً صغيراً في النافذة فيهاجمني هواءٌ قارس قاطع، أنظر من وراء لوحَي الزجـاج المزدوج إلى السـاحة التي يغـطيها ثلجٌ بلون أردوازيّ بـاهت كأنـه أكـوام صغـيرة من طبـاشـير رمادي هشّ، تشقّها قضبان الترام وأنهار الشوارع المُسفلتة المتقـاطعة. غرفة الفندق القديم ما زالت معتمة في الصبح البـاكـر، فيها «فـوتيّ» عريض فَرْشُه الأحمر المضلّع حـائل كـأن التراب قـد تغلغل في قـماشه ورسـخ في فتائـل النسيـج، والستـائـر الثقيلة لهـا شراشيب مشعّثـة،

مصنوعة من القماش نفسه. وعندما فتحت الدولاب الخشبي وجدت أبوابه صعبة الحركة وفيه رائحة ملتبسة.

كانت صفوف متعاقبة من الناس تأتي إلى محطة الترام في وسط الساحة، ملفّفة بالمعاطف، الجلد والفرْو والقماش السميك، ، ورؤوسها مغطاة بالقلابق والشَابْكات، ألوانها كلها قاتمة. ويتدفق الناس، ويركبون، صامتين، كلٌ مهموم بنفسه، أيديهم مدفونة بعمق في جيوبهم أو مكفّنة بالقفافيز الغليظة، والترام يمضي بهم، كبيراً أصفر اللون يتأرجح، وأسمع من وراء الزجاج الثقيل قلقلةَ عجلاته وصراخها الحادّ في الدوران. والثلج قد تجمّد بكتلته الصلبة اللينة الشكل مع ذلك، لونه شاحب تحت نور مصابيح المغنسيوم في الشارع، بصفرته الحادة، دوائر النور الأصفر على أفاريز المباني القاتمة العريقة وأعمدتها المنحوتة في الحيطان المتينة الحجر، وعلى أغصان الاشجار الرفيعة المسنّنة، بجذوعها السوداء كأنها محروقة من الشتاء.

الطفل الذي كان ترام راغب باشا يمخض قلبه، تحت السيف البرونزي الأخضر، كان يركب معي هذا الترام المضيء الدافىء في برد أول الصبح، يقطع هذه المدينة الجميلة الشهيدة، عرفتُ متعةَ خضرتها ونشوةَ مبانيها الناعمة في ربيعها الذي سرعان ما انطفأ، وعرفتُ قسوةَ الصمت فيها، والحصار، وهبّتْ عليَّ من قتيلها كاف المسيخ أنفاسهُ الدؤوب المكتومة في عالم كابوسه الدقيق الحادّ.

كان يرقب أباه وهو يحلق ذقنه كل صباح، وقبل حمّامه، في المساء ثلاثَ مراتٍ في الأسبوع أيام الاثنين والخميس والسبت، بانتظام، أو كلما عنَّ له أيضاً في غير هذه الأيام.

يحلق بموسى طويلة قديمة الطراز، مثل التي عند الحلاّقين، من الصلب الأبيض الرقيق القوي، مُقعَّرة قليلاً على طول منتصفها، شفرتها القاطعة لونُها أقل لمعاناً من جسم الموسى نفسه، ولها جراب قاتم الملمس من مادةٍ عظْميّة مُفصّل على آخر الموسى بحيث إذا انطوت انثنت على المفصلة داخلةً في الجراب بصوتِ ارتطامٍ مفاجىء. ومعه جِلْدة عريضة، سميكة، يعلّقها بمسمار في حائط الحمام، ويسنّ عليها شفرة الموسى إذ يحكّها بالجلْد بضرباتٍ عريضة منتظمة حاذقة وثيقة الملمس لها صوت طريّ، حتى تصبح الشفرة رفيعة جداً ومرهفة وناعمة الحدّ ليست فيها ذرةٌ من الخشونة. وكان أبوه يُرغي بالفرشاة العريضة من شعر الخيل، في قصعةٍ وعميقةٍ من المعدن الذي يلمع، حتى يرتفع زَبَد الصابون ويتكاثف بياضُه بوشيش بارد يخفت تدريجياً ويهبط بعد انتفاخ، ثم يمرّ بالموسى على ذقنه بحركةٍ عريضة محكمة، وينفُض الرغوة القليلة المكحوتة، بلونها المغْبَرّ، نفضاتٍ سريعة في حوضِ الحمام، ويترك الماء المنصبّ من الحنفية يغسلها، فتعود الموسى حادةً من جديد ولامعة.

في الليالي التي يستحم فيها أبوه، تُسخّن له أمه صفيحة الماء على «وابور الجاز» وتُدخلها له في الحمّام، يتصاعد منها البخار في حلقات متطايرة بيضاء. طقوس الخلاص المُنْهَلّ الصغير من يَوْمِ العالم، طقوس الخُلوص الحميم الرثّ إلى جِسْم الحب.

وبعد أن يَخلصُ أبوه من الحمام ويدخل غرفة نومه، جديداً وفواحاً برائحة الرجولة والنظافة، وكأس «الكونياك» مليئة، ونسيرة الفرخة أو الديك، وشرائح البيض المسلوق المقطّع الجاهز تحيط به حبات الزيتون الأسود الغضّة الجلد، كان الولد أحياناً في الحمّام كومةً صغيرة

مبلولة من الشعر المحلوق الرقيق، أسود وأبيض، لم تنـزلق بها المياه إلى الفتحة المدورة المظلمة. ويخطف قلبَه الروعُ وقدماه تكادان تنحدران به إلى الفوّهة الغامضة الفاغرة التي تُفضي إلى عالمٍ ما تحت الأرض بما يقطنه من أولئك الذين يأتون إليه في رعبِ الليلِ بعد النوم، بأنفاسهم اللافحة وأجسامهم المتموجة، وحضورهم محسوس حيّ وغير مرئي سيقانهم تدقّ بلاط البيت بحوافر مشقوقة، خطوها مُستَرق ومتربّص. ويسمعها تئنّ أنين الحزن الذي لا شفاء له. وبنات الظلام يخرجن إليه على هيئة أمه، أو خالته، أو جارتهم اليونانية أمّ توتو، أذرعهنّ الناعمة تدور حول عنقه في الليل بحنانٍ قاتل معتصِر. والبقرة الذبيحة تخرج بعد هبوط النوم، وتجمع عظامَها الجافة التي تُقرقع وتخشخش، وما زالت عظْمة الكَعْب ناقصة، ضائعة، والبقرة تنوح، من غير العظْمة المفقودة لن ينفكّ الرَصَد ولن تعود البقرة إلى جسمها الأصلي قبل أن تسخطها ضرّتها الساحرة الشريرة، امرأة باهرة الحسن والجمال عارية تسرع إلى تغطية ما بين فخذيها بأوراق شجرة الجميز الخضراء التي لا بدّ أن تضفرها معاً وتجدلها بخيطٍ مفتول من سرّتها المفتوحة، تدور في الشقة المظلمة الآن، تبحث عن سر الرَصَد، وتهمهم بلهفة والتياع.

يتقلّب في مفازع الكابوس الموحش، وحده، حتى الآن.

كان بين النوم واليقظة، في غرفة النوم التي تبدو فسيحة وخالية ولكن ثقيلة وغريبة. وكانت الحُمىّ، ورعشة البرد المتكررة تنفضه، لا يدرك تماماً أين هو، بينما يسعل سعالاً جافاً ممزّقاً، يريد أن يطرد من غورٍ عميق في صدره شيئاً رازحاً ومتشبثاً. ألذلك كان ينام، وحده، على السرير العالي المنصوب، وحده، في الليل، أوراق

الصحف القديمة ملفوفة حول صدره، جفّ السبرتو والخلّ عنها، تُخشخش قليلاً ويحسّ خشونتها على عظمه، تحت الفانلة والبيجاما؟ وهل كانوا قد انتقلوا إلى بيت عبده في محرم بك، والأثاث ما زال مفكوكاً في الغرف الثلاثة والفَسَحة. جاء الليل عليهم ولم يفرغوا بعد من تركيب العفْش ونقله إلى أماكنه، رصُتّ القفف والسلال والربط، الكَنَبات معووجة لم تفرش بعد، الكراسي بعضها فوق بعض، أخشاب السراير والدولاب قائمة على الحيطان وممددة على الأرض. أخرجوا الأطباق والحلل والملاعق وتعشّوا على الطبلية، كيفما اتفق! ألذلك كانت أخواته ينمن على مرتبة الكنبة الاسطنبولي المفرودة على حصيرةٍ على الأرض، مغطاة بالملاءات البيضاء النظيفة، وهو وحده، لأن عنده حرارة ورعشة، ينام على السرير؟ أكانت أمه قد غلَت صفيحة الماء، بعد هَدّة النهار وكدّ العِزال، وفرغ أبوه من الحمام، واستحمّت بعده، وناما الآن على مرتبة السرير الكبيرة على الأرض، تحته، بعيداً في ظلمة الليل؟

سمع، في صمت النوم الثقيل، الصوت الخشن، هامساً، ملحاً. وحفيف الأغطية والملاءات، تتحرك، ولم يكن يرى شيئاً. وجاء الصوت الخافت، فيه تمرد، حارّ النبرة: لأ.. لأ.. مش عايزة.. لأ. وعاد الصوت المحبوسِ القويّ، مطموساً في لهفته لا يُقاوَم، ليس فيه إلا عنف التطلب والاقتحام. أما هو فقد تجمّد في رقدته، انعقد السعال في صدره وتكوّر ورسخ، صلباً، لا ينزاح، كأنه مرصود، تحول حجراً وفَقَد كلّ حواسه إلا السمع الذي يلتقط الآن، بوضوحٍ، الشهقاتِ المتلاحقة، والفحيحَ العنيد، والارتطامَ الطري، والنَفَسَ المتسارع، ثم الأنينَ الأبحّ المكتوم، آخرَ دفقات الجهد المبذول،

مسفوحاً ودفيناً، ينتهي إلى تنهيدة الراحة، وصمتٌ مفاجىء، ميّت.

في غمَرات الحمّى كنت قد انزلقت إلى أرض ساخنة عامرة، وكأنني أطوف بأعمدة الجرانيت في «منف»، وباحات الرخام في «كورنثة»، وتحت عقود بغداد وقبابها المنقوشة بالخط الكوفيّ، وكأنّ الترام يتأرجح بي في شارع النبي دانيال، ودخلت إلى عَرَصةٍ حارّةٍ ببخار الماء المتصاعد من نوافير تمجّها أفواه سباع مكفّتة بالفسيفساء، وكنت عارياً وحواليّ الجواري الخُود، أراهنّ وأحسّهنّ ناعمات، مليئات الأجساد، يَنْسَبن من بين يدي، ويتثنّين، عارياتٍ كاسيات في غلالاتٍ من الخزّ الموصليّ، سوداء وشفافة وفضيّة وهفهافة ومطرزة بالذهب البندقيّ الليّن ومفوّفة بوَشْي مشمشي دقيق الخروم، وكُنّ كثيرات ومتعددات وواحديّات، يختفين ويظهرن، يتخطّرن مُقبلاتٍ عليّ ويَرُغْن، كالنَعام، يهبّ بهن هواءٌ حارّ فينحسر النسيج السلسال عن أثدائهن مكورة ومخروطة وقائمة ولدنة وكبيرة وتفيض عن اليدين وصغيرة وصلبة القوام، لكل منها نُبْقته في لون العنبر، أو عِنَبتُه الطويلة المترَعة بلون النبيذ، بطونهن مقببة من عاجٍ لدن جسديّ بحت، وأطرافهن تتموج وتسبح في لجّةٍ هادئة كثيفةٍ لا أراها ولكنّ مائيّتها تغمرني، وكنّ ضارعات وشرسات ومطاوعات ونوافر وحائرات وهائمات في غسقٍ مُحْمَرّ يسيل كأنه يترك عليهن زَبَداً داكناً ينسرب رقراقاً برغوة ذائبة على اللحم الأنثوي المبتلّ الحيّ بحياةٍ غريبة وأجنبية لكنها حميمة وثيقة القُربى، في داخلي، وكان الدم يضرب في جسمي ويدور جائشاً ومتقلباً في كُلّ جوارحي، وكنت أعرف مع ذلك أنّ السيّاف هنا، مُشرعاً سلاحه القاطع المَخُوف، ولكني لا أراه، وكنت أعرف أن التي تتجاوز الجدار منهن إنما تعبره إلى ساحةِ مقتلها، وأن

أجسـامهن المشتهاة تسقط صريعـة الضـربة المُصميـة، وكان لضربـات السيف بالأعناق الممدودة على النطع صدمةُ ارتطامٍ جـافة، ومنتـظمةُ الايقـاع، رتيبة، ومـا زلن يظهـرن لي، ويختفين مني. الـرعب والشهوة والغضب والرحمة لجج طامية ملتطمـة في يقظتي، متـوتراً، مـطعونـاً، ساقطاً على سريري منهوك الأوصال.

كانت الشمس المنصبّة عـلى الحيطان العتيقـة العاليـة شفرةَ مـوسى تـومض في تقلُّب عتمـة الحلم السـاطـع، وكـان الحلم مبنيـاً بحجـر عريض وسيطيّ، شقّق الـزمن جلدَه الخشِن ولكنه أبقى عـلى نعومـةِ جسده الخفية. والحيـطان تدور بـوثاقـةٍ وإحكام حتى تنتهي، في كـلٍ من طرفيها، إلى بـرج قصير مـدكوك مـربّع حـادّ الأركان، ليس فيـه نوافذ. وكان الميدان الصخرّي مهجوراً في الـظُهر، والـظلال السوداء محددة وواضحة كأنها مقطوعة، مرميّة بثقل على الأرض، وعلى نصف البرج القوي الأكتاف. وكانت النافورة الجافّة عـلى شكل منقـار بجعة كبيرة، منحوتة، رمادية، أكلت الأيام والمياه القديمـة حوافَّ أجنحتهـا الحجـرية المفـرودة، يحيط بها سـورٌ من الصخر الأبيض الخـام دائري قليل الارتفاع.

وكـان الترام يقف أمـام البوابـة المقوسّـة إلى الداخـل قليلاً، بـابها الخشبيّ القديم له ضلفتان مدجّجتان بالأحزمة الحـديديـة العريضـة، برؤوس مسامـير غليظة مثمنـة الأضلاع، تحت شجـرةٍ عجوز وعفيّـة واسعة الأغصان ثابتة الـورق. قضبان الـترام المزدوجـة تشقّ مسارهـا الـلامع في البـازلت الكبير غـير المنتظم الـذي يغطي أرضيـة الميدان. المباني ذات الأعمدة الرخامية تدور على جانبي الحصن العريض الذي يحترق نصفه بالشمس، ونصفه مقطوع بالظل الأسود.

كـان الميدان، والحصن، والمبـاني ذات الأعمـدة، والـترام، كلهـا مهجورة، وخالية.

وكـان وجه المـادونّا الحجـريّ صغير الأنف، مشروخـاً، صـوّحتـه الشمس الحارقة التي لا تغيب ولا تخفّ وقدتها أبداً. شفتاها الدقيقتان المكتنـزتان في وقتٍ معـاً، اللتان يعـرف هـو تَنَـزيّهما، وارتعـاشتهـما، والتصاقهما بفمه، وتدوّرَهما، وانفتاحهـما له، ومسَّتَهـما الرفيقـة كزغبٍ نـاعم، وتماسُّهـما الوثيق المضغـوط الملتحم، وحـلاوة الـريق العـذبَ الناضج منهما وطعمَ ملح الدموع المتحدرة عليهما، وعَبثَّهما حول شفتيه واستسلامهما لرسالة حنانه، كأنهما حيوانان صغيران كلّهما حيوية وطاقة وبحث وطاعة وطلبٌ للحنوّ معاً، تفـترّان الآن عن ابتسامـةٍ جامـدة، تحت عينين واسعتين ثابتتين، نظرتهما مدفونة، ومطلقة.

كان هذا الولد يحمل كتب المدرسة يضمّها إلى صدره بشدّة، وهـو ينهج قليلاً من الجري طول شارع الكروم الخالي في العصر المُشمس. كانت أرض الشارع الرملية المـدكوكـة بالحجـر الأبيض، لينّة، وكـان يحسّ حُبيبـات الرمـل تجـرش بعضهـا بعضـاً وتتـدحـرج قليـلاً تحت حذائه. ودخـل من باب البيت إلى ردهـة المدخـل الواسعـة، الرطبـة الهـواء بعد حـرّ الشـارع، المعتمـة قليـلاً، أمـام السـلالم الممسـوحـة الـرخام. ووقف، وحـده، كأنـه يتحدّى كـل الأبواب المغلقـة وكـل الأشلاء الممزّقة، وقلبه يـدق، وانتضى سيفه، في الهـواء. كان البـاب موصداً صـامتاً الآن، طـالما شهـده مواربـا عن شبَح البنت النحيلة، المحترقةِ بسفر الليالي في قميصها الأبيض الناصل اللدن الوبرة، تناديه لكي تعـطيه في فمـه مذاق حلوى الحنـان الذائبـة. والسيف الجديـد الصلـب يـطعن فراغ العـالم، قـويّ في نبضـه المتحشـد، يُـومض في

العتمة بلونٍ متضرّج داكن القتامة. انتضاه، ثم أغمده، فقط. وطلع السلالم.

أينما توليتُ، في الغمْض وفي الصحوة، وكُلّكِ مشتهاة، فثمَّ هذا الوجه أمامي، وجهك. ماثلاً مستضيئاً في حُرقة الشمس، ساطعَ الجمال، وسمرته أسيلة. عيناكِ لهفة الوجود، زمرّدتان قاطعتان في القلب. صفحة هذا الوجه الرخيم هي النعمة، مفقودة، وقائمة أبداً.

فرسٌ جموح، تشقّين السحاب، وساحة روحي هي برّيتك الفسيحة المتموِّجة السفوح.

دوائر فخذيك ذهب خمريٌّ مسبوك، ملساء باردة تحت خديّ، لامعة وقاطعة بين يديّ.

ثدياك، عناقيد كرم، وما زال سيفي على فخذي مسلولاً أمام هول الليل في يَمٍّ عشقي الملتطم.

وفمك حلو، ما زلت أنهل خَمريَ الصهباء الصافية لا تغيض أبداً، من عناقيد نهديك، ومن كأس سرّتك المدورة. سكرتُ من سَرَف سُلافتك التي لا تسعها بحورُ السماوات والأرضين، وما زال لساني جافاً مقطوعاً على سنّ سكّينتك، أنيني ويقيني: هل من مزيد؟

وعلى يديك ينطف دمي، والعسلُ والخلّ، واللبنُ والنبيذ، معاً.

في الآخِر، استيقظ دفعة واحدة، السماء صحو وليس فيها شمس ولا قمر، وسحابها شفاف وثقيل. كان جسمها الخمريّ العاري، بكل بضاضته، ممشوقاً مع ذلك كالسيف وناعماً كأنه موجة عالية وثابتة، أمام النافذة، شرائح حصيرة النافذة المسدلة يتسلل منها نور

الغَمْـر، مشاعـاً، ليس فيه حـدة، كأنـه سائـل لبنيّ اللون ورقـراق، وصوت الماء يـأتي من وراء الحجَر السميـك، خافتـاً، رغوتـه خفيفة، والهواء الملحيّ يملأ صدره، والعالم منفيّ وكأنه غير موجود.

أحَس طعنةً من سنّ حادة، مدفونـةٍ في جنبه باطمئنـان، دون ألم. لا يعرف ما هي، سيف، سكين، خنجر رفيـع ثاقب كـالإبرة؟ كـان جالساً على حجر أبيض كبير مستقرّ على الرمـل المتهاسـك، على سِيف بحرٍ ساكن لونه كلون الصدَف، يلمع ويخبو.

أدار وجهـه إلى جنب، وقذف من فمـه كتلةَ دمٍ صغيرة متخـثّرة، أحسّها دافئة ومكوّرة. وأحسّ على جانب شفتيه خيطاً رفيعاً لـزجاً من الدم، متعلقاً بوجهه. لم يمسحه.

قال لنفسه: في الرئة: نافذٌ إلى الرئة. ولكن لماذا لا أجد ألمـاً، ولا صعوبة في التنفّس؟

وعرف أنه مقتول.

٨ الظل تحت عناقيد العنب

كانت اسكندرة، بنت خالتي لبيبة، كعروسة المولد.

صافية، خمرية، ملساء. عيناها واسعتان خضراوان، وشعرها الوحْف ذهبيّ داكن.

ولم تكن خالتي لبيبة، أمّها، خالتي على الحقيقة، بل خالة أمي. ولكن اسكندرة كانت في مثل سنيّ، يمكن، أو أكبر قليلاً. وكانت تلبس فستاناً حريرياً، أبيض، مخنصراً وواسع الحاشية، وواسع التقويرة على صدرها. وكأنها لم يكن عندها غيره. وصدرها لم يكد ينبت، ولكنه، على صغره، ناهد، وقويّ.

وكنت، في كل مرة، واجف القلب وأنا أزورهم في بيتهم في شارع نزيب، قريب من بيتنا. أدخل من باب خشبي كبير، كأبواب المخازن، يفتح على حوش طويل كأنه حارة داخلية، فيه حنفية ماء سوداء غليظة الفوّهة، قائمة من الأرض، عمودية، أمام مرحاض مبنيّ من الحجر الأبيض الخام، وحده في الحوش، يخدم البيت كله، وقد نشع الماء في تموّج قاتم يدور بحيطانه الأربعة، وتهبّ منه، دائماً، رائحة خاصة نفاذة. تظلّله شجرة توت ضخمة، في ا لموسم تطرح

حَبِّهـا الأحمر الغض الـدسم، وأحسُّ أن في داخل جـذعها العـريض المفتول حياة خاصة وباقية.

رُكِنَتْ عـلى حـائط الحـوش عجـلات خشبيـة عـاليـة، هـائلة الاستدارة، مخلوعة من عـربات الكـارّو الضيقة الضخمـة، وصفائـح مياه صدئـة، وطسوت سـوداء وكرسيّ مكســور الأرجل، وأنـا أخطو بحذر وتوجّس بين الكراكيب وبِـرك الطين المبلولـة دائماً، أمـام ثلاث غرف متتابعة، وأبوابها مفتوحة عـن بوابيـر الجاز التي تتّقد وتفحّ تحت الطبيخ والغسيل والستات اللاتي تربّعن عـلى الأرض بلحمهن المنفرط وهـدومهن القليلة المفتوحـة عن أفخـاذ مـدمـوكـة وصـدور محصـورة منبعجة، أو متهدلـة ساقـطة في أفواه الـرضَّع، حتى أصـل إلى غرفـة خـالتي ـ خالـة أمي ـ لبيبة، في آخـر الحوش، جَنْب السلم الحجـري الخـارجي الذي نصعـد منه إلى سـطح البيت، أنا واسكنـدرة، ويأتي معنا، أحياناً، أخوها زكي، صغير الجسم، صمـوتاً وثـاقب العينين. نترجّى خالتي لبيبة لتعطينا مفتاح باب السطح، فتخرجه لنـا من تحت رأس المرتبة على سريرهم الوحيد، وكـان مفتاحـاً حديـدياً طـويلاً لـه رأس على شكل حلقة مفرغة كبيرة.

كان السطح هو الذي يسحرني.

كان مسوراً من الخارج بالحجر، وطويـلاً، وله بـاب رقيق الخشب باهت اللون نفتحه بـالمفتاح الصـدىء الكبير، وعنـدما يصرّ البـاب، وينفتح، تفاجئني، كلّ مرة، تكعيبة العنب التي تغطي السـطح كله، مـورقة، ومـظللة وبليلة الأنفاس، والهـدوء السـاري، وخفـوت كـل ضجيـج، والبلاط الأبيض النـظيف ليس عليـه إلا ورق عنب جـاف سـاقط وجذاذات رفيعـة يابسـة من فروعـه وتراب خفيف مكنوس.

والنـور تحت التعريشـة اللّفاء الممتـدة خفيف كأنـه خَمْر عَـطِر الخضرة. وكـانت رقرقـة الهواء بـين أوراق العنب المـتربـة قليـلاً، المتـدليـة من التعريشة، واهتزاز حلقات الضـوء المستديـرة تلعب بها الشـمس عـلى البلاط الأسود بين الظلال الصغيرة المتراوحة كأنها رنين موسيقى خافتة من أصابع كريستال بللورية طويلة متأرجحة، وفي آخر الصيف أشم سُكَّر العنب الذي يستوي، مترعاً بعصارته، على مهل.

كانت اسكندرة تـأتي إلى بتينا، قبـل الأعياد وقبـل رفاع الصيـام، لتشتري مـن وابـور الطحين الذي أمام البيت نصف كيلة دقيق ناعم نمرة واحد، تصنع منه خالتي لبيبة الفطير الفلاحي المشلتت عـلى مرق الوزّة أو ذكر البط. وكنت أصحبهـا إلـى الوابــور أساعـدها في شراء وحمل الدقيق، وأكون معها.

كـان هـذا المـطحن يختلف عن مطحـن راغب بـاشـا الـذي بعـد الكوبري.

هنا كنا ندخل، أنا واسكندرة، من فتحةٍ صغيرة مربعة مقطوعة في جسم الباب الخشبي الضخم، نعبر فوق عتبة رخـامية مـرتفعة قليـلاً فكأننا ننزل منها إلى عُمق فسيح متموّج الهواء معتم قليلاً بعد الشارع بنـوره الحادّ، نجـد أنفسنا في بـاحة عـريضة عـالية السقف، خـافتـة الضوء، يسبح فيهـا رذاذ الدقيق كـأنه ضبـاب جاف وشفـاف ورقيق جداً، وأرضها سـوداء صلبة الحجـر. ويقف، في مواجهتنـا، في آخر الباحة، حاجز عال من السلك الأخضر دقيق الخروم وفيه ثغرة مربعة مقابلة تماماً للشقّ المفتوح على الشارع.

ووراء السلك، في حزمةٍ من نور الشمس تسقط من فتحةٍ مـدورة

مغطاة بالزجاج في السقف، تقوم الأقماع الحديدية الهائلة، جَنْبها سلالم معدنية مكشوفة مثبتة إلى الحائط بقضبان أفقية. تنصّب الأقماع في مواسير أسطوانية تهتز باستمرار وتدور حولها السيور الجلدية العريضة التي تدخل فجأة من شقوق ضيقة مفتوحة على مقاسها تماماً في حائط حجري تقع وراءه منطقة المحرّكات الخفية والمحظورة علينا. في المطحن كله تتجاوب أصوات الدقّ المتواتر الذي يأتي من وراء الحائط رتيباً ومنتظماً، ينبض بقوةِ قلبٍ معدنيّ هائل، وخشخشة غربلةٍ مستمرة متراوحة الإيقاع ونشيش احتكاك الحبوب بسلك الشبكات المعدنية كوشيش الماء على شطٍ خشن الرمل.

كان بيتنا الذي أمام هذا المطحن في شارع البان، مزدحماً ولكنه واسع فسيح مليء بالحركة والحياة.

كنا نشغل الحجرات الثلاث من الناحية القبلية. ننام أنا وأخواتي البنات في غرفة مُنيرة تطل على حوشٍ خلفيّ بين البيوت، هادىء ومزروع وفيه تعريشة لبلاب كثّة نراها من شباكنا ملتفّة على الحيطان وعلى قوائم خشبية قديمة وعلى جذوع ثلاث نخلات طوال سامقة تنبع كلها من جذرٍ واحد عريض متشابك، وتميس بسعفها بين حيطان البيوت التي تنزل عليها من كل ناحية مواسير الماء والمجاري، رفيعة وسميكة، مدورة متجاورة، ومواسير صرف مياه المطر المفتوحة عند آخرها على الأرض ترويها في الشتاء من ماء السماء.

و «الصالون» يقع بين غرفتنا وغرفة نوم أبي وأمي. وفيه الكنبة الاسطمبولي العريضة، والجرامفون ببوقه المفتوح، والكراسي المنجّدة والخيرزان، ومائدة الأكل الطويلة، وتمثال البربري الصغير الملون بعمامته الحمراء وقفطانه الأزرق ويداه تحملان منفضة سجاير تقشرت

أطرافها وبـان منها لحم الجبس الهشّ الأبيض. فيـه نستقبل ضيـوفنا، فإذا جاءنا أقارب أبي من الصعيد فرشنـا لهم ونامـوا على الكنبـة. وله باب عريض من ضلفتين من نسيج الزجاج نفسه.

يفتح هذا البـاب على فسحـة كبيرة طـويلة، فيهـا، من النـاحيـة الشرقية، الغرفة التي أخذها خالي سـوريال وعـروسه. بعـدها، عـلى طول، غرفة المطبخ المُشمسة الكبـيرة المليئة بـالحلل والبرطـمانات عـلى الرفوف والمغارف والأطباق الصيني في النملية وموائد الطبيـخ المزدحمـة ببوابير الجاز.

في مقابل غرفة خالي سوريال حمّامان طويـلان، لكل منهـما نافـذة عالية مـدوّرة، ودوش، والمرحـاض في واحد منهـما بلدي، هو الـذي أوثره وأعرفه، وفي الآخر أفرنجي ولا أدخله.

أما في مواجهة المطبخ فالباب الداخل على غرفة خالي يونـان وامرأة خالي إسْتِر التي كانت تحبّني، وكانت أيامها قد خلّفت يعقوب، فقط، منذ قليل، وتُرضعه. وكان خالي يونان مازال عنده تاكسي مِلْك يسوقه ويكسب منـه الشهد، ومـازال يشتغل في النقـابة مـع البِرنس عبـاس حليم.

أمـا خالي نـاثان فلم يكن يسكن معنـا وإن كان يـأتي أحيانـاً عـلى الفجـر، يُصحّي البيت ويفطر وينـام، وكنت أعرف أنـه يشتغل عـلى سيارة لوري ضخمة يسوقهـا إلى دمنهور كـل ليلة ويبيت هنـاك معظم الأيام، ولم يتزوج خالي ناثان إلا بعد ذلـك بسنوات عنـدما شبـع من الخبص مع النسوان ولم تخلّف له امرأتـه فكتوريـا بنت عم أرساني إلا بنتهـا الـواحـدة. ولم أر بنت خـالي هــذه أبـداً، إلا مــرة واحـدة،

بالصدفة، في كنيسة جبّانة الشاطبي، عندما ماتت أمّي. وهي التي عرّفتني بنفسها وقالت إنها تزوجت، وخلّفت.

الباب الزجاجي الذي كان يفضي إلى ناحيتنا في البيت أمامه بالضبط، في آخر الفسحة الطويلة، بابٌ مماثل تماماً يفتح على غرفة المعيشة المشتركة الكبيرة التي فيها ماكنة الخياطة السِنْجر، والبوريه الرخامي، وكنبة اسطمبولي أخت كنبتنا، وكراسي الطقم الجديد الذي صنعه خالي سوريال عند زواجه، والمائدة البيضاوية الرخامية التي حفظت عليها جدول الضرب والإملاء الإنجليزي، وفيها أيضاً يضع جدي ساويرس بوص الصيد الطويل وعدّته.

وتنفتح هذه الغرفة على الشرفة التي لها سور حديدي مشغول وتطلّ على مدرسة البنات، ووابور الطحين، ونرى منها، على جنب، دوران الترام في آخر محطة له، والكركون، والجنينة الغامضة ذات الشجر الكثيف الذي تسقط فروعه الملتفة على الشارع. وكنت أحبّ أن أجلس فيها وأطلّ من بين حديد السور على شارع ١٢ الواسع المسفلت النظيف، وعلى حائط المطحن العالي الأصفر، وحديقةِ مدرسة البنات.

وغرفة المعيشة لها باب داخلي، على اليمين وأنت داخل، يؤدّي إلى غرفة جدي ساويرس وتنام فيها جدتي وخالتي وديدة وخالتي سارة، وتطل على الحوش المزروع.

وكانت ستي أماليا، بقدّها النحيل وحيويتها التي لا تنضب وكلمتها التي تمشي على الصغير والكبير، هي التي تُظلّل هذا العالم المتضافر المتنافر، وتحكمه وتسوده، برفق، ولكن بحزم وتمكن.

هذا البيت الذي يموج بالحركة والناس والزياط والنقار والثرثرة

والخناقات والطبيخ والغسيل والأقارب والضيوف والضحك والمعاكسات وعواصف الزعيق والبكاء التي سرعان ما تنجاب والمعاكسات والحكايات، ويأوي أصحابه في الليل إلى خفاياهم، كان مع ذلك واسعاً عليَّ بل موحشاً عندي لا أجد فيه من هو في سنيّ. عندما كان يأتي ابن خالتي وطواط كنت أهرب معه ونلعب على السطح، ولكنه راح الآن. لذلك كنت أحب أن أذهب إلى بيت خالتي لبيبة لكي أطلع مع اسكندرة إلى السطح الذي تُعرّش عليه تكعيبة العنب الطويلة المورقة، في الصمت المظلل بحفيف ورق العنب.

كنت، أحياناً، أستيقظ من النوم مبكراً، وأجري إلى باب غرفة خالي سوريال، أطرقه بخفّة حتى لا أوقظ أحداً آخر. ومهما بكرت في اليقظة كنت دائماً أجد خالي سوريال قد أفطر ولبس ويستعدّ للنزول. ولكنه يقول لي: تعال أدخل.. اقعدْ افطَر مع مراة خالك. وكانت هذه الغرفة ضيقة قليلاً، محصورة، نافذتها الوحيدة يسدّها الدولاب الجديد ببابه الواحد الذي تشغل واجهته كلّها مرآةٌ عريضة تردّد صورة السرير وعليه المفرش الساتان الأحمر الداكن اللامع، والسجاد البُنيّ المحروق الكثيف الوبرة الذي يدغدغ باطن رجليّ الحافيتين. وكان فيها مصباح كهربي عالٍ له شُعَب مضيئة دائماً في النجفة المتعدّدة الأوراق، حمرتها فاتحة وفيها عروق بيضاء متعرّجة. وكانت الغرفة تثيرني كلما دخلت إليها، بأثاثها الجديد الذي تفوح منه رائحة اللوستر النفاذة، والمراتب القطنية العالية واللحاف الريش المنجد بساتان من لون المفرش، أحمر داكن فيه غُرَز مدفونة ماكرة الصنعة، وعَبَق الجنس وسرّه المغلق ينضح به وجه امرأة خالي الصعيدية

الصموت، مدوّراً وغضاً وبه آثار الزواق الخفيف على شفتيها المكتنزتين والكحل كأنه طبيعي في عينيها السوداوين العميقتين. وكانت تلبس «روب دي شامبر» بالدانتيللا ضافياً وسابغاً على قميص نوم من الساتان الأحمر الداكن نفسه، فتحته واسعة على صدرها الأسمر الوفير، ولم أكن رأيت شيئاً مثل هذا من قبل، وكأنما كانت خجولاً من هذا السرّ نفسه وكأنما كانت تخفي هذا الخجل عندما تناديني إليها، فيرفعني خالي سوريال إلى السرير جنبها، وتضمّني إليها فأنشق منها رائحة الحمّام والصابون المعطّر ونفح الجسد الأنثوي الجديد اليقظة، وتعطيني بيضة مسلوقة مقشّرة من الطبق الذي على الكومودينو جنب السرير، أو بسكوتة بالمربّى، وتعزم عليَّ بشفطة شاي باللبن من الكوب الذي تشرب منه، ويخرج خالي سوريال وهو يقول لي: خلّ بالك على مِراة خالك، مِن الغَجَر دول.. أنا سايب معاها راجل أهوه. ويضحك ضحكة صافية ليس فيها سخرية بل إعزاز وحنان أبويّ. وكنت أفهم أنه يشير إلى معاكسات خالتي سارة والنظرات الفاهمة المعابثة التي تحدجها بها خالتي وديدة، وأحسّ بالفخر والقوة.

وكان خالي سوريال نحيلاً وقصير القامة نوعاً ما، ولكنه قويّ والعَضَل في ذراعيه مفتول جافّ ومضلّع كأن فيه طاقة خفية، وضحكته عريضة كالماء البلّلوري الرقراق ويعشق عروسه الجديدة بنت عم عبد المسيح، الصعيدية الحنون المليئة الجسم. كان نجاراً وعنده محلّ في شارع الرند، مزدحم بالخشب وأجزاء الكراسي والدواليب والترابيزات والعدد، وكان يُخرج البنك الكبير إلى الشارع الهادىء يشتغل عليه بالفارة أو المنشار، والمسامير في فمه، والقلم

الرصاص خلف أذنه. وعندما كبرت جداً صنع لي مكتباً كبيراً كنت أذاكر وأرسم عليه وأنا في كلية الهندسة. وكانت امرأة خالي مارية هي التي أخفيت عندها مكتبةً كاملة من الكتب الثورية والمجلات الممنوعة والمخطوطات والمنشورات قبل قيام حرب فلسطين سنة ١٩٤٨. وعندما اعتِقلتُ أحرَقَتْها كلّها في الفرن الذي يخبزون فيه على سطح بيتهم وراء الكركون تماماً، حرصاً عليّ، وعندما خرجتُ من المعتقلات لم أرها إلا لماماً حتى ماتت بعد خالي سوريال، وبعد أن زوَّجت كلّ أولادها، وما زلتُ أذكرها، صموتاً وجميلةً وعميقة العينين، بمحبة، وأبتسم عندما أذكر كيف كان جدي ساويرس يقول عنها: الصعيديّة بنت الصعيدي، ولكنه لا يقول ذلك أبداً على مسمع من أبي.

كان جدي ساويرس قائم العود، وجهه طويل ووسيم وواضح التجاعيد لوّحته الشمس بسمرةٍ خاصة صحيّة، وكان يدهشني، عندما يشمر كمّيه ليغسل ذراعيه تحت حنفية الحوض، أن أجدهما، فوق الرسغين، بيضاوين جداً. عرفت عندما كبرت أنه كان «باشكاتب» حسابات قدّ الدنيا في البنك الزراعي في شبراخيت، وأنه استقال في عزّ كهولته ليعود إلى أرضه في الطرانة، وأنه أنفق عن بذخ على الشُرب والأكل والمَضْيَفة ورَهَنَ الأرض ولعبَ على القطن في البورصة، حتى لم يعد له إلا قراريط، ثم حَمَلته ستي أماليا على أن يؤجرّها ويعود ليعيش مع أولاده وبناته في غيط العنب. وعندما خلّف أخوالي عيالهم الكِثار وانتقلنا نحن إلى بيت شارع الكروم أمام اصطبل العربات، عاد جدّي إلى الطرانة، وبعدها بقليل نشبت الحرب، وكنا نذهب أنا وأخواتي إلى الفلاحين عندهم في إجازات الصيف.

أيامّها كان مزاجه صيد السمك. كان يخرج كل يوم إلى المحمودية أو الملاّحة، ويقضي ساعات في غرفة المعيشة الكبيرة، بعد الظهر، في نور «البلكونة» يصلح سنانير الصيد ويضبط بَكَراته ويُشذِّب الفلّينات المدوّرة السوداء ويقطعها بمطواته الكبيرة ويركّبها في الخيوط الرفيعة المثنية الملفوفة بعناية ويقطع بنفسه أطوال البوص وأنا أراقبه مسحوراً. وعلى وجه الصبح، كلّ يوم على الله، يخرج وعلى كتفه البوصة الخيزران الطويلة الناعمة، بعُقَدها المتتالية العريضة، لونها أدكن، مصفرةً وأخشن من ساق البوصة، والمخلاة القماش التي اسودّ لونها فيها الصفائح المدوّرة الصغيرة ذات الأغطية يتقلب فيها ويتلوى على بعضه البعض دود الطُعْم والجمبري الصغير الشاحب البياض، ويعود على العصاري وفي المخلاة رزق اليوم: قرموط كبير مفلطح الرأس شواربه الطويلة تلعب وجلده اللزج أسود على أبيض، أو البلطي الفضيّ القِشْر بلون الصَدَف المزرقّ المبلول أو حتى البساريا التي أفرح بها جداً لأن ستي أماليا تقليها وتعطيني منها، من وراء أمي، جافةً محمّصة ساخنة في الزيت الفرنساوي تُقرقع رؤوسُها الهشّة تحت أسناني، بلذّة. وعندما كنت في مدرسة الكرمة الأولية القبطية الأرثوذكسية يألني منصور أفندي الناظر عما يشتغل أبي، فقلتُ بصوت خجول، وبلا اهتمام: تاجر بيض وبصل في شارع أنسطاسي. فلما سألني ماذا يشتغل جدّي ساويرس قلت بفخر وكبرياء، وبصوت عالٍ سريع: صيّاد سمك. وغضبتُ منه جداً في سرّي عندما ضحك بصوت أجشّ وحانٍ، ولكني لم أغضب طويلاً فلم أكن أسمعه يضحك أبداً. ولم يأخذني جدّي ساويرس معه للصيد، أبداً، مع أنني كنت أطلب منه باستمرار، بخجل وتردد في الأول، وبإلحاحٍ

وبكاءٍ بعد ذلـك، ثم من غير أمـلٍ أخيراً، ولكن من غـير جدوى في كل الأحوال.

كان جدي ساويرس يطلب مني أن أنزل في الليـل فاشتري له حُقّ الدخان أبو غزالة، من البقال الذي على أول حـارة من اليمين، بعـد وابـور الطحيـن. وكنت أحس الدخـان طريـاً ولدن القـوام من وراء الـورق الخشن الداكن الخضرة، وعليـه رسم الغزالـة بـالخط الأسـود تطير في الهواء بحُريّة، رافعة الرأس، ساحاتهـا فسيحة، وأسعـد بها، وبالشارع المنير وهوائه الرحيب والبيوت النائمة، أنوارهـا صغيرة تـبرق وتتخايل من وراء الشبـابيك، وأنسى، عنـدئذ، محنـة العودة، وعبـور العتبـة، وطلوع السلم. لأن الـدور السفـلي من البيت كـان مقفـلاً، ومهجـوراً طول إقـامتنـا فيـه. مِمّن سمعت أن امـرأةً قُتلت فيـه، من زمـان، بسبب العرض؟ ذبحهـا زوجها بـالسكـين، كـما تـذبـح أمي الفراخ أو البطّ، من غير أن يذكرَ عليها اسم الله. وحبسوه، ولم يُفتح البيت من يومها. ولم أكن أفهم تماماً ما العرض ولكني أعرف بالتأكيد أنـه من أسرار النساء. وكنت أحيـاناً، وأنـا نائم في عـز الليل أسمـع الأنـين الأنثوي الملتـاع الـطويـل، يصعـد إليّ من تحت، وأسـدّ أذنيّ وأدخل تحت اللحاف، وأسقط في النوم بسرعة.

كان السلّم في الليل مظلماً ومخيفاً، وفَسْحة الباب معتمة ويهبّ فيها هواء رطب كأنه أنفاس حيّة، ترعبني، وأحسّ صاحبتها تترصّدني من وراء بـاب شقتّها، وتهم بـالإطباق عـليّ. وعندمـا أدخل من الشـارع يواجهني باب الشـارع الخشبي الثقيل المشغـول، تحت شرفتنا، دائـماً غامضاً، وكأنني أدخله لأول مرة. أستمدّ الشجاعة من عمود مصبـاح الغاز في الشـارع الذي يدخـل نوره قليـلاً من العتبة إلى الـداخل ثم

ينقطع في ظلامٍ دامس وسكون. أضع رِجلاً على العتبة ورجْلاً في الخارج، وأُنادي كلّ مرة، كلّ مرة، بصوتٍ مرتفع فيه كلّ شحنة شجاعتي، أنادي باسمي أنا، بإلحاح، دون توقّف، حتى يظهر النور المهتزّ من باب بيتنا فوق، تحمله أمي أو خالتي سارة أو امرأة خالي إستر التي أحبها، وتتراقص شعلة اللمبة نمرة خمسة على السلالم والدرابزين، فترتدّ الأشباح وتنحلّ المفازع، وأسمع الصوت: اطلعْ.. تعال.. يالله.. فأصعد السلالم وثبا، أربعة أربعة، وقلبي يخفق، كلّ مرة، بالفرح.

كنا في ليلةٍ في أول الصيف، والعالم قد خلا فجأة، أصبح مُخُوفاً. صفارات الإنذار تُعول عويلاً موَحشاً، سمعت الكلاب تنبح، بصوت مرتفع، في السكون، والظلام الذي سقط.

نزلنا السلالم مسرعِين، من بيتنا، في حارة الجلّنار، إلى راغب باشا. كنت أمسك بيد أختي هناء من ناحية، وأختي لويزة من ناحية أخرى، وكانت أمي تحمل أخي ألبير الصغير، وأبي قد لبس البالطو على جلابيته البيتي البيضاء، ومعه أختي عايدة، صامتة وخجلة قليلاً من أنها كبرت الآن ولم تعد طفلة. وعبرنا شارع راغب باشا، وكان معنا جماعات صغيرة من الناس يتحدثون بهمس، ودخلنا من ميدان صغير في تقاطع شارع إيزيس وشارع صغير لا أعرف اسمه، ودخلنا من الفناء الصغير إلى باب الكنيسة الإنجيلية المبنّية بالحجر الأحمر، ووقفتُ بالباب بينما نزل أبي وأمي وأخواتي إلى البدروم المتين الصلب الشكل.

كنا نعرف أن باب سِدْرة قد ضرُب، أمس، بطوربيد، ونشرت الأهرام والمصري والبلاغ خبراً واحداً وبنصّ واحدٍ معاً، أنه انهار

بيتـان كانـا آيلينْ للسقوط وأنـه لم تحدث خسـائـر في الأرواح وأصيب ثلاثة أشخاص إصابات طفيفة. وكنا نعرف أن العمود، صباح ذلـك اليوم، قد غصّ بـالجنازات المتتـالية وأن الكنيسـة في جبّانـة الشاطبي أيضـاً قد ظلت أجـراسُهـا تـدق طـول الصبـاح وأن العـديـد واللطْم والشَلْشلة قـد فـاض من بـين البيـوت والأنقـاض وأن صـلاة المـوتى والغائبين قد أقيمت في جامع سيدي المرسي أبي العباس وفي الكنيسـة المرقسية في وقتٍ واحد معاً. وقال أبي إنه في طريقه لشغله رأى فتحـة واسعة غائـرة ظَهَر المـاء في قاعهـا، على دَوَران البيـاضة، ورأى، من خلال كوردون عسـاكر الجيش المُـرابط، الحيطان المتهـدمة والأنقـاض والأحجـار المتراكبـة، وإنه رأى بينهـا سراير حـديديـة متلوية ومحـروقة معلقاً بها جلاليب وفساتين كأن أصحابها قد خلعوها الآن فقط.

كانت السماء فـوقي قد أصبحت شاسعة ومخيفـة، تحمل المـوتَ في بطنها، الموتَ محدداً وضارباً وثقيلاً ونهائياً. وكان نور القمـر قاسيـاً في سـطوعه الفسيـح. وانطلقت أسنّـة الأشعة الكـاشفة سيـوفـاً طـويلة متحركة من النور القاطع، آتية من أطراف المدينة ومن وسطهـا معاً، تدور في الزرقة الصافية الحريرية، تتقاطع وتتجاذب وتتفارق وتتـلاقى أطرافها لحظة وتتركـز في نقطة واحـدة وهّاجـة ثم تنْشَعِب، تجوس في بطن السماء المغلقة عليها، تبحث عن بؤرةٍ مُراوِغة بينـما طلقات الآك الآك الرفيعة الثـاقبة المتعـاقبة تـطقطق دون تـوقف ثم تنفجر في ورود حمراء معدنية تتناثر شظاياها على الفور وتنطفىء، وهدير محرك الطائرة بعيد وعالٍ ولكنه مسموع بين انبثاقات الطلقـات من المدافـع المضادة للطائرات، في الصمت الذي يجعل المدينة أكثر شفافية واتسـاعاً، من الأنفوشي إلى المندرة والمنتزه، من الرّند والبّان والنخيل في غيط العنب

إلى اللَّبَّان ورأس التين وأنسطاسي، من جليمو نوبولو وزيزينيا إلى ستانلي والنزهة والورديان، من حجَر النواتيّة إلى كوم الناضورة، من سِيدي جابر وسِيدي بشر وباكوس إلى سموحة والمكس، ومن محطة مصر والرصافة إلى مصطفى باشا عَوْداً إلى عزبة الصيادين، كانت حَبَّات اسكندرية عارية مطروحة، تغطيها فقط أسنّةٌ من شبكةِ الأشعة التي تطعن السماء.

في تلك الليلة، عندما نزل الطوربيد من الطيارة الطليانية، على مقام سيدي أبي الدردار، لم يصل إلى الأرض أبداً.

قال شهود العيان إنه بينما كان الجسم الضخم يهبط ويتقلّب، حافته المدببة مصوبة إلى الأرض، ويومض تحت القمر بلمعةٍ شريرة، انشقّت قبّة المقام الخضراء وسط تعريشة العنب المورقة المسوّرة بسورٍ رقيق من الحديد، ثم التأمت على الفور، وصعد منها الحضور الأكرم لوليّ الله. وكان من الصالحين، يفدي عُزوته وكل أبناء مدينته البيضاء المحروسة، والبُرْنُس المغربيّ السمنيّ الهفهاف ينفتح كالجناحين في الهواء، ووجهه كالبدر الطالع يكسف بدر السماء، سناه يُعشي الأبصار، وفاحت رائحة المسك والعنبر المدفون في المقام المصون، وإنه بسط ذراعيه فإذا هما عريضتان، نورانيّتان، وتلقّى في حضنه الطوربيد الهائل المندفع كالصاعقة فإذا هو برد وسلام، وطار به كلمح البصر أو أسرع فوصل به في الحال إلى أكمة الشلّالات العالية الخضراء الخالية من الناس، ووسّده الأرض على جَنْبه، وقد نزع شِرّته وأذاه، فرَقَد بين الشجر الملتف الأغصان حديداً بارداً ميتاً بلا حول ولا قوة. وَجَده الناس في أول الصباح فتوافدوا عليه ألوفاً مؤلّفة، وفككوه دون ضرر ودون عناء، وكلّ واحدٍ أخذ منه قطعة

حـديد خُـردة للبَركة والعِبـرة. وعندمـا وصـل رجـال الجيش المـرابط وضربوا نطاقـاً حول المكـان لم يكن قد بقي من الـطوربيد المهـول إلا قطع صغيرة هشة من الصفيح، وكـومة بـاردة مفتتة من البـارود تشبه الفلفل الأحمر المطحون.

ثـاني يوم قـال أبي إن اسكندريـة أصبحت خطرة عـلى الأولاد وإن لقمـة العيش وحدهـا هي التي تبقيه هنـا، فقالت أمي إنها لن تـتركه وحده أبداً، وسافرت أنـا وأخواتي جميعـاً إلى بيت جدي سـاويرس في الطرانة، فيما عدا ألبير الصغير الذي بقي مع أمي، ومـات بعد ذلـك بسنتين بالتيفود.

وكنت قد عرفت الطرانة وجئتُهـا في الصيفين السـابقين، وعـرفت لندة وأختها رحمة والولـد برسـوم وبقية العيـال ومنهم الولـد مخلوف ابن الشيخ عيسى جارنـا في نصف القريـة الذي لا يسكنـه إلا النصارى، وحدهم تقريباً، مع أن الكنيسة تقع في النصف الآخـر، بالقـرب من السرايـة الكبيرة التي ضرب فيهـا أنيس أفندي نفسـه بالنـار. وعرفت التجوال الطويل على المـدقات الـترابية بـين الغيطان العـالية بـالذرة، لغـاية الـطاحونـة وما بعـدها، وعـلى جسر النيل، واللسـان الحجري الداخل منه إلى عرض النهر الواسـع، أقف على طـرفه، بـين الأمواج والدوّامات، وأنـادي منه جنيّـة البحر التي لم تـطلع أبداً هنـاك، وإنما جـاءتني في الآخِر بنشـواتِ الجسد المسحـور ومُتعاتـه الجنونيـة التي لا يعرف غيرهن أن يُذِقْنها لعشاقهن، جنيّات النهر العميق.

وكنـا نلعب الإستغمايـة أنا وأخـواتي والعيال والبنـات، أمـام بيت جدي، تحت شجرة الجميز.

وفي حموة اللعب، مرة، هـربت لندة فجـأة من أمامي إلى مـا رواء بيت عم أرساني ودخلتْ إلى ممر ضيق مسدود بينه وبـين بيت جدّي، يظلّله آخر فروع شجرة الجميـز الفارهـة، وكنت أرى كعبي رجليها، وهي تجري حافيـة تثير الـتراب من على الأرض، فيهـما بياض متـورّد وعليهـما حبيبـات الـتراب النـاعمـة الهشّـة وكنت ألاحقهـا، خلعت شبشبي أنـا أيضاً، أحس الـتراب في الزنقـة بارداً وجـافاً تحت بـاطن قدميّ، وعندما أمسكتُ بها، في آخر الزنقة، وهي تستديـر تحاول أن تفلت من جانبي، مرِنة، مسرعة، وتمرق من تحت ذراعيّ الممدوتين، ضممتها إليّ، ووجدتها بين ذراعيّ، وقد أحيط بها ـ كـما كانت تـريد من غـير شك، قلت لنفسي ـ وأحسست صـدرها الحـر النافـر، وهي تنهـج، على صدري، مضرجة الخـديّن وعيناهـا السوداوان الحـالكتان متوقّدتان، وبطنها، في فستانها المشجّر بالـورد الأحمر والأصفـر الصغير على أرضية برتقاليـة، يصطدم بي، ويتلبث لحـظة واحدة، خـاطفة، لا نهايـة لها، وهي تحسّ بـانتصابي وتعـرفه، لحـظة واحـدة، خـاطفـة، تـريـده، ثم تتنحّى عنــه بينـما وضعتُ شفتيّ الجــافتـينّ، وأنفــاسي متدافعة، على جانب وجهها الذي وجدته أمـامي في هذه الخـطفة من الزمن، وأحسست نعومته وحرارته ونداوته الخفيفة من العرق، قريبـاً جداً من فمها المفتوح المبتسم، ونشقت رائحتها الزكية، أوليّة وبريئـة ونقية، رائحةَ الجسم النسويّ العذريّ اليقِظ، ثم أفلتتْ من ذراعيّ، وجريتُ وراءها خارجين من الـزنقة التي كـانت، منذ لحـظة، ساحـةً فسيحة ساطعة، فإذا بنـا نكاد نصـطدم، كلانـا، بجدّي سـاويرس، وكـان راجعاً للبيت، يمشي ببطء مستنـداً إلى عصاه الصفـراء الغليظة العُقد، وانطلقنا نجري من وراء الشجرة، حتى الجرن.

عندما عدت على أواخر العصاري، بعد أن لبست شبشبي وطسست وجهي بماء جارٍ حفنته من عند اللسان الحجري في النيل، ونفضت التراب من على جلابيتي البيضاء التي كان طرفها السفلي قد ارمدّ وابتلّ بالتراب المنعقد ولم تنفع فيه حيلة، ودخلت البيت، ناداني جدي ساويرس بصوتٍ كنت أتوقّعه. عندما اقتربت منه، متوجساً ومتماسكاً، سألني ماذا كنت أعمل في الزنقة مع البنت لندة؟ فقلت كنا نلعب كلنا وليس فقط لندة، نظر إليّ بعينين نافذتين وعارفتين وصلبتين، وبدون كلمة ارتفعت يده وأحسست صدمة الصفعة الأولى والأخيرة في كلّ صباي، الوحيدة من أي أحد، بقوتها المفاجئة، ووقع الإهانة وسخونتها أكبر بكثير من ألم الضربة ولذعها، وكنت أسمعه، من وراء غيامة الغضب وحرارته، يقول إننا كبرنا جداً عن لعب العيال، ويتكلّم عن الأصول وألسنة الفلاحين التي لا ترحم البنات. تركته واستدرت. وصعدت إلى الجميزة، عالياً، إلى البقعة العريضة التي كنت أختبىء فيها، منذ سنتين، وأترك نفسي لحلم الشجرة الوارفة وسماء النهار التي تغلّفها وكأنها تنزل إليها وتُحيط بي، وأنا أرتقي إلى الجذع العريض الممتدّ بين الفروع، يَسَعني ويحملني بثقة، وكنت أسمع أصوات البيت من تحتي والشوارع المتلوية الضيقة في القرية والناس والبهائم والكلاب كلها بعيدة ولكنها موجودة. وكان غضبي تخامره كبرياء وعزة من معرفتي بأن تلك اللحظة لم تكن مسروقة تماماً، ولا جاءت بالصدفة تماماً، بل كانت بمعنى ما مُدبَّرة ومطلوبة.

وكانت ظلال الورق والهواء المنعش في أعلى شجرة الجميزة المعزولة عن العالم، تهدهدني. ولعّلني، بالرغم من الجرح، كنت قد نمت.

في ١٢ بؤونة من سَنَةٍ قديمة، كنت في قاعة مدرسة الأحد في مبنى الكرمة الأولية القبطية الأرثوذكسية. كنت أحب صوت مس كاترين النحيفة الطويلة البيضاء الوجه، جسمها كأنه نورانيّ في فستانها السابغ الأبيض المرسوم بزهور دقيقة حمراء فاتحة، وهي تُعلّمنا الترانيم في الغرفة الواسعة المعتمة قليلاً، فيها دكك خشبية طويلة صفراء لامعة، وصلبة، وكانت القاعة رطبة الهواء قليلاً، فيها شموع موقدة تحت أيقونة العذراء، بثوبها الأزرق الملفوف على كتفيها، تنظر إلينا نظرة غائبة، واسعة العينين جداً، وهي تحمل على حِجْرها الطفل البضّ المدملج الجسم، السعيد النظرة وعورته الصغيرة عارية وبريئة وطبيعية وتدعو قلبي للحنان. ولأنني أجدت الترنيم أخذت من مس كاترين صورةٍ ملونة، في أعلاها كلمات بالقبطية ومقابلها بالعربية اللجنة العامة لمدارس الأحد القبطية الأرثوذكسية، وفي الصورة عملاقان يرفعان أذرعهما بالبشارة على خلفية السماء الزرقاء، وعلى حقويهما إزار من الجلد داكن، يقفان على أرض صخرية عالية فيها نباتات غضيرة ووحشية الشكل، ويحملان بينهما عصاً متينة يتدلى منها عنقودٌ هائل من العنب، وموسى شيخٌ أبيض اللحية يصعد إليهما من تحت الأكمة مستنداً إلى عصا معقوفة اليد، وتحت الصورة بالقبطية والعربية «عنب أرض كنعان»، والآية المختارة: «وأخبروه (موسى) وقالوا قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها، وحقاً أنها تفيض لبناً وعسلاً وهذا ثمرها».

كنت أُرنّم، وراء مس كاترين، بإيقاع يتردّد في الغرفة الواسعة، له صدى: كَنْزُ مَجْدٍ في السما. . . كَنْزُ مَجْدٍ في السما. .

ترنيمتي إليكِ، الفَرْدانية المُثَمَّنة المتملِّكة ملكوتَ اليومِ التاسع غير المنقوص وعندها الأيام الثمانية معاً.

الواحدانيّة المنسوبة إلى بيرسيفون، منهكة، مهانتها تنـوش نِياطي، كـامنة في نبـاتات سنوحي، ما تَنِي تنعب عـبر السنـين فـوق دنـدنـة الأحزان، حسنيّة.

منشدتي الأوْلانيّة المُثَنَّاة، غُنّتُها هيلينِّيـة النبرات، سِـيرِيَنتي في سَنَى الوَسَن، كاترينا.

اسكندرة، سيرافينا الفينانة المُغدَوْدِنة على غصـون الرَّنْـد والعنب، نداوةُ جناحيها المِنضمين عليَّ لا نضوب لها.

هنيّة، ماندالا الحصين، دورانُ اختناقِها في أنفـاس الإحَن والمحنة ما زال يرين على العرين الجنوبيِّ المكين في الجنينة القبلية.

وفي نهْج الجُلّنار، مُنى، النَفُور، نازعةً عنّي، رِنوتها اليَّ سنّ مسنونةٌ تنخس نزواتي في الجبّانة المنحوتة بالصوّان.

وفي الطرّانة جميانة، أيقونةٌ يانعة مُونِقة، نقطة النجيع أرجوانيةً من طعنة سكينٍ نجلاء حول لُجَينِ العنق.

البانةُ المتثنيّةُ نوّاسـةً تحت السنْط النضير، لنـدة، تبّضّ لها بـواطني المتنزيّة، ونفحةُ بدنها نفثُ البشنين النابع من غرين النيل.

أما نعمة، فوطني ومسكني، كنزي ونواتي، منيعة، مـانحتي حنانها وهناءتي، وهي نقائي من أدراني وإليهـا أنيب وفي حِضنها أمني ورُكني ومنامي عند المنون.

وأما رانة فهي منفاي. الجِنّية النهْمة مَنَاسِكي إليها، كاهنةُ التنّين،

سوسنةُ منف، مَنَاتي الوثنية، وفينوس مُدنِفَتي، سنديانةُ كنيستي، نخلةُ نِجراني، زنبقةٌ في زعفراني، جُمانةُ النهار. النون.

النورس المتنّمر ينقر عناقيد العنب بمِنْسره المحجون. وهو في آن، يونان المكنون في بطن الدجنّة ليس له منَجاة، والنوتيُّ الرهينُ ينقش المنمنماتِ سجيناً في سفينته إلى نينوى التي لا منال لها.

وأنا في كِنّ نونك، نِصفُك إلى يميني يُمْنٌ ونعيمُ الفتون ونشواتُ الجَنَّات والجُنون، ونِصفُك الداكن نير النِكال ونهش النيران حتى فناء الزمن، وعلى النصفين معاً نقلتي إلى تنتالوس. جَنَى الأماني مَنِيَّةٌ تدنو وتنأى. نَبْنَبَتِي إليكِ وهنيني وجنوحُ أحنائي. نِضْوُ الضَنى، كَفَني بين النَوْمِ والنَايِ. أنكِل عن إيماني وأنكث بنفسي. تُونعين فأنكص، وتُوقنين فأحنث. أنتِ دينونتي. نجواي إليكِ تَنِزّ نازفة، في طين الدِمْنة الدفين. وحنيني إليكِ نداءٌ إلى حنانٍ جسدانيّ ونُورانيّ معاً بلا نظير. وإذ أنزعُ إليكِ فإنما هو نشدانٌ إلى أن أطامن من شَجَنِك المستكين. انقضتْ ناعِقةُ النَوَى على منكبيَّ ونشبت أسنانَها، ناءت بي، أختنق في مكامنها. وهأنتِ قد نضوتِ عنكِ نصالك. تنحني نوّارتك على مُنتهاك غيرَ مُنْبَتّة، لن يكون لكِ منتهى. ولا تنِدّ عنيّ نأمة. أنبض في سَكِينةِ حناياك.

لكني ما أني أنزو إلى أقحوان عينيها، أعتنقُها وأحتجنُ إليَّ رُمّانتيْ نهديها. لا أنحِّي نظرتي عن ريعان حُسنها المُنِيف. ولا نهاية لعنفوانها. أنشق نكهةَ سنبلتها. بين ردنيها نَشْرُ النّد والنارنج والنسرين. نُفاضة النجوم تُنير على أناملي. وفي تِرنان النواقيس والصنوج أنهل مَنّ يُنبوعها، خدينتي يناغيني غُنْجُ مغانيها. لَهَبان

التّنور يُنضجني فأنطفُ بالمَنِيّ في عجينتها الساخنة الرّيانة. هنالك تنبو أسنانُ التنانين، وتنتسفُ جنادلُ نكراني كالعِهْن المنفوش، تُذعِن الطواعينُ وتنصاعُ الشياطينُ أخيراً، والنيازك نثارةٌ في عِنان الأنواء.

أنتِ مِعْمدانيّتي الهَتون على نهر الأردنّ. وأنتِ قنّينة النِكْتار وأنتِ النجدة وأنتِ النذير.

ومع حنثي وخياناتي فإنني لم أُنْفِذ قانونك أنتِ فعند الميزان أنزليني منزلة النعماء المكنونة للعاشقين. آمين.

أغنيّتي إليكِ ليست أنيناً ولا نحيب النهنهة. بل هزيمُ النَسر المطعون المنتصر. ترنيمُ المِيم إلى أبد الآبدين.

قال: وكتبتُ النونَ بالنثرة على قرطاسٍ من رصاص آن، ووضعتُها في جام، وغسلتها بالمطر، وغمست منها قلمي والقمر في منزلته مضيئاً فيّاض الوهَج، فأتتني الحيتانُ من مواجِها الظُلْمانية منصاعةً في الحال، وحَسُنَتْ عبارتي وازدانت إشارتي، وذكرُتها في حنادس الدجنّة بعدِد قُوَىٰ أسماء حروفها، فانبلجت لي أنوارٌ عظيمة، وانفتحت لي المخارجُ الرّبانية إلى النعيم. امتلأ باطني معرفةً ونطقتُ بالنبوءات الغريبة الشريفة، وزال ألمي. وما وقع بصري بعد ذلك على أحدٍ إلا ارتاع مِنيّ وغرس الله في قلبه محبتي.

كنت قد خرجت من عتمة القاعة المهتزّة بالشموع في مدرسة الأحد، إلى نور الشارع الدافىء المظلّل بالشجر، وفي عينيّ حلمٌ بكنز مَجْدٍ في السماء. والهواء شفاف وله رائحة خفيّة مخضرّة من أغصان العنب، وجريت إلى بيت خالتي لبيبة. كنت أعرف أنها عندنا في البيت. وكانت اسكندرة تنتظرني لامعة العينين، خدّاها مضرّجان.

مددت ذِراعِي إلى آخرها تحت سريرهم وتكّورت يدي حول جسم البوصة الطويلة الرفيعة والدوبارة الملفوفة حولها، وفي آخرها فلينة وسنارة صغيرة.

كنت قد انتقيت أصغر بوصة عند جدّي ساويرس، وتسلّلت بها مبكراً جداً، يوم الأحد، قبل الكنيسة، وأخفيتها عند اسكندرة. وخافت هي أولاً ثم ضحكت ووضعتها على الأرض تحت سريرهم.

ولما سأل جدّي ساويرس عنها ونادى، بغضب: فين البوصة الصغيّرة ياولاد؟ هربت إلى غرفتنا في آخر البيت، وسكتّ. ومع ذلك كنت أصلّي للمسيح بحُرقة أن يغفر لي وكنت واثقاً أنه غير غاضب مني. ويئس جدّي من البحث عنها، وسلّم أمره لله، وكان متحيراً ولكنه لم يسألني قط، مباشرة.

وكانت اسكندرة قد نبشت في ردغة الأرض المبلولة تحت حنفية الماء، وتحت شجرة التوت الكبيرة في حوش بيتهم، واستخرجت الدود اللزج الدسم الشكل، ووضعَتْه في حُقّ مستطيل وأخفته تحت السرير، جنب البوصة، فأخذتُه، بسرعة، وأخذتُ اسكندرة من يدها، وخرجنا.

جرينا في الشوارع الخالية تقريباً، ومررنا أمام زرائب الجاموس برائحتها النفاذة وأقراص الجلّة الطرية تجفّ في الشمس أمامها، بعد صفّ من صفائح اللبن الضخمة المرصوصة، فارغة، ونفذنا من ثقب ضيقٍ كنا نعرفه في سور السكة الحديد، وعبرنا القضبان وسرنا بين الهِيش والحلفاء والبوص والزلط حتى وصلنا إلى شط الملاحة المترقرق الضحل، والماء عليه ساكن وفضيّ وثقيل الشكل.

ومشينا قليلاً بحذاء الشاطىء حتى وصلنا إلى مرتفعٍ صغير في رمله حصى مضلّع ومتراوح الأشكال، مدبّب ومنبعج ومدوّر ومسطّح، يعطي للرمل استمساكاً وقواماً، وتحت المرتفع جونة ماء عميقة تبدأ صغيرة عند الشطّ ثم تتسع وهي داخلة في الملاحة، لونها أكثر زرقة وماؤها يترجرج بسيولةٍ أكثر، وكانت الشمس قد بدأت تحمى، وجلست اسكندرة بجانبي على ركبتيها، فوق أكمة الرمل، فاحمرّ جلد ساقيها من الحصى الصلب الأملس، بينما وقفتُ وذهبت حتى حافة التلة الصغيرة وخلعت حذائي وأدليت رجليّ حتى أوشكت قدماي ـ اللتان أحسست فجأة برطوبة الهواء عليهما ـ أن تلامسا الماء.

رشقتُ جسم الدودة المتنزّية الزلقة بين أصابعي، في سنّ السنارة الحادّة التي نفذت من الناحية الأخرى، ورفعت البوصة، وسقطت السنارة في الماء وطفت الفلينة بعد لحظة، باهتة اللون، في فضة الماء السائلة. وانتظرت.

ماذا حدث؟ كيف سقطت؟

أحسست نفسي في الماء، وكأنني أطفو، ثم أغوص بهدوء في عُمق يبدو أنه من غير قرار. وكان الماء حولي دافئاً ومحيطاً وحنوناً وشاملاً ومن غير نهاية، ولم أكن أشهق ولا أطلب النَفَس ولا أتخبط، ولم أكن قلقاً ولا مرتاعاً ولا مختنقاً، وكان هذا العنصر الرفيق الثقيل يحملني ويسندني في نزولي الذي لا زمن فيه. والضوء حولي داكن وشفّاف معاً، رازحٌ ومُشعٌ معاً، كأنني في غرفةٍ مائيةٍ شاسعة المدى، وخصاص نوافذها تنساب منه صفحاتٌ رقيقة النسيج متتالية من النور والماء ممتزجينْ معاً. وكان سطح الماء فوقي يومض بإبَرٍ فضّية دقيقة ومتموّجة لا عِداد لها، تظهر وتختفي.

الماء يتخلّل تكعيبة العنب، ويغمرها، والعناقيدالثرّة الداكنة الحمرة حَبَّاتها الغضة المدورة ملتئمة متضامّة بعضها حول بعض، وتتدلّى كأنها نهود متضرجة كثيرة ترفعها الموجات الصغيرة برفق بين يديها، والورق حولها وفوقها شفّاف الخضرة تتلوّى عروقه خيوطاً لدنة متشرّجة الالتفافات، يمرّ بها الماء فتهتزّ، مُطاوِعة ومستسلمة، من الأغصان المبتلّة العُقَد. وعلى الموجِ المضيء وجهُها، بين ظلال تعريشة العناقيد والأوراق والأغصان المتعرجة، خمريّ اللون ورخيماً، يصعد إليه ويُنيره في السيولة، مِن تحتُ، إشعاعُ نورٍ متّقد في قلب الماء، من شمعةٍ كبيرة ذُبالتها المشتعلة يهتّز بها الموج، كأنها أيقونة مخضلّة البشرة، وفيها حياة أخرى، وشعرها الذهبيّ مفكوك مسترسل منثور ومليء الخُصَل يحمله الماء فيصطدم بوجنتيها دون صوت، وقد أخذ لونه يدكن قليلاً من البلل، ويميل إلى لون الكهرمان المحروق المشعّع بالنداوة، والماء يذهب ويجيء، في مُوَيْجاته الصغيرة، بصفحةِ الوجه الساجي، عيناها نجلاوان، من غير تعبير، ولكنهما تعرفانني، وتنظران إليّ، فقط. وكأنها تطل عليّ، وجسمها فوق، بعيد عني، من عالمٍ آخر، فيه رقةُ السماء المفقودة وحنانُ الهواء الملحيّ البعيد، والماء الذي يحتضنني ويتفتّح لهبوطي بلا انتهاء، يذهب بها، ويجيء. ولم يكن الغوص إلى تحت قاسياً ولا خانقاً، وكأنني لا أقاومه، بل كأنني أقبله وأُسلم إليه نفسي.

لم أمدّ إليها يدي، ولم أنادها، كنت أعرف فقط أنها هناك.

قال: أنتِ الشجرةِ التاسعة. أنتِ الريح على المياه العميقة. أنت أكَمةٌ مورقة بالأشعار ومزهرة بورد البريار.

الكرمة السماوية لا يأكل من عناقيدها إلا المغبوطون.

أوّلُ من دُسْتِ على العنب بقدميكِ العاريتين لكي تعتصري نبيذه المُفْرِح للناس والآلهةِ معاً، يشربون من عذوبته المزّة فيتكلمون سواءً بسواء.

أوزير واقفٌ في هيكله، مطويّ الذراعين، مكفّن بالبياض، والعناقيد تتدلّى في اتجاه وجهه المنحوت من الديوريت الأخضر، قريبة جداً من فمه الظامىء.

قال: وعرفت أنه سيكون ما لا بد أن يكون، وأنني في الزمان الثاني سوف أُمنح أن أنهل من جنَى العناقيد، لأن العنب قد نضج.

سقطت حبات العنب من عيون الصقر حور، ونَطَف الدمُ من العناقيد.

٩ رفرفة الحمام المشتعل

كان الطفل يجري إلى بيت أم تـوتو «الجـريجية» في تقـاطع شـارعي البان والنرجس، كأنه يلوذ بمكانٍ مسحور.

لم يكن في حسّه، تماماً، معنى أنها «جريجية».

كان الاختلاف حينئذ، عنده، من طبيعة الأشياء.

كـان يشتري الفـول من «التركي» بشـاربه الأبيض الكبـير المصفـرّ قليلاً عند أطرافه من الـدخان، وكـان عندمـا يدخـل بيوت جـيرانهم المسلمـين يحسّ شيئاً من الـرهبة، وكـان الكونستـابل المـالطي الـذي ينـطلق بالمـوتوسكـل في شارع الـتراماواي، يـوقف عـربـات الحنـطور والكارو ويرسل الخيل والحمـير المقرَّحـة الجُنُوب إلى الشفخـانة ويشتم العربجية شتيمـة بذيئـة ويشخر لهم بـالاسكندرانيـة الفصحى. وكان عمّ حسن التـونسي بيّـاع اللبن يسكن في حـارة وراءهم، وعنـده في البيت ثلاث جواميس وحمار أبيض فاره ويلبس البُرنس المغربي السمني الناصع يلقي طرطوره وراء عنقه، شعره النـاعم أبيض ولحيته بيضـاء كـاللبن، وكـان زوج خـالتـه عم مقـار أسـود لامـع السـواد، وكـان الصعايدة في الزرائب، وفي وابور الطحين، والفلاحون الذين يبيعون

الخص والجرجير والليمون والكرات على حميرهم، لا يلبسون إلاّ قميصاً داكن الزرقة قصيراً مربوطاً بحبل على الوسط، والصيّادون بلباسهم الاسكندراني الأسود المنفوخ والصدرية ذات الأزرار الكثيرة على الفانلة الطويلة الكمّين، يبيعون السمك في مقاطف من الخوص المجدول يحملونها على رؤوسهم المعمَّمة بطاقية صغيرة ملفوفة بالشاش الأبيض عدّة مرّات، والأفندية بالجاكتات الطويلة والبنطلونات الضيِّقة في آخر الرِجلين، وكانوا جميعاً يجعلون العالم مكاناً غنياً ومتقلِّب الألوان، مخيفاً إلى حدٍّ ما، وجذّاباً أيضاً.

كان بيت أم توتو من دورين، ولكنه عالٍ، يحسّه دائماً مغلقاً على سرّه، منيعاً، متين الحجر، نوافذه كبيرة خضراء، وله سور صغير من الحديد المشغول يحيط بجنينة صغيرة مزروعة بعناية، فيها شجر نبق ملتفّ الفروع وارف، غليظ الخشب، وشجرة موز واحدة، قصيرة، أوراقها عريضة، غضرة، سميكة، ومشقّقة مشعّثة عند حوافها المصفرّة.

وكان أمام البيت دكان جزارة كله مبلَّط بالقيشاني، الجدران والأرض تلمع، وأنصاف العجول والذبائح الأخرى مشقوقة، مفتوحة البطون، بأقفاصها العظميّة الداخلية الفاتحة الاحمرار، معلَّقة بخطاطيف أمام الباب تحت اليافطة الزجاجيّة السوداء المكتوب عليها بخط ثلث ذهبي فخم طويل الحروف، وكان قد تعلَّم القراءة وربط الحروف، وقرأ: جزارة محمد محمود البهنساوي.

وكانت أمه هي الوحيدة من بين خالاته التي تزور أم توتو وتحبّها، ويحسّ كأن بينهما نوعاً من الفهم، ويتحدَّثان معاً طويلاً، بهمس،

بينما يذهب إلى غرفة توتو الصغيرة التي تكبره قليلاً في السنّ وفي الجسم، ويناديها باسمها الأصلي كاترينا لأنه كان يحبّ مدرِّسته مس كاترين، فتضحك البنت، وتعطيه ليأكل البرقوق المسكر المجفَّف الذي يستطعمه بلذّة، يستمرىء جسمه اللّين المتغضّن، المحمرّ، الملتفّ على نواته الصلبة، الغارق في عسله الداخلي الناشف.

كانت أمه تتركه أحياناً، بعد ظهريات بأكملها، عند أم توتو، وتذهب لزيارة حبايبها أم فلة، أو أم أليس، ولا تعود إلاّ عندما يهبط الليل.

لماذا ذهبت أنا يومها إلى بيت أم توتو؟

قالت لي ستّي أماليا بصوت غضوب ومكبوح: رح انده خالك يونان من عند اللي تتقرّص في بطنها أم توتو الجريجية. قل له يجي لي عايزاه.

فتحت لي أم توتو الباب، وأزاحت الستارة الكروشيه المخرَّمة التي تنسدل عليه مباشرة من جُوّه، أحسست خفّة جسم الستارة عليّ واهتزازها، ونسيت غضبي من ستّي عندما انحنت عليّ أم توتو، بوجهها الأبيض الرفيع الدقيق الملامح وقبّلتني في فمي قبلة خفيفة، بحركة ألفةٍ وحنان بسيط خالص كما تفعل دائماً، كما لا تقبّلني أمّي أبداً، وملأت صدري بعبق عطرها النافذ ورائحة جسمها النظيف والبودرة التي لم أكن أشمّ فوحها الخاصّ إلاّ عندها.

قلت لأم توتو: عايز خالي يونان في كلمة.

قالت لي، حانية: عاوز تقول له إيه حبيبي؟

وكان في نبرتها أهون إيحاءات لهجة الجِريج. كانت بنت بلد،

تقريباً، في كلامها، ولكن برقّة خاصّة، وأقلّ تخفيف للأصوات الحادّة.

قلت لها، خجلاً: عايزه في كلمة سرّ.

فابتسمت بعذوبة، وتسليم.

خرج خالي يونان من غرفةٍ داخلية أقفل بابها وراءه، وجاء إلى الفسحة وهو بالقميص الحرير المخطّط بأقلام زرقاء رفيعة، من غير ياقة، والبنطلون الذي له حمّالات أستيك طويلة، وفي يده جاكتته. كان فارع القامة، خطواته هادئة بطيئة الوقع، وسيم السمرة، شامخ الوجه، ومال برأسه قليلاً إليّ يسمع ما عليَّ أن أقول، وأجاب في غير تعجّل ولا سخرية ولا غضب: أوامرك يا سيدي. حاضر. عينيّ، بس كده.. طب أقعد أنت هنا عند خالتك أم توتو.

وقال لها بصوت كأن فيه شبهة ابتسام: هاتي لي الياقة والكرافتة من جوّه. أخطف رجلي أشوف عايزين إيه وراجع حالاً.

ووضع الياقة المدوَّرة الصلبة البيضاء حول عنقه، وزرَّرها بدبّوس صغير لامع، ولفّ الكرافتة.

وكنت أعرف أن ما بينهما شيء خفيّ أحبّه ويشوّقني ويسحرني.

كان واضحاً أنها أيضاً تستعدّ للخروج، فأومأت له، وقالت إنها ستنتظره على كل حال.

كانت في عزّ ازدهارها، نحيلة الوجه، رقيقة الجسم، في عينيها دائماً نظرة مطارَدة، متوسّلة وتوشك أن تكون مقهورة، ولكنها جذّابة، نسويّة جداً، مطالِبة، وانحناءة حاجبيها عليهما غير واسعة،

وخطّهما مليء وناعم التقويس. وكان شعرها القصير «ألا جارسون» مفروقاً على اليمين، عقصت خصلة منه على هيئة كعكة صغيرة على أذنها اليمنى، وكان لونه بنياً ذهبياً داكناً بحيوية غضّة. شفتاها مرهفتان سريعتان إلى الارتعاش، وأنفها مستقيم طويل. كان بياض وجهها مشوباً بخمرية صافية شفّافة، وكان نهداها صغيرين، مخروطين، تحت فستانها الأحمر الغريب الذي لم أستطع أن أرفع عنه عيني.

كان النصف العلوي من فستانها من نسيج خفيف هفهاف، واسع الفتحة عند أعلى الصدر. وبينما كمّاه الواسعان يشفّان عن ذراعيها البيضاوين، لحمها البضّ قليل ومتماسك وممشوق وقد اكتسب حمرة خفيفة من لون النسيج الشفّاف، كان الصدر من قماش حريريّ، من اللون نفسه ولكنه «ساتان» لامع غير شفّاف، ينزل كالحرملة على صدرها بنقوش رقيقة. تنتهي هذه الحرملة فوق الركبتين بقليل، ليبدأ تحتها النسيج الشفّاف مرّة أخرى، مبطّناً بالقماش السادة اللمّاع حتى منتصف الرجلين. وكان جوربها تحته حريرياً وسميكاً يستدير حول أسفل الساقين بضمّة متينة، وحذاؤها من الشامواه الأحمر بثلاثة شرائط جلدية فوق أعلى القدم تنتهي بزراير صدفية مدوّرة، كعبه عال وكبير. وكان على صدرها العاري المنبسط سلسلة ذهبية رقيقة جداً تتدلّى بصليب مشغول.

كنت أفكّر أيامها أن توتو هي بنت خالي يونان، وكنت أتصوّر أن أم توتو هي زوجته، بشكل ما، ولم أسأل.

ولمّا عاد خالي يونان بعد قليل، خرجا معاً، وركبا السيارة المربّعة

القوية التي كان يسوقها، وعرفت فيما بعد أنهما ذهبا إلى المصوّراتي، وأن كلاً منهما أخذ صورة لنفسه، وحده، وأنهما تبادلا الصورتين. ووقعت صورتها في يدي بعد ذلك بسنوات طويلة فاحتفظت بها.

وجدت نفسي وحدي في الفسحة الخالية المعتمة قليلاً، التي كانت تفتح على المطبخ مباشرة.

ومرّة واحدة، وكأنما على فجاءة، فغمتني روائح دافئة شهية من حبال التين والزبيب المعلّقة من مسامير فوق نافذة المطبخ، تجفّ في الشمس من وراء زجاج النافذة. وكانت برطمانات المربّى البيتيّة، والفواكه المجفّفة المسكّرة، على الرفوف، غارقة في سوائلها الكثيفة داخل الزجاج البلّوري المضلّع الذي يمتصّ النور ويعكسه من جديد مشقّقاً، متكسّراً. وليس في المطبخ ذبابة واحدة.

هبّت نفحات غريبة باهتة الحلاوة، كأنها لم تكن هناك من قبل، من أزهار كبيرة بيضاء، عروقها طرية وقوية تبتلّ في الماء الصافي الذي ثبّت كأنه جامد وشفّاف، في «فازة» زرقاء رقيقة الزجاج، بطنها الكبير المدوّر عليه رسوم تنانين حمراء وصفراء ذهبية ملتوية الذيول، ألسنتها طويلة رفيعة مشقوقة نصفين منطلقة بقوة من أفواهها الجميلة المفتوحة، ونفث رائحة المفرش القديم الباهت الخضرة، الدسم الململمس، شراريبه المنقوشة الكثيرة متلاصقة تهتزّ حول رخامة المائدة المدوّرة، وأرجل المائدة الخشبية لامعة ومشغولة وتنتهي بما يشبه أقدام الأسد، مقوّسة المخالب. وسحرتني مرّة أخرى، كما تسحرني دائماً، القوقعة. بيضاء هائلة الشكل رابضة تحت «الفازة» الكبيرة، حلزونية وملتفّة بنعومة، وفي آخر دوراتها المتراكبة التي تضيق بالتدريج، طرف

مدبَّب طويل، لبنيّ اللون والجلد الداخلي في القوقعة أملس محمرّ. حولها شقيقاتها، قواقع أصغر، سطحها الخارجي بياضه محبَّب وأكثر خشونة.

جريت، كأنني أفرّ، أبحث عن توتو في غرفتها الصغيرة الضيِّقة التي لم يكن لها نافذة، وحيطانها من الأرض للسقف مغطّاة بورق أصفر باهت وله لمعة معاً، وفيه نقوش وزهور حمراء دقيقة جداً، أوراقها محدّدة جداً، خطوطها القاطعة المسنَّنة بلون أكثر حمرة من أجسام وريقات الزهور. وكانت توتو تلازم هذه الغرفة لا تكاد تبرحها. وجدتها تذاكر على مكتب صغير مسند إلى الحائط، فوثبت وجلست على سريرها أنظر إليها وهي تكتب دروسها بالحروف اليونانية الغريبة على كرّاسة ورقها فيه مربّعات خطوطها طفيفة جداً. أصابعها الصغيرة البيضاء تلتفّ بعنق الريشة المسحوب، ورأيت على أطراف أناملها بقع حبر بنفسجيّ اللون.

كانت توتو، على عكس أمها، مدوّرة الوجه باستدارة كاملة وطازجة الخدّين. عيناها واسعتان في خضرتهما نقط صفراء ثاقبة متوهّجة كإبر من النور، وصموتاً جداً لا تتكلّم إلّا نادراً، ولم أرها تلعب أبداً.

قالت توتو: تعال نطلع عند تيته.

فأومأت برأسي، ووثبت نازلاً من السرير واندفعنا نجري نسابق أحدنا الآخر على السلالم الحمراء الرخاميّة الباهرة النظافة، إلى الدور الثاني.

وما إن فتحت جدّتها الباب حتى انقلبت الدنيا، أمسكت بيد توتو

بشدّة، بينما تواثبت حولنا القطط، لا عداد لها، سمينة وجافّة القدّ، سوداء حالكة وخضراء رقطاء، صغيرة واهنة زاحفة، وشاحبة البياض، تموء وتصيء، وقوية متواثبة تزمجر وتفح، مقشعرة، وصفرتها حريرية ناصعة، تقرقر وتهرّ، مربربة زاكية تزوم، وعيونها تتقد، وتركب بعضها بعضاً، وكأنها، كلها، ستهاجمنا بضراوة. والجدّة القليلة الجسم، ملفوفة بـ«روب» حريري قديم سابغ عليها، تصوصو بصوت رفيع حادّ، آمر وحنون في الوقت نفسه، ممطوط وأغن ولا أفهمه، حتى تفيء القطط إلى هدوء نسبي، وتأوي إلى أماكنها المختلفة في شتى أرجاء البيت. وتظلّ توتو تتحدّث إلى جدّتها باليونانية، بينما رائحة القطط الحيوانية التي تملأ البيت تفغمني وكأنني أستطعم على لساني كثافتها وخصوبتها. ثم ذهبت تيته، تتدأدأ في مشيتها بخطواتها الصغيرة، وجاءت ببلح مقشور مصفًى من النوى غارق في عسله ومحشوّ بالجوز وبالبندق، وأعطت أصابعها الرقيقة الشفّافة، عليها عسل مربّى البلح، إلى قطّة صغيرة جداً أخذت تلحسها بنهم وإصرار وهي تصيء.

عندما فتحت توتو باب شقتهم كان الظلام يوشك أن يهبط، والفسحة غامضة وكثيفة بروائحها العبقة الراكدة. أوقدت توتو مصباح الجاز الكبير الأبيض البطن، بعود كبريت جاءت به من المطبخ، في العتمة، وأنا مسمّر جنب الباب، واجف القلب. شدّت توتو دلاية كالكمثرى في نهاية سلسلة نحاسية مربوطة بالمصباح، ورفعت زجاجته الشفّافة بحرص، وأشعلت الفتيلة بينما هي تمسك بالدلاية طوال الوقت. ردّت الزجاجة إلى مكانها، ثم تركت الدلاية فجأة فارتفع المصباح من تلقائه، وفرّت السلسلة النحاسية منسابة من

خـلال حلقة مثبتـة في السقـف ولها صـوت متتـابـع. سـطع النـور في الفسحة، وظهرت نقوش الملائكة والطيور المرفرفة المخرّمة في الستـائر الكروشيه المسدلة عـلى النوافـذ وعلى البـاب، و«الفوتيـات» القطيفـة الخضراء المتموّجة اللمعـة. قفزت إلى «فـوتيي» كبير منهـا فغاص بي، وهو يقاومني قليلاً بتنجيده الطيّع والقويّ.

جاءت توتـو، دون تردّد، وجلست معي في «الفـوتيي» العريض. وأحسست جسمهـا يلتصق بي. استدارت إليّ، ونـظرت إليّ طويـلاً، وقلت لنفسي إنها عزيزة عليّ جداً. وفجأة عانقتني. أحسست ذراعيها العـاريتين، رفيعتـين وقصـيرتـين، حـول عنقي، تحبسـان وجهي، وأحسست صدرها الطفل يهتزّ. وضعت رأسها خلف وجهي ملتصقاً بـه، وأحسستهـا تبكي، بصمت، وإصرار، كـأنها لن تفـرغ أبـداً، وترفرف بين ذراعيّ. كنت أحيط خصرها، وكأنني ألجأ إليهـا، منها، لا أقول شيئاً وكـأنني أقول إن بكـاءها يهـدّ العالم عـليّ. حتى سكتت فجـأة، واستراحت. عـرفت، بعد ذلـك بثلاث أربـع سنين، عنـدما تزوّج خالي يونان فعلاً، أن أم توتـو كانت قـد تزوّجت، من زمـان، بالجزّار الذي كنت أرى محلّه أمام بيتها، وأراه، يقف في المحل المبلّط كله بـالقيشاني، سـاعداه المفتـولان قد شمّـر عنهما، قـويـاً، وصـدره صخريّ تنفتح عنه تقويرة الصديـري اللامـع الكثير الأزرار المحبـوك يبدو من الشق الطويل في أعلى جلابيته الواسعة التي جفّت عليها نقط الدم المتناثرة، وأنه طلّقهـا بعد أن خلّفت كـاترينـا التي كنا نقـول لها تـوتو. وسمعت خـالتي وديدة تحكي لامـرأة لم أكن أعرفهـا، وهي لا تعرف أنني على مسمع، أن الجريجية المقروصة أم توتو كانت لايفة على أخويا يونان، كانت عايزه تلهفه ياختي، وكانت حاتجيبه على ملا وشه

لكن برضو هو كل الطير اللي يتاكل لحمه؟ أخويا يونـان ملو هدومـه، ما يضّحكش عليه بالساهل. أهو رمـاها زي الكلبـة، واتجوّز إسـتر. وغضبت جداً في قلبي لأنني لم أصدِّق أن أم توتو كانت تضحك عـلى خالي يونان وكنت أعرف أنها تحبّه، كما تحبّني.

وعندما كنا في كليوباترا، وكنت قد تخرَّجت من الهنـدسة، وذهبت إلى معتقلات أبو قير وهاكستب والطور وخرجت منهـا، وكنت أشتغل مهنـدس ترميم في المتحف اليـوناني الـروماني بمـرتب قـدره اثنـا عشر جنيهاً أعول بهـا نفسي وأمي وأخواتي الأربـع ولم أكن أقرأ الصحف. وبينما كنت في المتحف، مهموماً بالشغـل ذات يوم سمعت إشـاعة أن الجيش في القـاهـرة قـام بحـركـة ضـد الملك، وأن الـدبـابـات في الكـورنيش، ولم أهتمّ يومهـا كثيراً بـأخـطر حَـدَثٍ في تـاريخنـا لفـترة طويلة، ولكنني عندما طرد الملك من اسكندرية نزلت في الشوارع مع صـاحبي عبد القـادر نصر الله وشربنا العـرقسوس الـذي كان يـوزِّعه البائع عند كوم الدكّة مجاناً، ابتهاجاً وتيمّنـاً بالخـلاص. وكنت أحبّ أيامها حبّاً لا أعرف كيف الخلاص منه ولا كيف الخلوص إليـه. وفي آخر المساء عدت إلى بيتنا وكلّي قلق وفرح وتوفّز، وطرق باب شقتنا، ودخلت امرأة جميلة ممتلئة مدوّرة الجسم، بيضاء، غـزيرة الشعـر، في فستان فقير الشكل تحمل على ذراعها طفلة في الثانية، وراعتني عيناها الخضراوان كأنهما وحشيتان من ضغط القهـر، كحيوان. ولم أعـرفها، وسلَّمت عـليّ بيد أحسستهـا مليئة مـرتخية كـأنها لا تعرفني، وعنـدمـا جاءت أمي إلى الباب رحَّبت بها وأخذتها في حضنها وقالت لها: أهـلاً يا توتو يا بنتي، أهلاً بيكِ، اتفضّلي، إزيك يا ضنايـا، إزيك يـا ريحة الحبايب. تدهور قلبي وامتلأ وجهي بالدم. وجلست المرأة الغريبـة،

مهدودة ومستكينة، وعرفت أنها تزوّجت من عامل في «الفابريكة» اسمه حسن، وأنه كان حشّاشاً ومتلافاً وأنه طلّقها بعد أن خلّفت ابنتها وأن اسم ابنتها فتحية وأن أمها ماتت من زمان طويل وأنها تشتغل الآن بيّاعة في هانو وليس لها أحد في الدنيا. وكنت جريحاً، وأدركت، متأخراً جداً، ومن غير جدوى، مدى قسوة بكاء الطفلة التي كانت، على كتفي، وأن هذه الطفلة لم تندثر ولن يجفّ بكاؤها أبداً.

تزوّج خالي يونان وجاءت امرأة خالي إستر إلى بيتنا الذي رأيت شرفته مرّة تسقط في ليل الحلم مليئة بالناس لا صوت لهم، أمام مدرسة البنات الداخلية، وإلى جانبها وابور الطحين.

كانت البنات ينمن في الدور الثالث من المدرسة، أعلى من بيتنا. وكانت أنوار المدرسة تطفأ في تمام الساعة التاسعة بالليل، وتصمت الأصوات القليلة المضطربة بعد ذلك، وأصداء ضحكات البنات، ويحلّ الظلام في المدرسة، وأرى، في نور الغاز المتشعّع من عمود الشارع، تكعيبة العنب في حديقة المدرسة، أخشابها واضحة معرّقة وسط دغلات أوراقها الكثيفة، وطبقة تراب خفيفة في النور، على أغصان شجر التوت والنبق الوارفة. وكنت أرى البنات أحياناً، في أول الصبح، عندما أرفع بصري من شرفة بيتنا، وهن يخطفن أمام النوافذ المفتوحة، في قمصان نومهن الخفيفة الملوّنة، وشعرهن مبلول ومفكوك، ثم يختفين.

كانت امرأة خالي عروساً جديدة، ولم تخلّف بعد، وافرة الجسم، تضحك كثيراً ودافئة الصوت، وكلها معابَثة وشيطنة وجرأة حسّية بالكلام والإشارة والنظرات، وجهها كامل الاستدارة وخمريّ جداً،

عيناها مليئتان، وحاجباها رفيعان جداً كقوسين، على جفنين متخمّرين قليلاً. وكنت أهرب إليها إذا ضربتني أمي، فتحضنني وتلاعبني وتمسح دموعي في ذيل فستانها، وتقول لأمي: هو الملاك ده برضو له ضرب ياختي! وفي مرّة نسيت أن أقفل باب الحمّام ورائي، وانفتح الباب فجأة وعندما استدرت مفزوعاً رأيتها على الباب تسدل فستانها على فخذيها المكتنزتين السمراوين، بدون اهتمام، وضحكت بصوت عال وهي تصفّق بيديها وعيناها مرحتان لامعتان: هيه.. وشفت الحمامة..! وبعد أن كدت أموت من الخجل ضحكت أنا أيضاً وكان ذلك بدون أهمية ولكنه كان سرّاً بيننا.

كان خالي يونان قد حصل على رخصة دولية وسافر إلى انجلترا مع خالي ناثان يجرّبان حظّهما، وكان يشتغل هناك سائق لوري بالليل، والتحق بمدرسة نقابية بعد الظهر، وعاد واشترى سيارة أجرة مربّعة الشكل يسوقها ويكسب ذهباً وكان فخوراً بعمله، وانتخب رئيساً لنقابة سوّاقي الملاكي والتاكسي والأوتوبيس، وكان وفدياً عندئذ ثم أصبح صديقاً للبرنس عباس حليم وعمل معه، وكان البرنس شخصياً يزوره في النقابة ويخرج معه، في التاكسي، وهو يجلس بجانبه، وكان عندئذ قد رافق أم توتو، ثم تركها، وكان أنيقاً وله مهابة في البيت، ويجيد الكلام ويعرف الانجليزية وسافر مرّة إلى جنيف ليحضر مؤتمراً عمّالياً دولياً. وسمعت جدّي ساويرس مرّة يقول إن ابنه يونان «خطيب يخلب لبّ السامعين»، بينما ناثان قصير ومكير وخبّاص ولكن قلبه كالحليب، أما سوريال أصغر أخوالي فقال عنه إنه حشّاش ولكنه ابن حلال وابن صنعة ويده تصوغ الذهب من الخشب.

كنا في أول الصيف، وكانت الشهادة قد جاءت بالبريد أنني انتقلت إلى السنة الثانية في مدرسة النيل الابتدائية، وفي الصبح رأيت البنات وأمهاتهن وآباءهن يتزاحمن حول قوائم الناجحات التي علّقت على لوحات كبيرة داخل باب المدرسة الحديدي، أمام تكعيبة العنب، وكان الفرّاشون يحومون حول البنات وآبائهن يتهافتون عليهم بالتبريك والدعوات ويلتقطون الأرزاق التي تدسّ في أيديهم، ثم انحسر الاضطراب، وصعدت البنات إلى الدور الثالث استعداداً للإجازة الصيفية وكنت أرى النوافذ مفتوحة على السراير وقمصان البنات البيضاء مفتوحة قليلاً على صدورهن من الحرّ.

وفي العصر كان الهواء قد ضعفت حرارته، والنور في الشارع ناعماً والشمس صفراء، وكان السحاب الأبيض الجامح في السماء بطانته تحمرّ قليلاً وهي تنزلق وتتقلّب بسرعة في زرقة الصحو الصافية. وكنت أقف وحدي في شرفة بيتنا، أحلم بغموض، وأنظر إلى الكركون على جنب بعيداً وراء دوران الترام، والحجر في حيطانه أسود ومضلّع وكثيف، وأمامه الشجر الذي تهتزّ أغصانه الثقيلة. والحمام الذي كان يهدل ويشقشق بشدوه المكتوم الرتيب طول الظهر من الحرّ، قد صمت أخيراً. وكان الشارع خالياً، نظيفاً، أرضه باهتة السواد، والعالم كله هادىء تماماً.

التفتّ فجأة إلى مدرسة البنات، أمامي، فرأيتها وهي تلقي بنفسها من النافذة، في نور آخر النهار. كان جسمها خفيفاً يتقلّب في الهواء كأنها تطير وهي تسقط، جونلتها الزرقاء الداكنة تنحسر عن رجلين تضطربان وتصطدمان كأنهما بلا وزن، وكانت صامتة.

سمعت خبطة الجسم في تكعيبة العنب صدمة جافّة، ولها فرقعة مكتومة، وخشخشة الورق، والاحتكاك الصلب، بينما الجسم يثب إلى أعلى وثبة صغيرة من رَجْع الصدمة، ثم ينقلب ويسقط على بلاط الممرّ، بصوت ارتطام مسدود، نهائي، كومة مهتدلة، ذراعاها ملتويتان تحت رأسها، كأنها بلا عظام.

فزع الحمام الذي كان يأوي إلى وكناته الخفيّة وسط الشجر، وطار يرفرف بأجنحته الطويلة التي مسّتها حمرة الغروب فاشتعلت، في السماء.

وسمعت على الفور صوت القيء، تشنّجات متقبّضة ثم انفجار متحشرج، والجسم يهتزّ على الأرض، الرأس الملتصق بالبلاط يندفع منه سائل لزج ثقيل محمرّ الرغوة.

ثم الصمت.

لحظة واحدة من الصمت الكامل، التامّ.

هل كانت صرختي القصيرة، لم أسمعها، هي التي أتت بخالتي سارة وخالتي وديدة وامرأة خالي إستر، كلهنّ، يجرين إليّ، أم صرخات البنات التي ارتفعت، مروّعة، ونداءات المشرفة والفرّاشين الذين أخذوا يخرجون متلاحقين من باب المدرسة الداخلي؟

كانت على الباب لمّة صغيرة من الناس، جاءت عربة الإسعاف بجرسها المجلجل، ودخل المتطوّعان، بالكاب الأحمر والحلّة الصفراء، وحملاها على نقّالة وأدخلاها في جوف السيارة التي انطلقت ودقّات الجرس السريعة تصلصل بإلحاح.

لم أترك الشرفة، ولم أتعشّ، أين كانت أمي، وخالتي وديدة وستّي أماليا؟

عندما تقدَّم الليل كانت قريباتي كلهنّ جالسات على حصيرة في الشرفة، وكنت ملتصقاً بحديد سورها، وكان قلبي موحشاً وعيناي مغلقتين.

نادتني امرأة خالي إستر، من بينهن جميعاً. كان شعرها في الليل عارياً وقصيراً وغامض السواد، ووجهها المدوّر الأسيل السمرة صافياً في نور الليل الصافي، وكانت عيناها النجلاوان منتفختين قليلاً، وتومضان.

وقالت لي فجأة، بلهفة: يا ضنايا.. مالك؟ تعال.. تعال نم على حجري هنا.

وضعت رأسي بين فخذيها الطريتين الممتلئتين، وكانت ناعمة تحت وجهي، ودافئة، ونفح جسمها الأنثوي حميماً، ونزلت بيدها الرخصة فضغطت على وجهي، بحنوّ ورفق، على حجرها. ونمت.

في آخر أيامه الستة، في غسق القاهرة الفاطمية، وفي غسق العشق الأخير، قال لها: عندئذ، كان هذا الطفل، في السابعة من عمره، قد عرفك، ونام في حنوّ جسدك.

قالت له: كانت طفولتك مدلّلة.

قال: كان الموت فيها كثيراً.

واحدة حمامتي، كاملة، مشتعلة بين العناقيد والحسك، طالعة أبداً من ساحة قلبي كعمود دخان معطّر بالمرّ واللبان، لا تهبّ زعازع الزمن الهُوج بنشرها العَبِق، نارها سوداء ومتّقدة، لا تنطفىء.

الزَّبِد على أصابعك السمراء المكتنزة ناصع كرغوة البحر في موجته التاسعة والأخيرة.

وما زال شعرك الوحْف الوَحِيُّ السواد غدائره تتنزَّى ثم تثوي تحت يديّ اللتين تُمَسِّدان جعودته وتُروِّضان رعونة حَرَشته.

رأس الميم المكسور المدوّر على ذاته فُلْك مغلق يمخر الموج بلا مَرْسى، وكأن الأرض تتشقّق غداً وتمور تحت طوفان البحر الغضوب.

ملائكة الجحيم تحوم بي وهزيم المَلَأ الأسمى في سماءٍ طامية يزمزم بحَدَمة الغُلمة وجمجمة الرمضاء. أوام حَوَماني له طعم الرُغام في فمي. اليمّ الخضمّ يموج بدوامات من عُرام حُمّياي إلى حَرَمِك. ميمي ممدودة إليك بجسم منهمر ونعمتي فيك موصولة بالميمْ. رمالُ مهامه المَضض ترتمض جمراً وحمماً، وبي لَمَمٌ من غمرات التّيم التي تتمعَّجُ في مكامني.

وها أنت تُميطين لي الغيام عن مَيْعة جسمك وترمقينني، وامقة، بسهام نجمتيك. الخمر المُزّة إذ تُلاثمينني مُضمَّخَة بمَتاع ملكوت النعمة المحض. في قوامك الشامخ الأُملود عِصمتي ومَنعتي. وإذا جلاميدُ مَخْمصتي رسومٌ طامسة، وحطامُ الشموس تهمي، وجهومة أيامي المُهَدَّمة في العتمة المُدَلهمة، قد مضت. المسوخُ الكظيمة الماثلة دوماً قد مالت ثم انحطمت فإذا هي هشيم. والأمشاج المُمَزَّعة قد التأمت بمعجزتك يا رؤوم. مهاد لحمك الهضيم تميس في نسائم الرحمة. وقمر مُحيَّاك كاملٌ ليس فيه ثلمة.

جماحي إليك شِماسي مستميتٌ مقتحمٌ في معمعات المحبّة. ومُهجتي مِزَعٌ ممزَّقة بين أناملك. أمسُّ حَلَمة أكمتيك الدَمِثة وينهمل

مطر الدِيمة على رُمَّانتيك. أتسنَّم عُمدان آجامك من المرمر الرخيم، والرُمح يميد في دِمنتك.

تعازيم هيامي مُسداة إليك، حتى شموع موتي.
يا حمامتي المضطرمة..
ألم تصغي لمتيَّمٍ يُحبّك لحمُه ودمُه؟
ألا ترين رفرفة الملاك الأسود الذي يراه؟
في عَمَاية الموات الدامسة انزاح الحجر عن فم القبر وصعدتُ إلى السِماك العُلَى.

ذهبت مع أبي، بعدها، إلى شغله في مغازة الشيخ شاهين المراغي، في شارع أنسطاسي. اراد أن يحتفل بي، فأخذني إلى المصوّراتي الذي كان في شارع السبع بنات.

كانت «المغازة» مخزناً ومحلاً ومكتباً لبيع وشراء البيض والبصل والسمن البلدي، وتوريدها للخواجات المصدِّرين أو لتجَّار الجملة من أولاد البلد. وكنت أعرف أن تجارة أبي قد كسدت، وأنه باعها للشيخ شاهين المراغي ودخل معه شريكاً بالعمل بثلث الأرباح، وكنت أتصوَّر أنهم في آخر كل شهر يجمعون النقود الفضّة والمعدن، ريالات وأنصاف ريالات وأنصاف فرنكات وقروش وملاليم، ويقسمونها ثلاثة أقسام يأخذ أبي واحداً منها، وأحسّ في ذلك ظلماً غير مفهوم.

كانت المغازة فسيحة ومعتمة ورطبة وأرضها من الإسفلت الأسود وفيها أعمدة حجرية عالية، ورأيت فيها ناساً غامضين صامتين، بملابس الشيَّالين الزرقاء وعممهم وطواقيهم، جالسين على خيش مفروش على الأرض، أذرعهم مرميّة على ركبهم بتعب، بين أكوام

مرصوصة من شوالات البصل لها عبق نفَّاذ مهاجِم، وأقفاص البيض الأبيض يلمع وسط القش الذي تخرج أعواده الرفيعة كشوكٍ هشٍّ من بين القضبان الخشبية وتذكّـرني برائحـة الفراخ. وفي آخـر المغازة، في الـظلام، تومض صفـائح السمن بعضهـا فوق بعض، شكلهـا ثقيـل وثابت.

سلَّم عليَّ الشيخ شاهين، كان له وجـه مدوَّر غنيّ داكن السمـرة، وابتسم لي فغارت عيناه الصغيرتان اللامعتان مـدفونتـين إلى أعمق في دسم مـلامحه، وكـانت على رأسـه عمامـة يلتفّ حولها شاش نـاصـع البيـاض حريـريّ الشكل لـه شراشيب رفيعة وراء أذنـه، وسلَّم عليّ أيضاً ابنه الشاب الذي نظر إليّ بلا مبالاة، وكان يلبس بدلة صـوف انجليـزي مربّعـات، وكرافتـة رفيعة جـداً محزوقـة بإحكـام في الياقـة البيضاء المنشّاة، وعلى رأسه قبعـة رماديـة كالخـواجات، يلفّهـا شريط حريريّ رماديّ أيضاً. وقال لي الشيخ شاهين، ما شاء الله ربنا يطرح فيك البركـة يا بني، وتـاخذ الشهـادة، ونبعتك بـلاد الانجليز تكمـل علامك زيّ أحمد أفندي ابني كـده.. ومرَّت في ذهني صـور غامضـة لبـلاد بـاردة ينـزل فيهـا الثلج كـالمـطر وفيهـا عسـاكـر كثيرون عـلى موتوسكلات ونساؤها مثل أم توتو، ثيابهن قصيرة وشفّافة وأجسـامهن رقيقة ناعمة، ولكني مع ذلـك لم أصفح في قلبي عن الشيـخ شاهـين ولا عن ابنه.

ولم يكن الشيـخ شاهـين يعرف القـراءة ولا الكتابـة، وكـان هـذا يحيّرني جداً، وكان أبي هو الـذي يكتب ويحسب، وكنت فخوراً بـه، وكـان مكتب أبي كبيراً، بجـانب باب المغـازة وعليه دفـاتر الحسـابات مـرصوصـة ومفتوحـة ومجلّدة بالأسـود وفيها خـطوط مموَّجـة بـالأزرق

والأحمر على حواف الورق السميك وهي مقفلة، وسحرتني مَكَنة نسخ الخطابات والفواتير المكتوبة بالبالوظة البنفسجي، حديدها الغليظ المتين له يد تدار على قائم حلزوني الحلقات، فتنزل الحديدة العلوية المسطّحة على الورق الشفّاف المبلول بللاً خفيفاً، فوق ورق نشّاف فاتح الحمرة، حتى تنطبق انطباقاً محكماً على قاعدة المكنة الصلبة الراسخة، وعندما ترتفع الحديدة العلوية تظهر الصورة مقلوبة على الورق الخفيف المبلول.

تسلّلت ودخلت مكتب الشيخ شاهين، وكان نظيفاً جداً وخالياً وفيه رائحة تراب وهواء محبوس وله مهابة، وكان النصف العلويّ من بابه زجاجياً محبّباً مبيضاً وعليه اسم الشيخ شاهين أحمد المراغي، وتحته اسم أبي، وتحتهما تجّار البيض والبصل والسمن البلدي بالجملة والقطاعي، كلها بالخط الثلث حروفه قائمة بكبرياء وشموخ، بالأسود والذهب، أقرؤها من الداخل، مقلوبة على الزجاج المبيض، ونقلت اسم أبي على ورق أبيض، مرّة معدولاً ومرّة مقلوباً، وأحسست تحت يدي لدونَة الجوخة الخضراء على المكتب، مسمّرة بمسامير صفراء غليظة على إطار خشبيّ لامع مموَّج وداكن يدور بأطراف المكتب الأربعة، وعندما خرجنا أخذت معي ظرفاً كبيراً فيه مجموعة من الفواتير والخطابات البيضاء عليها اسم أبي، واستخدمتها بعد ذلك بكثير في كتابة الشعر، أيام الحرب.

في محل المصوّراتي دخلنا إلى الغرفة الداخلية الفسيحة المعتمة، وأضاء الرجل مصابيح كهربائية قويةكثيرة من عدة زوايا، وكان الهدوء ثقيلاً، ووقف أبي، بيده عصا الأبنوس ذات المقبض العاجيّ، وفمه مزموم ونظرته متأمّلة وعميقة وصافية جداً، ورفعني المصوّراتي

وأجلسني على مائدة عالية صغيرة بجانب أبي. وكنت ألبس قميصي الحرير الأبيض الواسع الياقة والبنطلون القطيفة الأسود الذي له حمّالات فيها زراير بيضاء كبيرة، وحذائي الأبيض الجديد الذي له نعل مطّاطي رمادي يغوص قليلاً تحت قدميّ عندما أمشي، وجوربي الأسود المرفوع مضموم على ساقي وحده ليس فيه أستيك، ووضعت يداً على يد، وكان شعري ناعماً ومفروقاً، وقال لي المصوّراتي أن أنظر في عين الكاميرا الكبيرة المعدنيّة المحدّبة التي كانت تومض في الأنوار القوية، وكنت مستقراً في فراغ الهواء العالي وآمناً، وأحسست نفسي بعيداً جداً عن الأرض ولم أكن أخشى السقوط ولم أكن أخاف من الموت وكنت أرى رفرفة البنت التي تسقط، وهي تطير، ولا تصل أبداً إلى تكعيبة العنب الكثّة الشرسة تحتها. وكان المصوراتي يلبس جاكيتة قماش سوداء خفيفة على قميص، ولها كم منفوخ مضموم على أعلى ذراعه بحلقة أستيك سميكة، وأدخل رأسه تحت القماشة السوداء التي انسدلت خلف الكاميرا، ووقف بين القوائم الحديدية المثلثة، وسمعناه من تحت خيمته الداكنة يقول لنا بصوت مكتوم: كويس. . كويس. . بصّوا لي هنا في عين المكنة على اليمين شوية. . كويس كده، واحد اتنين خليكوا كده من غير حركة. . وخرج بسرعة، وأزاح غطاء مدوراً من على فتحة العدسة ثم أعاده بصوت صفقةٍ نهائية، وقال: مبروك.

ولما عدنا بالترام في أول الليل، كان الميدان الصغير في آخر شارع راغب باشا خالياً، وكان الدخاخني، بمنصته الرخامية الرمادية الطويلة الخارجية في الشارع، مغلقاً، ولكن السينما، التي بُنيت في عنبر صفيح عريض مثلث السقف وبوابتها شبكة حديدية جرارة،

كانت منيرة بعقد طويل من المصابيح الكهربائية مدلى على الباب، يضيء إعلاناً ملوناً فيه حصان أحمر يجري وعليه راعي بقر قبعته عريضة مستديرة زرقاء، باهتة على وجهه الناصع الزرقة، ويرفع سوطاً طويلاً في الهواء، وكنت أتأمل الإعلانات الملونة المصورة على هذه السينما في طريقي للمدرسة كل صباح، وأقرأ عناوين الأفلام وأسماء الأبطال، وأتخيّل أحداث الروايات، طويلاً، وما يدور فيها، وأحلم كثيراً بأن أدخل هذه السينما. ولم أدخلها أبداً.

رأيت أنني أسير إلى كوم الدكة، وفي الطريق ذهبت إلى الجنينة الواسعة التي تقع على المحمودية والتي كنت أشتري منها، الآن وأنا صغير، الخسّ والجرجير والبصل الأخضر والكرات والملوخية والكرفس والبقدونس والخبيزي والفجل والسلق للقلقاس، وفي كل مرة أسير إليها متمهلاً، متأملاً، أمرّ بسياج خشبي عالٍ فيه ثغرات طويلة من ألواح الخشب، أضع عليها عيني ولا أكاد أرى وراءه أسرار هذا المبنى الغامض البعيد الشاحب البياض، وله أعمدة مدوّرة وشبابيك طويلة، ولا أكاد أرى حديقته الواسعة، معتمة بأشجار وارفة أثيثة الأغصان متشابكة وكأنها وحشية. وأقول لنفسي كم من الأسرار وراء كَمْ من الأسوار حدستها ولم أعرفها أبداً وشد ما أحِنّ إلى معرفتها، موقناً أنني لن أعرفها أبداً وأن الشوق سيظل مع ذلك أبداً، في روحي، برغماً خاماً مزدحماً بعصارته الكثيفة وجائعاً إلى التفتق والازدهار.

دخلت جنينة الخضار من باب خشبي مفتوح دائماً مخلوع المفصلات، وأحسست بالأرض كاملة ترف بأنواع الخضرة منها القصيرة اليانعة والفارعة الطول، والداكنة والملتفة، والرقيقة

والمتكاثفة، والمرهفة السنان كأنها شفافة، أمُرّ على مدق ترابي ضيّق من تحت تعريشة العنب المورقة القائمة على أعمدة من خشب التفّت بها أغصان الكروم الملتوية ذات العُقَد الخشنة، وأسمع الحمام يزقو ويهدل بترجيع رتيب الإيقاع، مختبئاً في الشجر الكثيف الداكن الورق، لا ينتهي إيقاع ترتيله وليس لشجوه انقضاء، وأنفذ من جانب البقرة التي تدور بالساقية في وسط الجنينة، ببطء وإصرار، مغماة العينين، تجترّ وينزل اللعاب من خطمها في خيوط فضية طويلة، وأسير على المسقى الطويلة التي يتسلسل فيها الماء من الساقية على القاع الرملي الطيني الصلب الفاتح اللون، يترقرق، وتضوء الشمس على مويجاته المنسربة بخرير موسيقى تفتح أبواب القلب في الهواء الطلق النقيّ العبق برائحة الخضر وروث البقرة والسباخ البلديّ والنعناع والريحان معاً.

خرج إليّ الفلاح القصير المدكوك الجسم من خُصّه الطيني الضيّق كأنه يطلع من تحت الأرض. وجهه مجدور وعميق الغضون ومحروق ويده قصيرة الأصابع خشنة، حَشَّ لي الخضار بمنجل صغير مقوّس وحادّ السنّ، وأحسست مدى رهافة حركته ورقتها وحنوّها وكفاءتها في وقت معاً، وأحسست أن في جسم هذا الرجل جدّي ساويرس وأبي وأولاد عمتي بقطر ورفلة، وأخوالي الثلاثة يونان وناثان وسوريال، وأن نظرتهم جميعاً، معاً، في عينيه الغائرتين الثاقبتين، وأنني لا أنفصل عنه ولا عنهم، وأن في يديه تربة قلبي الملوثة الغمقة المعجونة بالطين لا تجفّ أبداً، وأن هذه الجنينة هي بستان ألف ليلة وليلة المسحور الذي طالما التقى فيه المُحبّون خفية وعرفوا ـ كما عرفت ـ من فنون العشق ما لم يعرفه من قبل بشر.

ورأيت أنني صعدت إلى أعلى تلّة كـوم الدكـة القديمـة، وقد جـلا عنهـا الجنود الإنجليـز سراً في الليـل. ولأول مـرة منـذ وعيت لم يكن اليونيون چاك يرفرف على ذروة التلة، وكنت أعرف مع ذلك بغموض أن كـوم الدكـة القديمـة قد أزيـل وحلّت محلّه ساحـة مسفلتـة ومبـانٍ حكومية، وأننا كنا ننطلق في جماهيرنا الغفـيرة، منذ الصبـاح الباكـر، نرتفع على طرقـات كوم الـدكة الخـالية التي كـانت محرمـة علينا وقـد أصبحت في هذا الصبح حلالاً، جماعات جماعات، أصوات هتـافاتنـا مبحـوحـة في الهـواء النقيّ: الجـلاء الجـلاء يسقط الاستعـمار يسقط الاستغلال. وكانت عنابر الجنود الإنجليز خـاوية عـلى عروشهـا، ولم يتحرك الجيش المرابط لاحتلالها بعد، ودخلناها ورنّت أصداء أحذيتنا في فراغ حيطانها، وكـان بلاط أرضهـا متربـاً قليلاً وعليـه قصاصـات ورق ممزقة وبقايا القشّ، وكأن اليوم عيد، وجماعات المتظاهرين كأنهم يرقصون رقصات جماعية، يشوّرون ويهتفون وينشدون من الفرح.

وكانت الأشجار المشذّبة على جانبي الممـرات الترابيـة كأنها رؤوس من الأغصان كثيفة جعدة منذِرة ومهددة وشرسة، وعندما طوّفنا بكـل أنحاء القلعة المهجورة الموحشـة، ونزلنـا، وجدنـا جنود بلوك الـنظام صفوفاً متراصّة تحت سفح كوم الـدكة، وفي أيـديهم دروعهـم الخشبية الخضراء القـائمة، عـلى رؤوسهـم خوذات حـديـديـة صـدئـة، ركبهم مـدوّرة سوداء بـارزة تحت «الشـورتـات الكـاكي» الـطويلة، وشرائط «الألشـين» تلتف بسيقانهم النحيلة حتى تغيب تحت الأحـذيـة المـيري الضخمـة المتربـة بجلدها الخشن المقبب، وانتـظمت الجمـوع بقيـادة صديقي عبد القادر نصر الله الذي كان ما زال في كلية الطب بينـما قد تخرجت سنتها من كلية الهندسة، وكان قد انضم إلى جماعتنـا الثوريـة

الصغيرة. ورأيت على جانبي شارع النبي دانيال جثث الأطفال المرمية هامدة، حمراء لها قشرة لامعة، كأنها «جنبري» مسلوق ضخم، أيديها وأرجلها ثلاثية الأصابع مبتورة ومتورمة ومدورة وحول رؤوسها غلاف صدفيّ شفاف تحدّق من وراء زجاجه عيونها المفتوحة المتهمة. وكانت المظاهرة تشق طريقها، مع ذلك، بحرص، بين صفّي الجثث الطفليّة تحاذر أن تمسّها، وعندما وصلنا إلى واجهة كأنها بوابة فندق منيف، ناطحة سحاب، ألواحها زجاجية مدخنة، شاسعة، تقطعها أعمدة الألمونيوم المصقولة، هجم جنود بلوك النظام فجأة دون إنذار، وسمعنا في الوقت نفسه قرقعات الرصاص في الهواء كأنها غير جدّية لا تحمل خطراً، آتية من نوافذ البناية الزجاجية الشاهقة، ورأيت الناس يسقطون بصمت، مضروبين بالرصاص، وتمرّ عليهم الأقدام المتلاحقة، والناس قد انطلقت تجري في كل اتجاه، وكانت موجة الناس تصعد وتهبط، ورأيت الأجسام التي أمسكت بها النار تلقى من النوافذ العالية، وتتقلب في الهواء، وتسقط بعيداً في البحر، وكانت الرؤوس تطفو فوق الأمواج مفتوحة الأفواه بصرخة لن تصمت أبداً، ورأيت وجهها الذي أحبه، ويرودني في حلم مستمر، يسبح في مياه حبّي التي لا تغيض، ساطعاً بسمرته الخمرية وسط زبَد الرؤوس المتلاطم من غير صوت، وأحسست الطعنة في قلبي من عينيها الواسعتين بموجها المخضرّ الثبَج، وسقطت في الغمْر، ولما أفقت كانت الطعنة ما زالت تغوص في عمقي الذي ينصهر ويتقد ويفيض حمماً كالبحار الوحشية الجموح تنسكب متوهجة تثجّ باللظى وتُغرق جسمي في ضرام اللهب، وأحسست أجنحة الحمام المشتعل بوهيج النار ترفرف حولي وتصعد بي، في زرقة السماء الصحو الناعمة، محترقاً من غير انتهاء.

الفهرس

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٨١٥٧-٨٣٧٧٠٢ - بيروت - لبنان

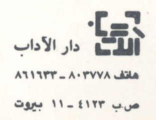
يواصل إدوار الخرَّاط «بترابها زعفران» تأكيد مكانته الأدبية كواحد من أهمّ كتَّاب الحساسية الأدبية الجديدة في مصر، ومن أكثرهم ارتياداً للآفاق، ولبقاع جديدة في التجربة الإنسانية والفنية على السواء. . . و«ترابها زعفران» أكثر كتبه شفافية وتلقائية وجمالاً.

صبري حافظ

* * *

تأتي نصوص «ترابها زعفران» لتؤكِّد أن إدوار الخرَّاط يشيِّد كتابته عن الطفولة مغايرة لأغلبية النصوص العربية التي صدرت قبلها. . . يريد الكاتب لتراب سنوات العمر أن يكون في وهج الزعفران، لا ينطفىء مهما اشتدّ لهيب الضنى والألم، وتنزّي شبح الموت المنتصر. ذلك أن أجواء الطفولة الطافحة بالنداوة ولغة البدء، تمنحنا دوماً حلم التجاوز، ووهم ملاقاة «الكلية» الضائعة.

محمد برادة



دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت